كتاب الدوحة

عباس محمود العقاد

عبقرية عمر



تقديم: سليمان فياض

عَبْقَرِيَّةُ عُمَر

عباس محمود العقاد

كتاب الدوحة 17

يوزع مجاناً مع العدد 60 من مجلة الدوحة أكتوبر 2012

عَبْقَرِيَّةُ عُمَر

تأليف: عباس محمود العقاد

النـاشر :

وزارة الثقـافة والفنون والتراث – دولـة قطر

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :

الترقيم الدولي (ردمك) :

إخراج وتنفيذ : القسم الفني – مجلة الدوحة

لوحة الغلاف : موسى عمر – سلطنة عمان

عَبْقَرِيَّةُ عُمَر

عباس محمود العقاد

تقديم : سليمان فياض

لسان العرب

فهرس الكتاب

لقاء عبقريتين

سليمان فياض

خلال سنوات العقدين الرابع والخامس من القرن العشرين، بدأ المفكرون الروّاد في القرن العشرين في البحث عن هوية فكرية مستنيرة، ردّاً على الاتجاه التقليدي السائد الذي يربط الدين بالخرافات، أو يبالغ في تأويل النصوص فيجعلها تسيطر على كل مناحي الحياة حتى الاكتشافات العلمية، ذلك الاتجاه التقليدي الذي يتمسك بحرفية النص، ويغلق باب الاجتهاد، ويجعل السلطة المطلقة في يد رجل الدين، ومن جانب آخر كان ذلك البحث ردّاً على الاتجاه المقابل الذي يتمسك بالتغريب، ويرى أن النماذج الأوروبية فقط هي النماذج التي يجب أن تُحتذَى، وكذلك كان رد فعل للظروف السياسية في تلك الفترة المرتبطة بمواجهة الاستعمار.

وظهرت مجموعة من المشاريع الفكرية الكبرى، التي تمثلت في كل أنواع الكتابات الأدبية أو الفكرية، ومن بينها مشروع طه حسين وكتاباته الإسلامية المتعددة التي بدأها بكتاب: «على هامش السيرة» عام 1933، وغيرها من الكتب ككتابه الخالد «الفتنة الكبرى»، وكذلك كتاب «الشيخان»، وقصصه الإسلامية الأخرى، مثل: «الوعد الحق»... إلخ.

ومع صدور كتاب «على هامش السيرة» بدأ محمد حسين هيكل مشروعه الفكري بكتابه «حياة محمد»، وأبرز هذه المشروعات الفكرية كان مشروع أحمد أمين التأريخي الضخم بثلاثيته الشهيرة في تسعة أجزاء، التي بدأ

الكتابة فيها عام 1929، وهي «فجر الإسلام»، و«ضحى الإسلام»، و«ظهر الإسلام».

وكذلك بدأ مشروع العقاد الضخم بكتابة عدد من المقالات والكتب، بدأها عام 1941، بكتابيه «عبقرية محمد» و«عبقرية عمر»، وفي السنوات التالية وما تلاها إلى عام 1961، توالت كتبه الإسلامية الأخرى، منها: «الصدِّيقة بنت الصديق» «الحسين سيد الشهداء»، «عبقرية خالد»، «داعي السماء بلال»، «العربية في الحضارة الأوروبية»، «الشيخ ابن سينا»، « الله «، «الفلسفة القرآنية»، «عبقرية الإمام»، «عبقرية الصدِّيق»، «الديموقراطية في الإسلام» «عبقرية المسيح»، «فاطمة الزهراء»، «إبراهيم أبو الأنبياء»، «عثمان ذو النوريْن»، و«الإسلام في القرن العشرين»، «مطلع النور»، «إبليس»، «معاوية في الميزان»، «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»، «الإسلام والاستعمار»، «المرأة في القرآن الكريم»، «محمد عبده»، «التفكير فريضة إسلامية».

وكان كثير منها يرتبط بقضايا ما زال الجدل يدور حولها إلى عصرنا هذا من بينها: الديموقراطية في الإسلام، ومكانة المرأة ودورها في المجتمع، وكانت من أشهر كتبه الإسلامية تلك الكتب التي ذاعت بين طلاب المدارس والشباب، إنها كتب العبقريات الإسلامية، عن شخصيات عاشت كلها في صدر الإسلام.

العبقري

عاش العقاد (1889 – 1964) بمدينة أسوان، ثم بالزقازيق، ثم بالقاهرة. وحصل على الشهادة الابتدائية عام (1903) وعمره أربع عشرة سنة. وأغراه صديقه الفقيه أحمد الجداوي بالقراءة الحرة فلم يفارقها إلى آخر عمره، وعمل العقاد موظفاً بمدينة قنا، ثم الزقازيق، ثم استقر بالقاهرة بعد وفاة أبيه.

وفي عام 1907 اختاره محمد فريد وجدي، ليعمل محرراً بجريدة الدستور، فأحرز نجاحاً باهراً في العام التالي بحديث أجراه للصحيفة مع وزير المعارف سعد زغلول، الذي تولى الحركة الوطنية بعد ذلك، وبعد توقف إصدار الجريدة عاد العقاد إلى العمل الوظيفي بوزارة الأوقاف عام 1919،

بتشجيع من المويلحي، صاحب مقامات عيسى بن هشام. واشترك العقاد في تحرير جريدة «المؤيد» التي أصدرها الشيخ علي يوسف مؤيداً بها سياسة الخديوي عباس، وما لبث أن اصطدم به فترك ميدان الصحافة، واشتغل مع رفيق عمره الأديب محمد عبد القادر المازني، معلماً بمدرسة الإعدادية الثانوية بمدينة القاهرة، ثم بمدرسة وادي النيل الخاصة.

بدأت صلة العقاد الحقيقية بالصحافة مع محمد عبد القادر حمزة، بجريدة الأهالي التي كان يصدرها بالإسكندرية عام 1917، وما لبثت الصحافة أن أصبحت مهنة العقاد وميدان عمله المتواصل، وساعده على ذلك قيام الثورة الوطنية عام 1919 وظهور الأحزاب السياسية. وكان لديه ميل إلى خوض المعارك الفكرية والأدبية، وميل غريزيّ للتحدي والنقد اللاذع.

وفي عام 1919، بدأ العقاد عمله بجريدة الأهرام المستقلة، وانتقل بعدها إلى العمل بجريدة الأفكار ثم بجريدة البلاغ عام 1922 مع عبد القادر حمزة، وارتبط العقاد بجريدة البلاغ وملحقها الأدبي الأسبوعي لسنوات طويلة، حتى اصطدم بسياسة الوفد برئاسة النحاس عام 1935، وبعد هذا العام وجّه العقاد تدريجيّاً نشاطه إلى التأليف الأدبي والفكري.

ومن الصحف التي شارك في تحريرها في هذه الفترة، روز اليوسف اليومية، والدستور الجديد، ومصر، وأخبار اليوم، وأسهم في تحرير مجلة الهلال، ومجلة الأزهر. ونتيجة لاشتغاله بالعمل السياسي، ومعارضته لسياسة السراي، حُكِم عليه بالسجن لمدة تسعة أشهر. وكان قد انتخب عضواً بمجلس النواب، ثم عضواً بمجلس الشيوخ عام 1934 وعام 1940. وقد مُنِح جائزة الدولة التقديرية عام 1960.

•••

اعتمد العقاد في تكوينه الفكري على القراءة الحرة والتحصيل الذاتي. وكان منكباً منذ المرحلة الابتدائية على اللغة العربية، التي أحبها، كما عني منذ صباه بتعلم اللغة الإنجليزية، وساعدته على تعلمها بيئة أسوان السياحية، إلى أن اتصل بيعقوب صرّوف، صاحب المقتطف، والشيخ رشيد رضا صاحب المنار، وقد ضمّن العقاد مؤلفاته، ذكرياته عن الأدباء الذين التقى بهم في كتابه: «شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي».

وقد فتحت للعقاد مكتبات القاهرة للاستقاء من منابع الفكر الغربي، ونحا في قراءاته نحواً موسوعيّاً. ولم يفارق بعد ذلك دراساته الإسلامية فكراً وتاريخاً، فأصبح ذا ثقافتين، وجدناهما معاً في مؤلفاته في المرحلة الأخيرة من حياته.

وللعقاد ما يزيد على مائة كتاب، ومئات المقالات تنوعت ما بين الفكر والأدب والشعر والسياسة والكتابات الإسلامية والتراجم والسِّيَر.

وأول أعمال العقاد المنشورة أصدرته دار الهلال عام 1912، بعنوان «الخلاصة اليومية»، ثم في العام التالي صدر كتاباه «الشذور» و«الإنسان الثاني» ويضمان مجموعات من النُّبَذ في الأدب والاجتماعيات. أما أول ديوان شعري له فقد صدر عام 1916، ثم أتبعه بأجزاء ثلاثة أخرى عام 1932، ثم توالت سائر مؤلفات العقاد الأدبية والفكرية من نثرية وشعرية حتى زادت على مائة كتاب بينها تسعة دواوين شعرية. ومن أهم كتبه: «ساعات بين الكتب»، و«الديوان»، و«سارة»، ومن بين كتبه الأدبية ينفرد كتابه عن «ابن الرومي» بمنزلة ساحقة في ترجمة ونقد الشعر والشاعر. وبالطبع لا يجب أن ننسى الكتب الإسلامية التي أشرنا إليها من قبل.

عبقرية عمر

كتب العقاد عبقرياته، في ضوء رؤية ومنهج نقديين يقيِّم بهما شخصياته العبقرية في كتب العبقريات العقادية، يقول في مقدمته لكتابه: «عبقرية عمر»:

«وكتابي هذا ليس بسيرة لعمر، ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التي تقصد بها الحوادث والأنباء، ولكنه وصف له. ودراسة للأطوار، ودلالة على خصائص عظمته، واستفادة من هذه الخصائص بعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة. فلا قيمة للحدث التاريخي جَلَّ أو دَقّ إلا من حيث أفاد في هذه الدراسة. ولا يمنعني صغر الحدث أن أقدمه بنفس الاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث إن كان أوْفى تعريفاً بعمر، وأصدق دلالة عليه».

وفي رأي العقاد، أن عمر رجل المناسبة الحاضرة في العصر الذي نحن فيه، لأنه العصر الذي شاعت فيه عبادة القوة الطاغية، وزعم الهاتفون بدين

هذه القوة، أن البأس والحق نقيضان. فإذا فهمنا واحداً كعمر بن الخطاب. فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه، لأننا سنفهم رجلاً كان غاية في البأس، وغاية في العدل، وغاية في الرحمة. وفي هذا الفهم ترياق من داء العصر، يشفى به من ليسوا يميلون إلى الشفاء. وإنه لجهاد جديد لعمر بن الخطاب طاب للعقاد أن يوجزه لنا في كتاب: «عبقرية عمر».

بعد المقدمة هناك فصول حرة: عبقري. رجل ممتاز. صفاته. مفتاح شخصيته. إسلامه. عمر والدولة الإسلامية. عمر والحكومة العصرية. عمر والنبي. عمر والصحابة. ثقافة عمر. عمر في بيته. ثم صورة مُجْمَلة.

ويرى العقاد أن مفتاح شخصية عمر هو، في هذا الإيمان الضابط الذي يسيطر على أخلاقه. كما يسيطر على دوافعه وسَوْراته (غضباته)، وذلك الضابط هو إيمانه بالعدل والمساواة والشعور بالمسؤولية.

عمر والحكومة العصرية

وفي فصل «عمر والحكومة العصرية» وهو الفصل الذي يعكس بصورة واضحة رؤية العقاد لعمر بن الخطاب، باعتباره رجل دولة، تقترب من مفهومنا للدولة في العصر الحديث، وكذلك هو الفصل الذي يتضح فيه السبب المباشر في اعتبار العقاد عبقريّاً يجب الوقوف عنده، وفهم شخصيته في ضوء العصر الذي يعيش فيه.

يرى العقاد أن الأبطال في أي عصر سابق يقاسون بمقياس عصرهم، وليس بمقياس عصرنا، وأن الرجل الذي يصنع في عصره خير ما يصطنع فيه هو، القدوة التي يقتدي بها أبناء جيله، ولا حاجة له إلى أن يقتدي بنا. ولا أن يشق حجاب الغيب لينظر إلينا، ويعمل بعملنا وبموافقتنا، وبما يرضينا.

وعن شخصية عمر، يذكر العقاد أنه كان متعففاً في معيشته مثل صاحبيه رسول الله وأبي بكر. على حين أنه كان يغدق العطاء على عمّاله على الأقاليم والمسؤولين عن الخراج ليجنبهم الغش في مال الأمة، ويشبعهم ليعفّوا. وكان يقول: «المروءة مروءتان: ظاهرة وباطنة، المروءة الظاهرة هي: الغنى، والمروءة الباطنة هي: العفاف».

ويذكر العقاد، أن عمرَ كان يعاقب على مخالفة العرف، لأنه لم تكن قد

تكونت بعد في المجتمع معاقبة الأمة لمخالفي العرف، بالعرف. وفي عصرنا: نقسم النواهي والأوامر إلى قسمين: قسم يحاسب عليه القضاء بالقانون، وقسم يحاسب عليه العرف المأثور، وعقاب العرف حق الأمة وليس بحق الحكومة والقضاء.

ولقد غضب عمر على الحطيئة الشاعر لهجائه الناس، ومنعه أن يهجو أحداً، فتضرع إليه الرجل وقال: إذن أموت أنا وعيالي من الجوع، فأنذره عمر ليقطعن لسانه، ثم عطف عليه وساومه على ترك الهجاء بثلاثة آلاف درهم. فسلم الناس من لسان الحطيئة.

ولم يعتمد قيام الدولة الإسلامية في عهد عمر على اتساع رقعة ممتلكاتها، بل اعتمد على سياسة إدارية حازمة كانت عنصراً جديداً بالنسبة للمجتمع العربي في عصر عمر. وهو انقلاب في سياسة الحكم يعد من المنجزات العامة التي نسبت لعمر. وقد تمثلت هذه السياسة في تقسيم السلطات في حكم الأقاليم المفتوحة، وقد كان الوضع في عهد الرسول وأبي بكر إسناد كل هذه السلطات إلى والٍ واحد، في الإقليم الواحد كله، وله بالطبع خصوم وأقارب.

أما في عهد عمر فقد صار للإقليم والٍ، ووالٍ للخراج وقاضٍ للقضاة، ووالٍ للجند، وهكذا فتسلسل هرم الإدارة في عهده، وهو ما لم يحدث من قبل، وقد قسم كل إقليم من الأقاليم المفتوحة إلى إقليمين في الشام والعراق ومصر، ففي العراق مثلاً صار هناك والٍ لإقليم البصرة، ووالٍ لإقليم الكوفة، وقائد في كل منهما للجند.

وكان عمر إذا استعمل عاملاً على إقليم، كتب له عهداً واشترط عليه العدل والمساواة بين الناس، وعدم التعالي على الرعية. وكان يبعث الثقات من الصحابة لاستطلاع أحوال الولاة في معاملة الرعية وسير عمّالها فيها. وهو ما يقابل في زماننا لجان تقصي الحقائق. وكان ينتهز مواسم الحج حتى يجمع بين عمّاله والشاكين منهم من أهل الأمصار، وكان بطبيعته يعطي لكل ذي حق حقه، دون اعتبار لمنزلته الاجتماعية، حتى إنه ضرب أحد الصحابة بسوْطه، لأنه تعدى حدود المساواة بين الناس وأراد أن يقدم نفسه على غيره.

وفي عهد عمر تم تقسيم الأقاليم إلى ولايات ليتيسر حكمها والإشراف عليها. وفي عهده تأسست مدن جديدة لتكون قاعدة للجند. ومع اتساعها

صارت قاعدة للولاية والحياة العامة. وجرى تخطيط هذه المدن بحيث يكون المسجد مركزها، ومعه دار الولاية، ودار القضاء والفتوى وسواها من الدور العامة في الولاية.

ومن أعمال عمر الجليلة، تدوينه للدواوين، وقيامه بعمل أول إحصاء لرعايا الولايات الإسلامية، وأول تدوين لأموال بيت المال ومواردها وجهات إنفاقها، وأول ديوان للجند بكل ما فيه من بشر وأموال وغنائم.

ومن أعمال عمر، حرصه على مراقبة الولاة بعيون عليهم يرسلهم إليهم، كما فعل بعمرو بن العاص، حين أرسل الزبير إليه ليكتب تقارير عنه لعمر، وذلك خوفاً من استقلال الولاة بما تحت أيديهم. وهو الأمر الذي حدث للأمة الإسلامية بعد عديد من السنين.

وفي رأي العقاد، أن عمرَ قد رسخت في طويّته المساواة في العدل حتى أصبحت كالوظيفة العضوية فيه. فكانت فيه خشونة الأقوياء الصرحاء، ولكنها قوة ظاهرية في باطنها الرحمة بالناس والأفراد، ولذلك أحبه الناس، إلى درجة أن عبد الله بن مسعود كان يقول: لو أن عمرَ كان يحب كلباً لأحببته. ولقد كان معاوية وعمرو بن العاص يثنيان عليه، ويحترمانه.

ومن أهم الصفات التي أشاد بها العقاد، كصفة متمة لشخصية عمر بن الخطاب، التواضع، فقد كان ينام حيث يدانيه النوم ولو على جانب طريق. ولقد رآه الهرمزان وهو في هذه الحالة، فقال قولته الشهيرة: «حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر».

من حوليات عمر:

كان أول من مَدَّ يده لمبايعة أبي بكر، خليفة لرسول الله– صلى الله عليه وسلم– على المسلمين.

تولى الخلافة بوصية من أبي بكر، في الأول من المحرم سنة 13 هجرية. يوم الإثنين 7 مارس سنة 634 ميلادية.

وضع قواعد النظام الإداري للدولة الإسلامية سنة 15 هجرية، في اليوم الأول من المحرم الموافق يوم الأربعاء 14 فبراير سنة 636 ميلادية.

أقر عمر بعد استشارة الصحابة سنة الهجرة بداية للتاريخ الإسلامي،

على أساس الشهور العربية القمرية في اليوم الأول من المحرم يوم الجمعة الموافق 23 يناير سنة 638 ميلادية.

وفي نهاية عام 23 هجرية، يوم الأربعاء 19 نوفمبر 643 ميلادية، انتهت خلافة عمر.

العبقريات دُرّة العقاد

وتُعَدّ العبقريات أشهر ما كتبه العقاد، ففي هذه العبقريات كتب عن عبقريات محددة: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب. وخالد بن الوليد، وعلي بن أبي طالب، وهي في مجملها عن الحكم، والإدارة السياسية والمدنية لشؤون المجتمع العربي الإسلامي، وعلاقات هذا المجتمع بالمجتمعات المحيطة به في الشام ومصر ودول الشمال الإفريقي، والعراق العربي كما كان يسمى، أو «العراق الفارسي» كما كان يسمى عند المسلمين في ديار فارس وخراسان.

تتألق العبقريات بين أعمال العقاد الفكرية والأدبية كجوهرة متلألئة متألقة. ونعتقد أنه قد كتب هذه العبقريات كجزء من مشروع فكري إسلامي، تعددت محاوره وقضاياه ما بين اختيار شخصيات بعينها ارتبطت ببناء الدولة، فمفهوم الدولة هنا يقترب من مفهوم الدولة العصرية، وارتبطت كذلك بمفاهيم اجتماعية حديثة، مثل: محاسبة الحاكم والديموقراطية وغيرها من المفاهيم التي ما زال الجدال يدور حولها.

والسبب الآخر لكتابته هذه العبقريات، أنها اختيارات ترتبط به شخصيّاً وفي رؤيته لدور المثقف الذي يجب أن يحارب التضليل الفكري، ويخرج على كل ما هو تقليدي وثابت، ويطرح الأسئلة المختلفة لبناء العقل الحديث، وهو ما نجده لدى العقاد في الشعر وفي كل معاركه الأدبية والفكرية.

وقد جمع العقاد في أواخر حياته عبقرياته الخمس، وأضاف إليها في البداية مقالات تمهيداً لها، وأضاف في نهايتها مقالات تنتهي بها، في مجلد ضخم.

وبعد توالي العبقريات الخمس وآخرها خالد بن الوليد، أضاف العقاد دراستين: دراسة عن الحسين شهيداً، ودراسة عن فاطمة الزهراء، لتكتمل الصورة والمسيرة المقصودة من العبقريات.

عَبْقَرِيَّةُ عُمَر

مقدمة

تم تأليف هذ الكتاب في أحوال عجيبة هي أحوال بأس وخطر. فلا غرابة بينهما وبين موضوع الكتاب الذي أدرته عليه؛ لأننا لا نتكلم عن عمر بن الخطاب إلا وجدنا أننا على مقربة من البأس ومن الخطر في آن.

فما شرعت في تحضيره، وبدأت في الصفحات الأولى منه حتى رأيتني على سفر بغير أُهبة إلى السودان. فوصلت إليه وليس من مراجع الكتاب إلا قليل، وكانت الصفحات الأولى التي كتبتها في القاهرة، مما تركته مع المراجع الكثيرة فيها، فأعدت كتابتها في الخرطوم، ومضيت فيه هنالك حتى انتهيت من أكبر شطريه. واستغنيت بمراجع الخرطوم عن المراجع التي أعجلني السفر عن نقلها، لأن أدباء السودان وفُضلاءه يدخرون جملة صالحة من هذه المراجع، ويجودون بها أسخياء مبادرين إلى الجود، فلا أذكر أنني طلبت كتاباً في المساء إلا كان عندي في بكرة الصباح.

وإني لأتوفر على كتابته وأحسبني منتهياً منه في السودان، إذ رأيتني مرة أخرى على سفر بغير أهبة إلى القاهرة، فعُدت إليها بالطائرة ألتمس العلاج السريع، لأن يدي أوشكتا أن تعجزا عن تناول القلم بما عراهما من ثآليل «الخريف».

فعـدت ومـا يشغلني عـن إتمامه شاغل في السفر والمقام، ولم أحسب هذا البأس في الحالتين من موانعــه وعراقيله، لأنني ألفـت بعض كتبي الكبار في أحـوال تشبه هذه الأحوال. فألفت كتابــي عن «ابن الرومي» بين السجن ونــذره ومقدماتــه، وألفت كتابي عـن «سعد زغلول» وأنا غـير مستريح من كفاحــه، وكلاهمــا من آثـر الكتب عنـدي، وأكبرهـا في الموضــوع وفي عدد الصفحات.

إنمــا حسبت هذا البأس مــن مطابقاته وموافقاته، ومن وضع الشيء في موضعــه على نحو من الأنحاء، ولم أعدده من حرج التأليف، كما عددته من مهيئــات جوّه، ولا سيما حـين ألفيتني أدرس آثار الحركـة المهدية، وأتقلب بين مشاهدها وميادينها، وأستخرج العبرة من القتال بين الراجلين والفيَلة في مواقــع فارس، ومــن القتال بين الراجلـين والسفن المسلحــة في مواقع الخرطـوم وأم درمان. فهـذه عقيدة وتلك عقيدة، ولكـن العقيدة التي ظفرت كان معهــا حليف من الغد المأمــول، ولم تكن العقيدة التي فشلت على وفاق مع الغد ولا مع الأمل.

ولكـن الحــرج كل الحــرج في التـأليـف إنمــا كان في محاسبــة عمــر بن الخطاب، أو ليس الحرج في الحساب من العمريات المأثورات!

فـالنـاس قد تعودوا ممن يسمونهم بـالكُتّاب المنصفين أن يحبذوا وينقدوا، أن يقرنــوا بين الثناء والملام، وأن يسترسلوا في الحسنات بقدر ليتقلبوا من كل حسنــة إلى عيب يكافئها، ويشفعــوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها، فإن لم يفعلــوا ذلـك فهم إذن مظنة المغــالاة والإعجاب المتحين، وهــم أقل إذن من الكتّاب المنصفين الذين يمدحون ويقدحون، ولا يعجبون إلا وهم متحفزون للملام.

عرض لي هذا الخاطر، فذكرت قصة العاهل الذي تحاكم إلى قاضيه مع بعضـ السوقــة في عقار يختلفان علــى ملكه، فحكم القاضــي للسوقة بغير العـدل ليغنم سمعة العـدل في محاسبة الملوك، وعزله العاهل لأنه ظلم وهو يبتغـي الريــاء بظلمه. فـكان أعدل عادل حين بــدا كأنه يحرص على مال مغصوب ويجور علــى تابع جسور، لأنه أنصف وهو مستهدف لتهمة الظلم، وقاضيه قد ظلم وهو يتراءى بالإنصاف.

قلت لنفسي: إن كنت قد أفدت شيئاً من مصاحبة عمر بن الخطاب في سيرته وأخباره فلا يحرجنك أن تزكي عملاً له كلما رأيته أهلاً للتزكية، وإن زعم زاعم أنها المغالاة، وأنه فرط الإعجاب.

وهذه هي الأسوة العمرية في الحساب.

فالحق؛ أنني ما عرضت لمسألة من مسائله التي لغط بها الناقدون إلا وجدته على حجة ناهضة فيها، ولو أخطأه الصواب.

وإن أعسر شيء أن تحاسب رجلاً كان أشد أعدائه لا يبلغون من عسر محاسبته بعض ما كان يبلغه هو في محاسبة نفسه، وأحب الناس إليه.

ذلك رجل قلّ أن يجور عن القصد، وهو عالم بجوره، وقلّ أن يتيح لأحد أن يكسب دعوى الإنصاف على حسابه، إلا أن يكسبها أيضاً على حساب الحق والنقد الأمين.

فإذا عرفت منحاه من الخلق والرأي، وسلمت له مزاجه ووجهة تفكيره، فكن على يقين أنه لن يتجافى عن النهج السوي، ولن يتعلق بأمر يعدوه الصلاح ويشوبه السوء.

وذلك أحرج الحرج الذي عانيته في نقد هذا الرجل العظيم، وتلك حيطة معه إن لم يستفدها الكاتب، وهو مشغول بعمر ونهج عمر، فشغله عبث ذاهب في الهواء.

وعلم الله لو وجدت شططاً في أعماله الكبار، لكان أحب شيء إليّ، أن أحصيه وأطنب فيه وأنا ضامن بذلك أن أرضي الأثر وأرضي الحقيقة، ولكني أقولها بعد تمحيص لا مزيد عليه في مقدوري: إن هذا الرجل العظيم أصعب من عرفت من عظماء الرجال نقداً ومؤاخذة، ومن فريد مزاياه؛ أن فرط التمحيص وفرط الإعجاب في الحكم له أو عليه يلتقيان.

وكتابي هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التي تقصد بها الحوادث والأنباء، ولكنه وصف له ودراسة لأطواره ودلالة على خصائص عظمته، واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة، فلا قيمة للحادث التاريخي؛ جَلّ أو دَقّ إلا من حيث أفاد في هذه الدراسة، ولا يمنعني صغر الحادث أن أقدمه بالاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث، إن كان أوْفى تعريفاً بعمر وأصدق دلالة عليه.

وعمـر يُعَـدّ رجل المناسبـة الحاضرة في العصـر الذي نحـن فيه[1]،لأنه العصـر الـذي شاعت فيـه عبادة القوة الطاغيـة، وزعم الهاتفـون بدينها أن البأس والحـق نقيضان. فـإذا فهمنا عظيمـاً واحداً كعمر بـن الخطاب، فقد هدمنا ديناً لقوة الطاغية من أساسه، لأننا سنفهم رجلاً كان غاية في البأس وغايـة في العـدل وغايـة في الرحمة. وفي هـذا الفهم ترياق مـن داء العصر يشفَى به من ليس بميؤوس الشفاء.

وإنه لجهاد جديد لعمر بن الخطاب، يطيب لنا أن نوجزه في كتاب.

عباس محمود العقاد

1- يعني سنة 1942، والحرب العالمية مشتعلة بين النازية والشيوعية والديموقراطية.

عبقري

«لم أر عبقرياً يفري فريه[1]»

كلمـة قالهـا النبي عليـه السلام، في عمـر رضي اللـه عنـه، وهـي كلمة لا يقولها إلا عظيم عظماء، خلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال.

فمـن علامـات العظمـة التي تحيـي مـوات الأمم؛ أن تختص بقدرتين لا تعهـدان في غيرهـا، أولاهما؛ أن تبتعث كوامن الحياة ودوافع العمل في الأمة بأسرهـا، وفي رجالهـا الصالحين لخدمتها، والأخرى؛ أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس، فتتعرف بالبديهة الصائبة والوحي الصادق فيم تكون عظمة العظيـم، ولأي المواقـف يصلـح وبـأي الأعمـال يضطلع، ومتى يحـين أوانه وتجب ندبته[2]، ومتى ينبغي التريّث في أمره إلى حين.

كلتا القدرتين كان لهما الحظ الوافر في سيرة عمر بن الخطاب.

فأيـن – لولا الدعـوة المحمدية التي بعثت كوامن العظمة في أمة العرب–

1– فري الجلد: قطّعه ليصلحه، وفري الفري أتي بالعجب، والمعنى أن عمر عبقري منفرد في عمله، فلا يقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه.

2– اسم من ندبه للأمر أي دعاه.

كنا نسمع بابن الخطاب؟ وأي موضع له كان من مواضع هذا التاريخ العالمي الذي يزخر بكبار الأسماء؟

إنــه الآن اسم يقترن بدولة الإسلام ودولــة الفرس ودولة الروم وكل دولة لها نصيب في التاريخ. فأين كنا نسمع باسم عمر لولا البعثة المحمدية؟

لقد كان ولا ريب خليقاً أن يستوي على مكان الزعامة بين بني عدي، آله الأقربين أو بين قريش قبيلته الكبرى، ثم ينتهي شأنه هناك كما انتهى شأن زعمــاء آخريــن لم نسمع لهم بخبر. لأنهم عظمــوا أو لم يعظموا، يعطون البيئة كفــاء ما تطلب من جهد ودراية، وهــي تطلب منهم ما يذكرون به في بيئتهم، ولكنها لا تطلب منهم ما يذكرون به في أقطار العالم البعيد.

وقــد كان عمــر قــوي النفس بالغــاً في القــوة النفسية، ولكنــه على قوته البالغــة لم يكــن مــن أصحاب الطمــع والاقتحام، ولم يكن ممــن يندفعون إلى الغلبــة والتوســع في الجاه والسلطــان بغير دافع يحفزه إليه وهــو كاره. لأنه كان مفطــوراً على العدل وإعطاء الحقــوق والتزام الحرمات ما التزمها الناس مــن حولــه. وكان مــن الجائــز أن يهيّجه خطــر علــى قبيلته أو علــى الحجاز ومحارمــه المقدسة في الجاهلية، فينــبري لدفعه ويبلي في ذلك بلاءً يتسامع بــه العــرب في جيله وبعد جيلــه، ولكنه لا يعدو ذلك النطــاق ولا هو يبالي أن يمعن في بلائه حتى يعدوه.

بل كان من الجائز غير هذا وعلى نقيضه.

كان من الجائز أن تفسد تلك القوة بمعاقرة الخمر والانصراف إليها. فإنه كان في الجاهلية، كما قال «صاحب خمر يشربها ويحبها» وهي موبقة[1] لا تؤمــن حتى على الأقوياء إذا أدمنوها ولم يجدوا من زواجر الدين أو الحوادث ما يصرفهم عنها، ويكفهم عن الإفراط في معاطاتها.

فعمــر بن الخطــاب الذي عرفه تاريــخ العالم وليد الدعــوة المحمدية دون سواها. بها عُرف وبغيرها لم يكن ليعرف في غير الحجاز أو الجزيرة العربية.

أما القدرة الأخرى التي يمتاز بها العظيم الذي خلق لتوجيه العظماء، فقد أبان عنها النبي عليه السلام في كل علاقة بينه وبين عمر من اللحظة الأولى،

1– موبقة: مهلكة.

أي مـن اللحظة التي سـأل الله فيها أن يعزّ به الإسلام، إلى اللحظة التي ندب فيها أبا بكر للصلاة بالناس، وهو – عليه السلام – في مرض الوفاة.

سبر غوره واستكنه عظمته، وعرفه في أصلح مواقفه، فعرف الموقف الذي يتقدم فيه على غيره، والموقف الذي هو أولى بتقديم غيره عليه.

وليست هي مفاضلة بين رجلين ولا موازنة بين قدرتين. ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذي ينبغي أن يوضع فيه، والمهمة التي ينبغي أن يندب لها، والوقت الذي يحين فيه أوانه.

وربما رأينا في زماننا هذا رئيساً يوصي لنصير من أنصاره بالوزارة ويوصي لغيره بقيادة الجيش، فلا نقول إنه يفاضل بين النصيرين أو إنه يرجح أحدهما على الآخر في ميزان الكفاءة، وإنما يختار كل منهما لموضعه في الوقت الذي يحتاج إليه، ولا غضاضة على أحد منهما في هذا الاختيار.

فالنبي عليه السلام، كان يعلم مَن هو أبو بكر ومَن هو عمر. وقد عادل بينهما أجلّ معادلة حين قال: (إن الله عز وجل ليُلِين قلوب رجال فيه حتى تكون ألـيَن من اللبن، وإن الله ليشدُد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: «من تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم» ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال: «إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» ومثلك يا عمر مثل نوح قال: «ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا» ومثلك كمثل موسى قال: «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروْا العذاب الأليم»).

كان النبي عليه السلام يعلم – كما قال – أن عمر أشد المسلمين في الله، ويعلم أن في أبي بكر ليناً وهوادة. فجمع للإسلام المزيتين حين اختار أبا بكر للصلاة، وضمن هذا الاختيار معنى من معاني الاستخلاف، أو كما جاء في بعض الروايات؛ أنه نص على استخلاف أبي بكر بالقول الصريح.

فتعزيز الإسلام بعد نبيه كان في حاجة إلى كثير من الهوادة والمجاوزة. وكان كذلك في حاجة إلى الكثير من الشدة والصرامة. ولن تذهب شدة عمر إذا احتاج إليها أبو بكر في محنة يشتد فيها اللين الوديع. إنما الخوف أن يذهب لين أبي بكر إذا اشتد عمر، ولا خوف من أن يلين عمر وأبو بكر شديد.

فــإن الموقــف إذا استنفد حجج الرحمة حتــى يلجأ فيه أبو بكــر إلى البأس، ويصر عليه، فأقرب شيء أن يعدل عمر عن لينه، وأن يثوب إلى المعهود من صرامته ولدده[1].

وكان النبــي عليه السلام يعلم أن احتمــال التبعة أو «المسؤولية» خليق أن يبدل أطوار النفوس في بعض المواقف والأزمات، فيجنح اللّيِّن إلى الشدة ويجنــح الشديد إلى اللــين. لأننا إذا قلنا إن رئيساً أصبــح يشعر بالمسؤولية فمعنــى ذلــك أنه أصبــح يراجع رأيه فــلا يستسلم لأول عارضٍ يمليه عليه طبعــه، ولا يقنــع باللــين أول وهلــة إذا كان من دأبه اللــين، ولا بالشدة أول وهلــة إذا كان مــن دأبه الشدة. ومن هنا ينشأ الاختــلاف بين موقف الرجل وهو مسؤول وموقفه وهو غير مسؤول.

وهذا الذي ظهر أعجب ظهور في موقفي الصاحبين من حرب الردة. فإن عمر الشديد قد آثر الهوادة، وأبا بكر الرقيق قد آثر القتال وأصر عليه. وكان عمر يقول:

«إن رســول اللــه كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة يمده اللـه بهم وقد انقطــع ذلك اليوم» ثم يقول للخليفة : «الْزم بيتك ومسجدك فإنه لا طاقه لك بقتال العرب».

وكان أبــو بكــر يقــول متسائــلاً: (أإن كــثر أعداؤكــم وقــل عددكــم ركب الشيطــان منكــم هذا المركــب؟ واللـه ليظهرن اللــه هذا الدين علــى الأديان كلهــا ولو كره المشركون، قوله الحق ووعده الصدق، «بل نقذف بالحق على الباطــل فيدمغــه فإذا هو زاهــق»، «كم من فئة قليلة غلبــت فئة كثيرة بإذن **الله والله** مع الصابرين». واللــه أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه، واستعنت عليم باللــه وهو خير معين!)

هنالــك بلغت التبصرة بوجوه الــرأي المختلفات غاية مداها، وجاء عمر بقصــارى ما عنــده من حجج الــرأي الآخر حتى وضحت المناهــج، واستقر العزم والتقى المصاحبان عليه، فكانت شدتهما في الحق شدتين.

وهــبْ الأمر مع هــذا قد اختلف في موقف الصاحبــين، فمال أبو بكر إلى

1– اللدد: شدة الخصومة.

السلـم والمسامحــة، فـأين كـانت شـدة عمر ذاهبة عنه في هــذه الحال؟ أغلب الظـن أنــه هــو الــذي كان يتــولى يومئـذ أن يبسط وجــه الشـدة في معاملة المرتديــن. لأنـه يعلم أنه المسؤول عــن بسط هذا الوجه دون غيره، فلا تفوت الإسلام مزية من مزايا الصاحبين.

إن محمداً عليه السلام قد عرف من هم رجاله، ومـا هو الموقف الذي هم مقبلــون عليه بعد وفـاته. فعرف الموضــع الذي يضع فيه كلاً منهم، والعمل الــذي يتولاه خير ولاية في ذلــك الموضع. ولم يفته أن يحسب حساب التبعة وما في احتمالها من ضمـان للأخلاق الصـالحة والعقول الراجحة، وأبو بكر وعمر من خيرة أصحـاب هذه الأخلاق وهذه العقول.

ولا يحسبن حساب، أننـا نفسر الأمور بما كشفته لنـا الحوادث بعد وقوعها ولم يكن مقصوداً في النيـات قبل ذلك. فـإن الذي يحسب هذا الحسبـان، يخطئ تلــك الخطــأة الشائعة التي لا تثبــت على أقل نصيب مــن الرويّة والمراجعة: يخطــئ في وهمه خطأة الذين يتخيلون أن هذه السياسات العالمية من بدع الزمــن الأخــير، وليست هـي من البدع في زمــن كـان. لأن العظمة لم تكن قط وقفــاً على العصر الحديث، ولا سيمــا العظمة التي ترجع إلى الفطرة القويمة والبديهة النـافذة والنظر السديد.

فـكل هذا التقديــر الذي أجملنـا شرحــه، كـان تقدير قصــد وتدبير، وكـان مفهومــاً علــى البداهـــة بين ولاة الأمــر في تلــك الآونة، ملحوظــاً بينهم في منـاجـاة النيّــات قبــل أن نلحظــه نحن في عصرنــا هذا من تفسـير حوادث التـاريخ.

وإلى ذلــك أشــار عمــر في قــول صريح حين قـــال لمن هـابــوه، وتحدثوا بخــوف النـاس منه: «بلغني أن النـاس هـابــوا شدتي وخـافوا غلظتي، وقـالوا: قــد كان عمر يشتــد علينـا ورسول اللــه صلى الله عليه وسلم بين أظهرنـا، ثم اشتــد علينـا وأبو بكر والينـا دونه، فكيــف وقد صارت الأمور إليه؟ ومن قـال ذلــك فقد صدق، فقد كنت مــع رسول اللــه صلى اللـه عليه وسلم، فكنت عبده وخـادمــه وكـان مَــن لا يبلغ أحــد صفته من اللين والرحمــة، وكـان كما قـال اللـــه: بـالمؤمنين رؤوف رحيم»، فكنت بــين يديه سيفـاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعنــي فـأمضي. فلم أزل مع رسول اللـــه صلى اللـه عليه وسلم على ذلك

حتى توفاه اللـه، وهو عني راضٍ، والحمد للـه على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد. ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعته وكرمه ولينه، فكنت خادمـه وعونـه أخلـط شدتي بلينـه، فأكون سيفـاً مسلولاً حتـى يغمدني أو يدعنـي فأمضـي، فلـم أزل معه كذلك حتـى قبضه الله عـز وجل وهو عني راضٍ، والحمد للـه على ذلك كثيراً وأنا به أسعد. ثم إني قد وُلِّيت أموركم أيها النـاس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت[1] ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعـدي على المسلمـين: فأما أهل السلامة والديـن والقصد، فأنا ألين لهم من بعض لبعض...».

بـل ظهرت آثـار الشعور بالتبعة بعد موت النبـي والحال على أشدها في يـوم السقيفة، والمسلمون مختلفون على من يلي الأمر بعد محمد، حتى قيل فيما قيل: من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير!

ففي تلك المحنة التي تشخص فيها الأبصار وتعظم التبعات وتودي زلة الساعة فيها بالكثر الذي لا تستدركه الأعوام، كان عمر الحاد الشديد يخشى بـوادر الحدة من أبي بكر، ويهيئ الكلام اللّيِّن ليعالج الأمر بالرفق والتؤدة، ويقول فيما رواه عن محنته ذلك اليوم: «وكنت أداري منه بعض الحد – أي الحـدة – فلمـا أردت أن أتكلم قـال أبو بكر: على رسلك! فكرهـت أن أغضبه. فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم منـي وأوقر».

عمر الحاد الشديد يحاذر من بوادر أبي بكر، وأبو بكر الحليم الوديع يكف عمر عن الكلام، فيطيع!

هـؤلاء رجال يعرفهم أصحابهم، وهـذه مواقف يعرفها صاحبها، وهذه مسألـة فصـل فيها الزمن ولم يبق لنا – نحن الذيـن نعود إليها ونستخلص عبرتها – إلا أن نراقب ما فيها من آيات الإعجاز، وسوابق النظر البعيد.

مـا وضع أبو بكر خيراً من موضعه وهـو يلي الإسلام والخطر من داخل أهلـه، والطب الذي يطبّهم بـه هو طب التآلف والإحجام عن السطوة ما كان إلى الإحجام عنها سبيل.

ومـا وضـع عمر خـيراً من موضعه وهـو يلي الإسلام والخطـر عليه من

1– أضعفت: زادت أضعافاً.

أعدائــه المحدقين بـه، والطب الذي يطبّهم بـه هــو طب الصلابـة والحزم الذي لا ينكل[1] عن صراع.

وكأنمــا توقع النبي أن أيام أبي بكر معدودات، ولكنها الأيـام التي تحتاج إليــه وتكفي لإنجــاز عمله. وتوقــع أن يـأتي عمل عمر في حينــه المقدور، فلا يفـوت الإســلام أن ينتفــع بمقدرته في عهـد أبي بكر ولا في عهـده، نقول هذا علــى الترجيــح، ومن حقنـا أن نقوله على التوكيـد، لأن حديث النبي فيه غنى عن التخمين والتـأويل. قـال عليه السلام: «رأيت في المنـام أني أنزع بدلو بكرة علــى قُلَيْب[2] فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً[3] أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، واللـه يغفر لـه، ثم جاء عمر بن الخطاب فـاستحـالت غربـاً[4] فلم أر عبقرياً يفري فريه حتى رُوِيَ النـاس وضربوا بعطن[5]».

وفهم فقهاء الإسلام أن ضعف النزع هو: قصر المدة وانصراف العزم إلى حرب الردة، وأن فيض الريّ على يد عمر هو: فيض العبقرية التي ينفسح لها الأجـل وتنفســح أمـامهـا منـادح العمل، ويُؤتَى لهـا مــن السبق ما لا يُؤتَى لغير العبقريين.

ولنــا أن نفسـر العبقرية بمعنـاهـا الذي يفهمه الأقدمــون أو بمعنـاهـا الذي نفهمــه نحــن المحدثين، فكلا المعنيــين مستقيم في وصف عمــر بن الخطـاب. أُتراهــا على كلا المعنين شيئاً غير التفرد والسبق والابتكار؟ كلا. ما للعبقرية مدلــول يخرج عن صفة من هذه الصفـات. ومن يكتب تـاريخ عمر فقد يجد في النهايــة أنــه يكتب تـاريخـاً «لأول مــن صنع كذا وأول مــن أوصى بكذا» حتى ينتهي بسرد هذه «الأوليـات» إلى عداد العشرات.

وتلــك هــي عبقريــة التي لا يفــري فريهـا أحـد، كما قـال صـاحبــه وأعرف النـاس بـه، صلوات اللـه عليه.

1- ينكل: يجبن.

2- قُليْب: بئر.

3- ذنوباً: دلواً.

4- الغرب: الدلو العظيمة.

5- عطن: مربط الإبل حول الماء.

رجل ممتاز

يوصـف عمر بـالعبقرية إذا نظرنـا إلى أعماله، ويوصف بها إذا نظرنا إلى تكوينـه الذي جعلـه مستعداً لتلك الأعمال مضطلعاً بتلـك القدرة، وإن لم يكن مـن اللازم اللازب أن تقترن القدرة بـالعمل الـذي تستطيعه، لما يتفق أحيانـاً من وقوف العوائق. بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه إلى ذلك العمل.

إلا أن عمـر كان رجـلاً ممتـازاً بعملـه، ممتـازاً بتكوينـه، وكان وفاء شرط الامتيـاز والتفـرد في عرف الأقدمـين والمحدثين، من المؤمنـين بدينه وغير المؤمنين.

إذا وصفتـه للأقدمين الذيـن يقيسون العبقرية بـالفراسـة والخبرة، عرفوا من صفته أن الذي يوصف لهم رجل ممتـاز، أو رجل نسيج وحدة[1].

وإذا وصفتـه للمحدثـين الذيـن يقيسـون العبقريـة بـالعلـم أو مشاهـدات العلماء؛ عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز، أو رجل موهوب.

كانـت نظـرة إليه – قبـل السماع بعمل مـن أعماله – توقـع في الروْع[2]

1– نسيج وحدة: لا نظير له.

2– الروْع: العقل أو القلب.

أنــه من معدن في الرجال غير معدن الســواد[1]، وأنه جدير بـالـهيبة والإعظام، خليق أن يحسب لـه كل حساب.

كان مهيبــاً رائــع المحضــر حتــى في حضرة النبــي الــذي تتطامن عنده الجباه، وأولـها جبهة عمر.

أذن النبــي يوما لجارية ســوداء، أن تفي بنذرهـا «لتضربن بدفها فرحاً أن رده اللـه سالماً، فـأذن لها عليه السلام أن تضرب بـالدف بين يديه.

ودخــل أبو بكــر وهي تضرب ثــم دخل عثمــان وهي تضــرب، والصحابة مجتمعــون. فما هــو إلا أن دخل عمر حتى وجمت الجاريــة وأسرعت إلى دفها تخفيه، والنبي عليه السلام يقول: «إن الشيطـان ليخـاف منك يا عمر».

وروت السيدة عـائشة رضي اللـه عنهـا، أنها طبخت له عليه السلام حريرة[2] ودعــت سودة أن تــأكل منها فـأبت، فعزمت عليها لتـأكلــن أو لتلطخن وجهها، فلم تـأكل، فوضعت يدهـا في الحريرة ولطختها بـها. وضحك النبي عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لـها: لطخي أنت وجهها. ففعلت.

ومــر عمر فناداه النبي: يا عبد اللـه! وقد ظن أنه سيدخل فقال لـهمـا: قوما فـاغسلا وجهيكما!

قـالت السيدة عـائشة: فما زلت أهـاب عمر لـهيبة رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم إيّاه.

ومــن تلك الـهيبة أنهــا كانت رضي اللــه عنها تتحفــظ في زيـارة قبره بعد موته، وحكت ذلك فقالت: «ما زلت أضع خماري وأتفضل[3] في ثيابي وأقول: إنمــا زوجــي وأبــي، حتى دُفِن عمر بــن الخطاب، فلــم أزل متحفظة في ثيابي حتى بنيت بيني وبين القبور جداراً فتفضلت بعده.

وإن مــن أدب الرسول عليه السلام أنــه كان يرعى تلك الـهيبة رضىً عنها واغتبـاطــاً بـأثرهــا في نصــرة الحق وهزيمــة البـاطل وتـأمين الخــير والصدق وإخـافة أهل البغي والبهتـان.

1– سواد الناس: عوامهم.

2– الحريرة هنا: دقيق يطبخ بلبن فيكون حساء.

3– التفضل:لبس الفضال، وهو الثوب يلبس في البيت للخدمة أو النوم.

وقـد كان الذيـن يعرفون عمر أهيَب لـه من الذين يجهلونـه. وتلك علامة علـى أن هيبته كانت قوة نفس تملأ الأفئدة قبل أن تملأ الأنظار. فربما اجترأ عليـه من لم يعرفه ومن لم يختبره لتجافيه عن الخيلاء، وقلة اكتراثه للمظهر والثيـاب. أما الذيـن عرفوه واختبروه فقد كان يروعهـم على المفاجأة روعة لا تذهبهـا الألفـة وطول المعاشرة، ومن ذلك أنـه كان يمشي ذات يوم وخلفه عـدة مـن أصحاب رسول اللـه، إذ بدا له فالتفتَ، فلـم يبق منهم أحد إلا وحبل ركبتيه ساقط!

وتنحنـح عمر والحجَّام يقص له شعـره، فذهل الحجام عن نفسه وكاد أن يغشى عليه، فأمر له بأربعين درهماً.

فهي هيبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد. إلا أنه مع هذا كان في منظـر الجسد رائعاً يهـول من يراه، ولا يذهب الخوف منـه إلا الثقة بعدله وتقواه.

كان طويـلاً بائـن الطـول يُرَى ماشياً كأنـه راكب، جسيمـاً صلباً يصرع الأقويـاء ويروض الفرس بغـير ركاب، ويتكلم فيسمـع السامع منه وفاق ما رأى من نفاذ قول وفصل خطاب.

تشهـد العيون كما تشهـد القلوب أنه لمن معدن العظمة، أو معدن العبقرية والامتياز بين بني الإنسان، وللمحدثين علامات في العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الخِلقة كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال.

فالعـالم الإيطـالي «لومـبروزو» ومدرسته التـي تأتم برأيه يقـررون بعد تكـرار التجربـة والمقارنـة؛ أن للعبقرية علامات لا تخطئهـا على صورة من الصـور في أحد من أهلهـا، وهـي علامات تتفق وتتناقضـ ولكنها في جميع حالاتهـا وصورها نمط من اختـلاف التركيب ومباينتـه للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة.

فيكـون العبقـري طويلاً بائن الطـول، أو قصيراً بيِّن القصـر، ويعمل بيده اليسـرى أو يعمـل بكلتـا اليدين، ويلفت النظـر بغزارة شعره أو بنـزارة الشعر على غير المعهود في سائر النـاس. ويكثر بين العبقريين من كل طراز جيشان الشعـور وفـرط الحس وغرابـة الاستجابة للطـوارئ، فيكون فيهـم من تفرط

سوْرتــه[1] كما يكون فيهم من يفرط هدوءه، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايــا الأسرار على نحو يلحظ تــارة في الزكانة[2] والفراسة، وتارة في النظر على البعد، وتارة في الحماسة الدينية أو في الخشوع للـه.

ومهما يكن من الشك في استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع، فهي بلا ريب صادقة في حالات، مقاربة في حالات، غير أهل في كل حــال للتصديق التــام، ولا للبعد التام، ولاسيما عندمــا تتفق فيها الظواهر والبواطن وتتلاقى فيها. ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور.

وفي عمر بن الخطاب من هذه العلامات كثير.

كان كمــا تقدم، طويلاً يمشي كأنه راكب، وكان أعسر[3] يسراً، يعمل بكلتا يديه، وكان أصلع خفيف العارضيْن، وكان كما وصفه غلامه وقد سأله بلال:

كيف تجدون عمر فقال: خير الناس، إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظم.

وكان سريــع البـكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدي اللـه، وأثر البكاء في صفحتي وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان.

ومــن فــرط حســه وتوفــز شعــوره؛ أنــه كان يميز بــين بعضـ المذوقات والمشمومــات التي لا يسهل التمييز بينها. سقاه غلامه ذات يوم لبناً فأنكره، فسألــه: ويحك! من أين هــذا اللبن؟ قال الغلام: إن الناقــة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال اللـه.

وقــد عرفنا أهل البادية وعرفنا أنهم جميعــاً أصحاب إبل وألبان، ولكننا لم نجــد منهــم إلا قليلاً يدعون أنهم يفرقون بين لــبن الناقة ولبن غيرها هذه التفرقة السريعة، ولا سيما في المناخ الواحد والمرعى المتقارب.

وكانــت له فراسة عجيبة نــادرة يعتمد عليها ويرى أن «من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه». وتروى له في أمر هذه الفراسة روايات، قد يصدق منها القليل وتتسـرب المبالغــة إلى كثير، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لا شك فيها، وهي أنه اشتهر بالفراسة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة،

1- سوْرة السلطان: سطوته واعتداؤه.

2- الزكانة والفراسة: أن يظن الشخص فيصيب.

3- الأعسر اليسر: الذي يعمل بكلتا يديه.

فمـن ذلـك أنه كان جالسـاً فمَرَّ به رجل جميـل فقال ما معنـاه: أحسبه كان كاهنهم في الجاهلية. فكان كذلك.

ومنــه أنه أبصـر أعرابياً نــازلاً من جبل فقــال: هذا رجل مصــاب بولده، قـد نظم فيه شعـراً لو شاء لأسمعكم، ثم سأل الأعرابــي: من أين أقبلت؟ فقـال: مـن أعلى الجبـل فسأله: وما صنعت فيــه؟ قال: أودعته وديعــة لي. قال: وما وديعتـك؟ قــال بُنَيّ لي هلـك فدفنته قــال: فأسمعنا مرثيتك فيــه. فقال: وما يدريـك يا أمـير المؤمنين؟ فوالله ما تفوّهت بذلك وإنمــا حدثت به نفسي، ثم أنشد أبياتاً ختمها بقوله:

فالحمد لله لا شريك له	في حكمه كان ذا وفي قدره
قَدَّرَ موتاً على العباد فما	يقدر خلق يزيد في عمره

فبكى عمر حتى بلّ لحيته، ثم قال: صدقت يا أعرابي.

وكان عُمير بن وهب الجمحي وصفوان بن أمية، يذكران مصاب أهل بدر، فقــال صفوان: والله مــا إن في العيش بعدهم خيراً. فوافقــه عُمير وهو يقول كالمعتـذر من تخلفه عن الثــأر: أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيْعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله.

فقــال صفـوان يحرّضه: علــيّ دَيْنك أنــا أقضيه عنك، وعيالـك مع عيالي أواسيهم ما بقوْا، ولا يسعني شيء ويعجز عنهم.

فوقــع كلامه من نفس عُمير، فأسَرَّ إليــه بعزمه على الغدر بالنبي، وشحذ سيفه وسهمه، ثم انطلق حتى قدم المدينة.

فلمــا نظـر إليـه متوشحــاً بالسيف حتــى أوجس منــه وهمس لمـن معه: هـذا الكلـب عدو الله عمير بن وهــب، ما جاء إلا لشر، وهـو الذي حرش بيننا وحزرنـا[1] للقوم يوم بدر. ثم دخل على النبــي، فأخبره خبره وعاد إلى عمير فأخـذ بحمّالة سيفه في عنقه فلببه[2] بهــا، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا علــى رسول الله صلى الله عليــه وسلم، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا

1– حزر الشيء: قدّره بالتخمين.

2– لببه: جمع ثيابه عند نحره ثم جرّه.

الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله، فلما رآه وعمر آخذٌ بحمالة سيفه في عنقه قال: أرسله يا عمر! ادن يا عمير؟

وجعل رسول الله يسأل عميراً، وهو يراوغ حتى ضاقت به منافذ الإنكار فباح بسره، وأعلن الإسلام والتوبة.

هذه الفراسة وشبيهاتها هي ضرب من استيحاء الغيب واستنباط الأسرار بالنظر الثاقب. وما من عجب أن تكون هذه الخصلة قرينة من قرائن العبقرية في حاشية من حواشيها. إذ ما هي العبقرية في لبابها كائناً ما كان عمل المتصف بها؟ ما هي الحكمة العبقرية؟ ما هو الفن العبقري؟ ما هو دهاء السياسة في الدهاة العبقريين؟ من هو:

الألمعي الذي يظن بك الظن ... كأن قد رأى وقد سمعا

كل أولئك يلتقي في هبة واحدة هي: كشف الخفايا واستيضاح البواطن واستخراج المعاني التي تدق عن الألباب.. فاتصالها بالفراسة وشبيهاتها أمر لا عجب فيه، ولا انحراف به عن النحو الذي تنتحيه.

والذي يعنينا من الفراسة وشبيهاتها في صدد الكلام عن عمر رضوان الله عليه، أن نحصي الخصال الأخرى التي هي كالفراسة في هذا الاعتبار، وهي: التفاؤل والاعتداد بالرؤيا والنظر أو الشعور على البعد أو «التلباثي» كما يسميه النفسانيون المعاصرون. ولكل أولئك شواهد شتى مما رُوِيَ عن عمر في جاهليته وبعد إسلامه إلى أن أدركته الوفاة.

جاءه رسول من ميدان نهاوند فسأله: ما اسمك؟ قال قريب. وسأله مرة أخرى: ابن من؟ فقال ابن ظفر! فتفاءل وقال: ظفر قريب إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله.

وروى يحيى بن معبد، أن عمر سأل رجلاً: ما اسمك؟ قال جمرة! فسأله: ابن من؟ قال: ابن شهاب. فسأله: ممن؟ قال من الحرقة، وعاد وسأله: ثم ممن؟ قال: من بني ضرام، وهكذا في أسئلة ثلاثة أو أربعة عن مسكنه وموقعه، والرجل يجيب بما فيه معنى النار ومرادفاتها حتى استوفاه. فقال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا.

وقد يكون التأليف ظاهراً في هذه القصة، ولكنها مع تأليفها لا تخلو من

الدلالة على اشتهار عمر باستكناه الألفاظ في معرض التفاؤل أو الإنذار.

أما الرؤيا، فآخر ما رُوِيَ عنه من أخبارها، أنه رأى قبيل مقتله كأن ديكاً نقره نقرتين فقال: يسوق الله إليّ الشهادة ويقتلني أعجمي، فإن الديك في الرؤيا يفسر برجل من العجم.

على أن المكاشفة أو الرؤيا (vision) كما يسميها النفسانيون المحدثون، إنما تظهر بأجلى وأعجب من هذا كثيراً في قصة سارية المشهورة، وهي مما يلحقه أولئك النفسانيون بهبة التلباثي(telepath) أو الشعور البعيد.

كان رضي الله عنه يخطب بالمدينة الجمعة، فالتفت من الخطبة ونادى: يا سارية بن حصن! الجبل.. الجبل! ومن استرعى الذئب ظلم.

فلم يفهم السامعون مراده، وقضى صلاته فسأله علي رضى الله عنه، ما هذا الذي ناديت به؟ قال: أو سمعته؟ قال: نعم..أنا وكل من في المسجد.

فقال: وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا، وإن جاوزوا هلكوا، فخرج مني هذا الكلام.

وجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا في ذلك اليوم وتلك الساعة حين جاوزوا الجبل، صوتاً يشبه صوت عمر يقول: يا سارية بن حصن! الجبل الجبل. فعدلنا إليه ففتح الله علينا.

ولا داعي للجزم بنفي هذه القصة استناداً إلى العقل أو إلى العلم أو إلى التجربة الشائعة فإن العقل لا يمنعها. والعلماء النفسانيون في عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفي أمثالها، بل منهم من مارسوا «التلباثي» وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين، إلا أن المهم من نقل هذه القصة في هذا الصدد، أن عمر كان مشهوراً بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية، إما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد، وهي الهبات التي يلحقها بالعبقرية علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الإنسانية النادرة وراقبوها وأكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها.

فهو رجل نادر بما تراه منه العين، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق، نادر في مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين.

أو هو رجل ممتاز، وعبقري موهوب في جميع الآراء.

صفاته

نحـن أمام رجل لا كالرجال. رجل عبقـري، أو رجل ممتاز من خاصة الخليقة الذين لا يعدون في هذا الزمن الواحد بأكثر من الآحاد.

أنقـول رجـل قوي؟ نعـم هو رجل قوي لا مـراء. وكل عظيـم فهو قوي بمعنـى مـن معاني القوة. نعلـم هذا فنعلـم الشيء المهم عنـه. ولكننا بعد هـذا لا نعلم شيئاً مهمـاً عن صفاته وأخلاقـه. لأن الناس من حيث القوة أقويـاء وضعفاء أو متوسطون ومنحرفون إلى هنـا تارة وإلى هناك تارة أخرى. أما من حيث الصفات والأخلاق فهم ألوف وألوف، وهم في قوتهم أو ضعفهـم أنمـاط لا تحصى من المناقب والعيـوب، وأحرى بنا أن نقول: إن القـوة صفة تستفاد من جملة مناقب الإنسان وعيوبه. فهي حالة تدل عليهـا المناقب والعيـوب أو تدل عليهـا الصفات والأخـلاق، وليست هي بالحالـة التـي تدلنا على مناقب الإنسان وعيوبـه، وتهدينا بغير هاد إلى صفاته وأخلاقه.

فإن قلت: عمر بن الخطاب رجل قوي، فما زدت على أن تقول إنه رجل عبقري أو إنه رجل عظيم.

وكل رجـل من هذا القبيـل فمعرفته ليست بالأمـر اليسير، لأنه نمط لا يتكرر فيسهل فهمه بالقياس إلى أمثاله الكثيرين. وقد يكون الرجل العظيم

نمطاً وحيداً في التاريخ كله لا نظير له في تفصيل أخلاقه وصفاته، وإن ساواه في القدر أنداد وقرناء.

وعمر بن الخطاب، مثلٌ فذٌّ من أمثلة هذا الطراز الفريد. تفهم سره فإذا هو على وفاق مع جهره، وتنفذ إلى باطنه فإذا هو مصدق للظاهر من سيماه[1].

فهل حللنا العقدة بهذا التقريب بين الظاهر والباطن وبين الجهر والسريرة؟ كلا، ولا تقدمنا بعيداً في طريق حلها، لأننا لا نعرف هذا التقارب إلا بعد معرفة السريرة التي نبحث عنها، فلا بد إذن من البحث، ولابد من المعرفة. فإذا وصلنا إلى الغور البعيد عرفنا ساعتئذ أنه لا يناقض الظاهر المكشوف. ولكن لابد من الوصول إلى الغور البعيد قبل ذاك.

لا تناقض في خلائق عمر بن الخطاب. ولكن ليس معنى ذلك أنه أيسر فهماً من المتناقضين، بل لعله أعضل فهماً منهم في كثير من الأحوال. فالعظمة على كل حال ليست بالمطلب اليسير لمن يبتغيه، وليست بالمطلب اليسير لمن ينفذ إلى صميمه ويحتويه.

إنما الأمر الميسور في التعريف بهذا الرجل العظيم؛ أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جداً لا يسترها حجاب. فما من قارئ ألمّ بفذلكة صالحة من ترجمته إلا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلاً، وكان رحيماً، وكان غيوراً، وكان فطناً، وكان وثيق الإيمان، عظيم الاستعداد للنخوة الدينية.

فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان الوثيق صفات مكينة فيه، لا تخفى على ناظر، ويبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف تتجه هذه الصفات إلى وجهة واحدة، ولا تتشعب في اتجاهات طرائق قدداً[2]، كما يتفق في صفات بعض العظماء بل يبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف يتمم بعض هذه الصفات بعضاً حتى كأنها صفة واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان.

وأعجب من هذا في التوافق بين صفاته؛ أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى، ولا تستمدها من ينبوع واحد. ثم هي مع ذلك

1- سيماه: علامته، والمراد ما اشتهر به.

2- طرائق قدداً: فرق مختلفة.

متفقة لا تتناقض، متساندة لا تتخاذل، كأنها لا تعرف التعدد والتكاثر في شيء.

خذ لذلك مثلاً عدله المشهور، الذي اتسم به كما لم يتسم قط بفضيلة من فضائله الكبرى. فكم رافدة[1] لهذا الخلق الجميل في نفس ذلك الرجل العظيم؟

روافد شتى: بعضها من وراثة أهله، وبعضها من تكوين شخصه، وبعضها من عِبر أيامه، وبعضها من تعليم دينه، وكلها بعد ذلك تمضي في اتجاه قويم إلى غاية واحدة لا تنم على افتراق.

لم يكن عمر عادلاً لسبب واحد بل لجملة أسباب:

كان عادلاً، لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه، فهو من أنْبَه بيوت بني عدي، الذين تولوا السفارة والتحكيم في الجاهلية، وراضوا أنفسهم من أجل ذلك جيلاً بعد جيل على الإنصاف وفصل الخطاب، وجده نفيل بن عبد العزى، هو الذي قضى لعبد المطلب على حرب بن أمية حين تنافرا إليه وتنافسا على الزعامة. فهو عادل من عادلين، وناشئ في مهد الحكم والموازنة بين الأقوياء.

وكان عادلاً لأنه قوي مستقيم بتكوين طبعه، وإن شئت فقل أيضاً بتكوينه الموروث. إذ كان أبوه الخطاب وجدّه نفيل من أهل الشدة والبأس، وكانت أمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة، قائد قريش في كل نضال. فهو على خليقة الذي لا يحابي لأنه لا يخاف، والذي يخجل من الميل إلى القوي لأنه جبن، ومن الجور على الضعيف لأنه عوج يزري بنخوته وشممه.

وكان عادلاً لأن آله من بني عدي، قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بني عبد شمس، وكانوا أشداء في الحرب يسمونهم لُعقة[2] الدم، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس إلى أقربائهم، فاستقر فيهم بُغض القوي المظلوم للظلم، وحبه للعدل الذي مارسوه ودربوا عليه، وساعدت عِبر الأيام على تمكين خليقة العدل في خلاصة هذه الأسرة أو خلاصة هذه القبيلة، ونعني به عمر بن الخطاب.

1–رافدة: الرافد ما يمد بالماء من قناة أو نهر.

2– لعقة الدم: سُمُّوا كذلك لأنهم تحالفوا مع غيرهم فنحروا جزوراً فلعقوا دمها أو غمسوا أيديهم فيه.

وكان عـادلاً بتعليم الدين الذي استمسك بـه وهو من أهلـه بمقدار ما حـاربـه وهو عدوه. فكان أقوى العـادلين كما كان أقوى المتقين والمؤمنين.

وكذلـك اجتمعت عنـاصر الوراثة الشعبيــة، والقوة الفردية، وعِبر الحوادث وعقيدة الدين في صفة العدل التي أوشكت أن تستولي فيه على جميع الصفات.

كان عـادلاً لأسباب كأنه عـادل لسبب واحد لقلة التنـاقض فيه. وربما كـان تعــدد الأسبــاب هو العاصم الذي حمــى هذه الصفة أن تتنـاقضـ في آثارهـا، لأنــه منحها القــوة التي تشدهـا كما يشد الحبل المبرم فــلا تتفكك ولا تتوزع، فـكان عمـر في جميع أحكامه عــادلاً على وتيرة واحدة لا تفــاوت بينهـا. فلو تفرقــت بــين يديه مئة قضيــة في أعوام متباعــدات، لكنت على ثقــة أن تتفق الأحكام كلما اتفقت القضايا، كأنه يطبعها بطابع واحد لا يتغير.

إلا أن الصفــات إذا بلغــت هــذا المبلــغ من القــوة الرائعة لم تكـد تسلم من طـروء التنـاقضـ عليهــا، وإن سلمت منــه بطبيعتها، لأنها تدخـل في صفـات البطولــة التي تثير الإعجــاب والمبـالغة، وكل بطولة فهــي عرضة للمبـالغات والإضافات، ومن ثم لا تسلم من تنـاقض الأقـاويل.

وصفــات عمـر كلها صفــات لهــا طابــع البطولة وفيهــا دواعــي الإغراء بـالإعجاب والمبـالغة. وممن؟ من الأصدقاء المصدقين لأنهم لا يتهمون بقصد أو بســوء، وهــم في الواقــع أوْلى بـالاحتراس من الخصــوم المتهمين. فمن هنـا يجيء التنـاقض لا من طبيعة الصفات التي تـأبـاه.

فـالعـدل مثلاً هــو: المساواة بين أبعـد النـاس وأقربهــم في قضـاء الحقوق وإقـامة الحدود، وليس أقرب إلى الحـاكم من ابنه.

فــإذا سوّى الحـاكـم بين ابنه وسائـر الرعية، فذلك عدل مـأثــور يقتدي بـه الحـاكمــون. ولقــد سوّى عمــر بين أبنـائــه وسائــر المسلمين فبلــغ بذلك مبلغ البطولة في هذه الصفة النـادرة بين الحكم.

وذلك كـاف في تعظيم قدره، لا حـاجة بعده إلى مزيد.

إلا أنهـا صفة من صفات البطولة التي تروع وتعجب وتملأ النفس بـالرغبة في التحدث بهـا، والإطنـاب في أحـاديثهـا. فهي لا تكفي المبـالغين حتى يجعلوا عمر مقيماً للحد على ابنه، مشتداً في عقوبته اشتداداً لا يسوّي فيه بينه وبين غــيره. ثم لا يكتفــي المبـالغون بهذا حتى يمــوت الولد قبل استيفــاء العقوبة،

فيمضي عمر في جلده وهو ميت لا تقام عليه الحدود! ومن اعتدال المبالغين لم يذكر الموت وإتمام العقوبة، وذكر لنا أن الولد مات بعد ذلك بشهر من مرض الضرب الذي ثقل عليه، وعجز عن احتماله.

نعني بما تقدم قصة عبد الرحمن بن عمر في مصر، وهي كما رواها عمرو ابن العاص، والي مصر يومئذ حيث يقول: «دخلا – عبد الرحمن بن عمر وأبو سروعة – وهما منكسران، فقالا: أقم علينا حدّ الله، فإنّا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا، فزبرتهما[1] وطردتهما، فقال عبد الرحمن: إن لم تفعل أخبرت أبي إذا قدمت عليه. فحضرني رأي وعلمت أني إن لم أقم عليهما الحد غضب عليّ عمر في ذلك وعزلني، وخالفه ما صنعت، فنحن على ما نحن عليه، إذ دخل عبد الله بن عمر، فقمت إليه فرحبت به، وأردت أن أُجلسه في صدر مجلسي فأَبَى عليّ وقال: أبي نهاني أن أدخل عليك إلا أن لا أجد من ذلك بدّاً. إن أخي لا يحلق على رؤوس الناسَ. فأما الضرب فاصنع ما بدا لك».

قال عمرو بن العاص: «وكانوا يحلقون مع الحد، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد، ودخل ابن عمر بأخيه إلى بيت الدار فحلق رأسه ورأس أبي سروعة، فوالله ما كتبت إلى عمر بشيء مما كان حتى إذا تحيّنت كتابه إذا هو نظم فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى العاصي ابن العاص. عجبت لك يا ابن العاص ولجرأتك عليّ وخلاف عهدي.. فما أراني إلا عازلك فمسيء عزلتك، تضرب عبد الرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتك، وقد عرفت أن هذا يخالفني؟ إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت ألا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه. فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب[2] حتى يعرف سوء ما صنع».

قال: «فبعثت به كما قال أبوه، وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه، وكتبت

1– زبرتهما: زجرتهما ونهرتهما.

2– القتب: الرجل الصغير على قدر سنام البعير.

إلى عمـر كتابـاً أعتذر فيـه وأخبره أني ضربته في صحـن داري على الذمي والمسلم، وبعثت بـالكتاب مع عبد اللـه بن عمر».

قـال أسلـم: «فقدم عبـد الرحمن علـى أبيه فدخـل عليه، وعليـه عباءة لا يستطيـع المشـي مـن مركبه. فقـال: يا عبـد الرحمـن فعلت كـذا؟ فكلمه عبد الرحمـن بن عوف وقـال: يـا أمير المؤمنين، قد أقيم عليه الحد مرة. فلم يلتفت إلى هـذا عمـر وزبـره، فجعـل عبد الرحمـن يصيح: أنـا مريض وأنـت قـاتلي، فضربه وحبسه، ثم مرض فمات، رحمه اللـه».

فهـذه قصة تتوافق أخبارهـا ومن رُوِيَت عنهم، فـلا نستغربها في جميع تفصيلاتهـا إلا حين تطرأ عليهـا المبـالغة التي تتسرب إلى كل خبر من أخبـار البطولات المشهورة، وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التي لا يوجبها الديـن، ولا تقبلهـا الفطرة الإنسانيـة، فيقيم عليه الحد وهو ميـت، أو يعرّضه للموت من أجل حدٍّ أقيم.

هـذا هو الغريب الـذي استوقفنا فـأنكرنـاه، ومضينـا في تمحيصه فطابق التمحيصـ ما قدرنـاه. أمـا سائر القصة فلا غرابة فيه من كل نواحيه، بل هو مـن القصصـ التي يستبعد فيهـا التلفيق والاخـتراع، إلا أن يكون الملفق من حذّاق الرواة ومهرة الوضّاع.

ولو كان المصدر واحداً معروفاً بـالحذق في القصص لحسبنـاهـا من وضعه وتلفيقه، ولكنها سمعت من غير مصدر موثوق به، فهي أقرب إلى الواقع فيما يشبهه ويجري مجراه، فعبد الرحمن بن عمر يذهب إلى الوالي لأنه شرب شيئاً ظنـه غير مسكـر، فـإذا هو قد سكر منـه، ولا منـاص من إقامـة الحد عليه وإلا رفع الأمر إلى أبيه.. وهي شنشنة[1] عمرية لا لبس فيها، وهو ابن عمر لا مراء.

والـوالي. ومَـن الوالي؟ عمرو بـن العاص؛ الذي لا خفـاء بدهـائه ولا يبعد حسابـه، فهـو يتريـث بـادئ الأمـر ويحـاول أن يصـرف الفتـى إذا طاب له الانصـراف دون أن يقيـم الحد عليـه. وهـي أيضاً شنشنـة لا غرابة فيها. فمن يـدرِي؟ ألا يجـوز أن يصبح هذا الفتى أخاً للخليفـة أو مدبراً للسلطان في يوم غير بعيد؟

1– الشنشنة: الخلق والطبيعة.

والخليفـة يـدري بـالأمر فيهُوله، ويستنكر أن يخفيـه عنه واليه، فلا يصل إليـه نبـؤه مـن قبله، وهو ما هـو في تحرُّجه مـن تبعة يحملها غـافـلاً عنها، لحرص الـولاة علـى تحرّي هـواه، وابتغـاء رضـاه. فيشفق أن يقـع ابنه في معصية ثم ينجو من الحد الذي شرعه الدين، وهو مسؤول عن الولاة والحدود، ومسـؤول عـن ذويه الأقربين قبل سائر المسلمين. كل أولئك كما قلنا سائغ لا غرابة فيه.

أمـا الغريـب من عمر حقـاً في معدلته وعلمه بالدين وكرهـه ريـاء الناس فهـو؛ أن يتـم على ابنه الحد وهو ميـت، أو يشتد في إقامة الحد على ابنه حتى يتلف أو يصاب بما يتلفه بعد أيام.

فلا موجب لذلك من حكم دين ولا اتقاء تبعة.

وهو مع هذا مخالف لما عرف عن عمر في إقامة الحدود خاصة وفي مثل هذه العقوبة بعينها.

فقـد جـيء له يوماً بشارب سكران، وأراد أن يشتـد عليه فقال له: لأبعثنك إلى رجـل لا تـأخذه فيك هوادة، فبعث به إلى مطيع الأسود العبدي ليقيم عليه الحد في غده.

ثم حضره وهو يضربه ضرباً شديداً فصاح به: قتلت الرجل. كم ضربته؟ قـال: ستين، قـال: أقص[1] عنه بعشرين. أي أرفع عنه عشرين ضربة من أجل شدتك عليه فيما تقدم من الضربات.

وقـد كان من دأبـه أن يتريث في إقامة الحدود، حتـى ليؤثّر- كما قال - تعطيلها في الشبهات على أن يقيمها في الشبهات.

ومـر بقوم يتبعون رجلاً قـد أخذ في ريبة فقال: «لا مرحبـاً بهذه الوجوه التي لا تُرَى إلا في الشر».

وربمـا غضب على الوالي مـن كبار الولاة لغلـوّه في تقاضي الحدود على المعاصـي، كما فعل في إنذاره الشديد لأبي موسى الأشعري، حين جلد شارباً وحلق شعره وسوّد وجهه ونادى في الناس ألا يجالسوه ولا يؤاكلوه. فأعطى الشاكـي مئتـي درهـم، وكتـب إلى أبـي موسـى: «لئن عـدت لأسـوِّدَن وجهك

1- أقصّ: حدّ له بقصاصه - أي أقم القصاص عليه بحذف عشرين، ولعل الأصل أقصّ عنه عشرين، أي أنقص عنه عشرين، وزيادة الباء من تحريف الرواة.

ولأطوِّفـن بـك في النـاس» وأمـره أن يدعو المسلمـين إلى مجالسته ومؤاكلته، وأن يمهله ليتوب ويقبل شهادته إن تـاب.

وتفقـد رجلاً يعرفه، فقيل لـه إنه يتـابع الشـراب. فكتب إليه:إني أحمد إليك اللـــه الذي لا إله إلا هو «غَـافِرِ الذَّنبِ وَقَـابِـلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَـابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِير»[1].

فلم يزل الرجل يرددهـا ويبكي حتى صحت توبته وأحسن النزع[2]، وبلغت توبتـــه عمر، فقال لمن حضـروا مجلسه:«هكذا فـاصنعوا، إذا رأيتم أخـاً لكم في زلــة فسددوه ووفقـوا وادعوا اللـه أن يتوب عليه، ولا تكونـوا أعوانـاً للشيطان عليه».

وقـد تكرر منه إعفـاء الزانيات من الحد لشبهة القهر والعجز عن المقـاومة، وتكرر منه الإعفـاء لمثل هذا العذر في غير ذلك من الحدود.

فلـم يكن عمر بـالسريع المتعطش إلى إقـامة الحد، ولم يعرف عنه أنه أقـام حدّاً وله مندوحة عنه.

وفي قصـــة ولـده منـــادح شتـى ترضيه على شـدة تحرجه وتحريــه، ثم لا حـاجة بمثله إلى ريـاء العدل فيجرر على ابنه، ويسرف في القسوة عليه، ليقـال إنه سوّى بينه وبين غيره.

وأصـح مـن ذلـك، أن نـأخـذ بروايـة عبـد اللـه بن عمـر وهو أحـق النـاس بـالمبـالغــة في عـدل أبيه، لو كـانـت المبـالغة ممـا يجمل بمثله، فقـد رَوَى هذه القصة فقـال مـا خلاصته: إن أخـاه عبد الرحمن وأبـا سروعة عتبة بن الحـارث سكــرا فلمـا أصبحـا انطلقـا إلى عمرو بن العـاص، وهو أمير مصر فقـالا: طهّرنـا فـإنـا قد سكرنـا من شراب شربنـاه! ولم أشعر أنهمـا أتيـا عمراً بن العـاص. فقلت: واللـه لا يحلق اليوم على رؤوس الأشهـاد. ادخل أحلقك! وكـانوا إذ ذاك يحلقون مــع الحد، فدخل معي الدار فحلقت أخي بيـدى، ثم جلدهمـا عمرو بن العـاص، فسمــع عمــر بن الخطـاب فكتــب إلى عمرو، أن ابعث إليّ بعبــد الرحمن بن عمر على قتب، ففعل ذلك عمرو. فلمـا قدم عبد الرحمن على عمر جلده وعـاقبـه من

1- آية 3 من سورة غافر.

2- أحسن النزع: كف عما كان فيه وانتهى.

أجـل مكانه منــه. ثم أرسله فلبث شهـراً صحيحاً ثم أصابه قـدره، فتحسّب[1] عامة الناس أنه مات من الجلد ولم يمت منه.

هـذه رواية عبد اللـه عـن أبيه وأخيه، ولو كان الأمر مبالغة في عدل عمر، لكان الابن أحق الناس بهذه المبالغة، أو كان الأمر رحمة بعبد الرحمن، لكان الأخ أحق الناس بهذه الرحمة. ولكنه أمر صدق لا نقص فيه ولا زيادة.

فالـذي يجـوز لنا أن نقبله مـن هذه القصة هو؛ الجانـب الذي يستقيم مع خلائـق عمر ولا يناقضها. وهو العـدل الصحيح في محاسبة ولده على ذنبه، ولا زيـادة ولا سيمـا الزيادة التـي لا تستقيم مع عدله ورحمتـه على السواء، وكلا العدل والرحمة من صفاته الأصيلة فيه.

نعـم كانت الرحمة من صفاته التي وازنت فيـه العدل أحسن موازنة. فما عهـد فيه أنه أحب العدل لغضّه من الأقوياء المعتدين، كما كان يحبه لنجدته الضعيف المعتدى عليه.

ولا يمنعـنّ ذلك أن كان خشن الملمس صعب الشكيمة جافياً في القول إذا استُغضـب واستُثير، فليست الخشونـة نقيضاً للرحمة، وليست النعومة نقيضاً للقسـوة. وليس الذين لا يستثـارون ولا يستَغْضَبون بأرحم الناس. فقد يكون الرجـل نـاعمـاً وهو منطـو على العنـف والبغضاء، ويكون الرجـل خشناً وهو أعطـف خلـق اللـه على الضعفاء، بـل كثيراً ما تكون الخشونـة الظاهرة نقاباً يستتر به الرجل القوي فراراً من مظنة الضعف الذي يساوره من قبل الرحمة. فلا تكون مداراة الرقة إلا علامة على وجودها وحذراً من ظهورها.

ومـن المألـوف في الطبائع أن الرجـل الذي يقسو وهـو معتصم بالواجب قلمـا ينطبـع على القسوة، ولاسيمـا إذا كان الواجب عنده شيئـاً عظيماً يزيل كل عقبـة ويبطـل كل حجة، ويقطع كل ذريعة. فهـو إنما يعتصم بالواجب في هـذه الحالة كما يعتصم الإنسـان بالحصن المنيع كلما خشي أن تقتحم عليه طريقـه، ولولا خـوف الرحمة أن تغلبه لمـا كانت به حاجـة إلى ذلك الحصن المنيـع، ولا سيمـا حين يكون حصنـاً بالغاً في المنعة كمـا كان الواجب عند عمر بن الخطاب.

1- تحسّب: ظن.

أرأيت هذا الرجل الصارم الحازم قاسياً قط إلا باسم واجب أو في سبيل واجب؟ كلا وما نذكر أننا سمعنا رواية واحدة من روايات شدّته إلا لمحنا الواجب قائماً إلى جانبها يزكيها ويسوّغها. ومن كانت القسوة طبعاً فيه فما هو بحاجة إلى واجب يغريه بالقسوة، بل هو في حاجة إلى واجبات عدة تنهاه عنها وتغريه باجتنابها.

وليس قصاراه في هذا الخلق؛ أنه غير قاسٍ أو أن الرحمة كانت تنفذ إلى قلبه كلما طرقته واتخذت سبيلها إليه، فإذا نصيبه من الرحمة قد كان أوْفى جداً من ذاك، وكانت هذه الفضيلة من فضائله الأصيلة فيه لا تكاد تفارقه في عامة حياته، حتى ليصح أن تضرب الأمثال برحمته كما كانت تضرب الأمثال بعدله، وأن يقرن لقب العادل بلقب الرحيم.

وفي صدد الكلام عن الخليفة الإسلامي الكبير قد يهمنا خلق الرحمة فيه خاصة، لأن شأنها في التقريب بينه وبين الإسلام غير قليل.

فمن المحقق أن رقته للمسلمين وللدين الذي يدينون به كانت مقرونة في أول الأمر برحمته لامرأتين ضعيفتين رآهما في حالة من الشكوى تلين القلب وتكف الغُرب[1] وتمسح جفوة العناد والبغضاء.

قالت أم عبد الله بنت حنتمة: لمّا كنّا مهاجرين إلى الحبشة أقبل عمر حتى وقف عليَّ، وكنا نلقى منه البلاء والأذى والغلظة علينا، فقال لي: إنه الانطلاق يا أم عبد الله: قلت: نعم. والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجاً. فقال: صحبكم الله، ورأيت منه رقّة لم أرها قط.

وحديثه مع أخته فاطمة في سبب إسلامه مشهور متواتر في أوثق الروايات. فإنه ضربها حين علم بإسلامها فأدمى وجهها، فأدركته الثورة الخطّابية التي فيها منها بعض ما فيه وقالت وهي غضبى: يا عدو الله! أتضربني على أني أوَحّد الله؟ قال غير متريّث: نعم! فقالت: ما كنت فاعلاً فافعل. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، لقد أسلمنا على رغم أنفك.

ويذكر لنا رواة القصة التي اتفقت عليها روايات كثيرة؛ أنه ندم وخلى

1- تكف الغُرب: تخفف الحدة أي تلين الشديد القاسي.

عن زوجها – بعد أن صرعه وقعد على صدره – ثم انتحى ناحية من المنزل وطلب الصحيفة التي كتبت فيها آيات القرآن، وخرج من ثمّة إلى حيث لقي النبي، فأعلن شهادة الإسلام على يديه.

وغير عسير علينا أن نرقب طويّة عمر، ونرى كيف كانت تتمشّى فيها الخوالج والخطرات وهو يتحدث إلى المرأتين: بنت حنتمة، وبنت الخطاب.

فهذا بطل مناضل يشحذه النضال إذا لقي أنداده من الأبطال وأقرانه من الرجال: الإساءة تتبعها الإساءة والتحدي يعقبه التحدي، وكلما قوبل البطش بمثله تضرّمت سوْرة الغضب وثارت نحيزة القتال[1] ومضى العداء شططاً لا اعتدال فيه ولا نكوص عنه حتى ينكسر عدو من العدوَّيْن. فلا موضع هنا لرحمة ولا سبيل لها إلى ظهور. وتتمادى الشرة[2] على ذلك شهوراً وسنين وكأن الرحمة لم تخلق في النفس ولم يسمع لها في حنايا الصدور صوت.

أما المرأة الشاكية أو المرأة الدامية إذا واجهت ذلك البطل القوي فما حاجته إلى قوته ونضاله؟ وما أحرى تلك القوة أن تهدأ في مكانها كأنها هي الخليقة الخفية التي لم تخلق وليس لها صوت مسموع! وما أقربها إذن إلى أن تخجل من إيذائها وتندم على قسوتها وتتوب إلى التوبة والخشوع وهما من لباب الدين.

إن العرب يشتقون الرحمة من الرحم أو القرابة، وهو اشتقاق عميق المغزى يهدينا إلى نشأة هذه الفضيلة الإنسانية العالية، ومودة عمر بن الخطاب لرحمه وذوي قرباه لا تنحصر دلائلها في رحمته لأخته الشاكية الثائرة. فإن المرأة قد ترحم لضعفها في موقف شكواها ويأسها. ولو كانت بعيدة الآصرة منقطعة النسب. إنما يدل على مودته لذوي قرباه؛ ذلك الحب الذي كان يضمره لأبيه بعد موته مع شدته عليه وغلظته في زجره وتأديبه. فكان يطيل الحديث عنه وينقل أخباره ويقسم باسمه. وظل يقسم باسمه وهو كهل إلى أن نُهِيَ المسلمون عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية.

وندر بين الناس من أحب إخوته كما كان عمر يحب أخاه زيداً في حياته،

1– النحيزة: الطبيعة والغريزة.

2– الشرة: الشر.

وبعـد مماتــه، فما شاء أحـد أن يبكيه إلا ذكـره له ففاضت شؤونـه[1]، وجعل بعـد قتله يتأسى بمن أصيب مثـل مصابه ولا يرى أحداً فقد أخاً له إلا التمس الأسوة عنده.

حكـى أحمد بن عمـران العبدي عن أبيه عن جده قال: «صليت مع عمر بن الخطاب الصبح، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل قصير أعور متنكباً قوسه وبيـده هراوة فسأله: مَن هذا؟ فقيل: متمم بن نويرة. فاستنشده رثاءه لأخيه، فأنشده حتى بلغ إلى قوله:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول افتراق لم نبت ليلة معاً

فقــال عمر: هـذا واللـه التأبين، يرحم اللـه زيد بن الخطاب! إني لأحسب أني لو كنت أقدر أن أقول الشعر لبكيته كما بكيت أخاك. ثم سأله: ما أشد ما لقيت علـى أخيك من الحزن؟ فقال: كانت عيني هـذه قد ذهبت فبكيت بالصحيحة، فأكـثرت البـكاء حتى أسعدتها العـين الذاهبة وجرت بالدمـع. فقال عمر: إن هـذا لحـزن شديد. ما يحزن هكذا أحد على هالك. قــال متمم: لو قتل أخي يوم اليمامــة كمــا قتل أخوك ما بكيت أبداً. فصبر عمـر وتعزّى عن أخيه وقال: ما عزّاني أحد عنه بأحسن مما عزيتني».

هذا هو عمر من وراء النقاب.

فما كان أحوجه رضي اللـه عنه إلى ذلك النقاب، وما أقل الغرابة في ذلك النقــاب من الشدة والهيبة حين ينفذ الناظر إلى ما وراءه فيرى مكان الحاجة إليه.

وقـد يرحـم الرجل أهـل الرحم والقرابــة ويجفو غيرهم مــن الناس، ولكن الرحمــة الأصيلــة في الطبــاع تسوي في المــودة ولا تفرّق، وتخلـق هـي سبب الرحمة ولا تنتظر حتى تفرضها عليها القرابة بأسبابها. فكان عمر كما روى «الحســن» يذكر الصديق من أصدقائه بالليل فيقــول: يا طولها من ليلة! فإذا صلّى الغداة غدا إليه، فإذا لقيه التزمه أو اعتنقه.

1– الشؤون: الدموع.

وكان بكاء طفل يزعجه ويقطع عليه صلاته وينغّص عليه ليله.

قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى، فاقترح على عبد الرحمن بن عوف أن يذهبا ليحرساهم من السرقة، ثم باتا يحرسان ويصليان، فسمع بكاء صبي، فتوجه نحوه وقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيّك، ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فرجع إلى أمه كرة أخرى، ثم سمع بكاءه آخر الليل فقال لأمه: ويْحك! إني لأراك أم سوء ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: يا عبد الله قد أيرمتني منذ الليلة. إني أُربعه عن الفطام[1] فسألها: ولمَ؟ فقالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم! فسألها: وكم له؟ فلمّا علم أنها فطمته دون سن الفطام أمر منادياً فنادى ألا تعجلوا صبيانكم عن الرضاع فإنّا نفرض لكل مولود في الإسلام.

وقصته مع الصبية الجياع مشهورة ولكنها تعاد لأنها أحق قصة بأن تعاد.

قال أسلم: خرجنا مع عمر رضي الله عنه إلى حرة واقم حتى إذا كنا بصرار[2] إذا نار تؤرث[3] فقال: يا أسلم إني أرى ها هنا ركباناً قصر بهم الليل والبرد. انطلق بنا!

«فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان وقِدْر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون[4] فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء. وكره أن يقول: يا أصحاب النار. فأجابته امرأة: وعليكم السلام! فقال: أأدنو؟ فقالت: أدن بخير أو دع. فدنا منها فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد. قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع! قال: وأي شيء في هذه القدر؟ فقالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا. والله بيننا وبين عمر! فقال: أي رحمك الله وما يدري عمر بكم؟ فقالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟ فأقبل عليَّ فقال: انطلق بنا.

1- أربعه عن الفطام: المقصود أني أحسسه على الفطام وأُعَوِّده.

2- صرار: مكان على مقربة من المدينة.

3- تؤرث: توقد.

4- يتضاغون: يتصايحون.

«فخرجنا نهـرول حتى أتينا الدقيق. فأخرج عِدلاً[1] من دقيق وكبّة[2] من شحـم، وقـال: احمله عليّ! قلـت: أنا أحملـه عنك. قال: أنت تحمـل وزري يوم القيامة! لا أم لك!

فحملتــه عليه، وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها: ذري عليّ وأنا أحرُّ لك[3].

وجعـل ينفخ تحت القدر. وكانت لحيته عظيمــة، فرأيت الدخان يخرج من خلالهـا حتى طبخ لهـم. ثم أنزلها وأفرغ الحريـرة في صحفة وهو يقول لها: أطعميهـم وأنـا أسطح لهم – أي أبرّده – ولم يزل حتــى شبعوا وهي تقول له: جزاك اللـه خيراً، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين».

وأمثــال هــذه القصة في سيرة عمر كثير، لا يقــال إنها هي ومثيلاتها من الشعـور بالتبعة وليسـت من الرحمة، لأن العهد بالشعور بالتبعة أن يأتي من الرحمة، وليس العهد بالرحمة أن تأتي من الشعور بالتبعة!

كذلك لا يقال إنه قد كان يطيع أمراً سماوياً تحركت له نفسه أو لم تتحرك، فإن النفس التي تتحرك للأمر السماوي هي النفس التي فيها الخير ولها رغبة فيــه، وقلما تشفق من عقاب السماء إلا أن تشعـر بألم الظلم ومبلغ استحقاقه للعقاب.

علـى أن عمـر كان يرحم في أمور يحول فيها النفـور الديني دون الرحمة عند كثيرين.

فمن ذلك أنه رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب، فلما علم أنه يهودي قال لــه: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن! فأخذ عمر بيده وذهــب به إلى منزله، فأعطاه ما يكفيه ساعتها، وأرسل إلى خازن بيت المال يقـول: انظر هذا وضربــاءه[4] فوالله ما أنصفناه إن أكلنــا شبيبته ثم نخذله عند الهرم. إنما الصدقات للفقراء والمساكين. والفقراء هم المسلمون، وهذا من

1– العدل: الجوال.

2– كبة من الشحم : مقدار منه.

3– أحرّ لك: أي أتخذ لك حريرة، وهو الحساء من الدقيق والدسم.

4– ضرباؤه: نظراؤه وأمثاله.

المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه.

فهنا علّمته الرحمة كيف يطيع الدين، ولن يطيع الدين هكذا إلا رحيم.

وقد فرض عمر لكل مولود لقيط مئة درهم من بيت المال، كما فرض لكل مولود من زوجين، وهي رحمة قد يحجبها النفور من الزنا وثمراته في نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون.

بل كان يرحم كل مخلوق حي حتى البهيم الذي لا يبين بشكاية، فروى المسيب بن دارم أنه رآه يضرب رجلاً ويلاحقه بالزجر لأنه يحمل جمله ما لا يطيق.

وكان يدخل يده في عقرة البعير الأدبر[1] ليداويه وهو يقول: إني لخائف أن أسأل عما بك. ومن كلامه في هذا المعنى: لو مات جديٌ بطف[2] الفرات لخشيت أن يحاسب به عمر، وإنه لشعور بالتبعة عظيم.

لكنه كما أسلفنا لن ينبت في قلب كل أمير عليه تبعة، إلا أن يكون به منبت للرحمة عظيم.

•••

فنحن إذن بإزاء صفة كبيرة إلى جانب صفة كبيرة:الرحمة إلى جانب العدل، وكلتاهما من البروز والوثاقة وعمق القرار بمثابة العنوان الذي يدل على صاحبه، أو بمثابة العنصر الأصيل الذي يلازمه ويلابسه ولا يفارقه في جملة أعماله.

ومن خصائص عمر أنه كان على هذا الشأن في جميع صفاته المشهورة، خلافاً للمعهود في الصفات الغالبة بين الناس من المحامد كانت أو العيوب. إذ قلما يوسم إنسان بأكثر من صفة غالبة بهذه المثابة من التأصل والبروز، فهو عادل أو رحيم أو غيور أو فطن أو وثيق الإيمان، ثم تطغى إحدى هذه الصفات على سائرها فلا تعطيها إلى جانبها مكانة رسوخ واستقرار.

وعلى غير هذا العهد كان عمر في جميع صفاته الكبيرة التي ذكرناها، فكانت كل صفة منها في قوتها ورسوخها تكفي للغلبة على شخصية

1- البعير الأدبر: المصاب بالدبر وهو مرض يصيب الدواب كالقرحة.

2- طف الفرات: بـ «شاطئه».

تتسم بها ولا تذكر بغيرها، وإنه ليتصف بهـا فتأخذ من سماته ومعالمه ما يخصصها به ولو كانت من الصفات القومية الشائعة في أبناء جلدته جميعاً، فيخيّل إليك أنها سمة مميزة له لم توجد في غيره.

فأحـرار العرب كلهم غيور. ولكنك إذا قلت «العربي الغيور» فكأنما سميت عمـر بـن الخطاب.لأنه طبع هذه الصفـة القومية بطابعه الـذي لا يشبهه فيه غيره، فكان الغيور بين الغيورين.

قـال أكبر أصدقائه وأكبر العارفـين به محمد عليه السلام: «إن اللـه غيور يحب الغيور، وإن عمر غيور».

وتحـدث إلى صحبه يومـاً وعمر فيهم فقـال: «بينما أنا نائـم رأيتني في الجنـة، فـإذا امرأة تتوضـأ إلى جانب القصر، فقلت: لمن هـذا القصر؟ فقالوا: لعمـر. فذكرت غيرته فولّيْت مدبراً. فبكى عمر وقـال كالمعتذر: أعليك أغار يا رسول اللـه؟».

وكانـت هذه الغـيرة معروفة مخشية بـين جميع من يعرفونـه ويسمعون بطباعـه، والنساء من باب أولى يعرفنها ويعهدنهـا ويتقينها كما لم يتقينها قط من غيره.

استأذن على النبي يوماً وعنده نساء من قريش يكلمْنه ويستكثرنه عالية أصواتهن، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب.

فدخل والنبي يضحك.

قـال عمر: أضحـك اللـه سنك يا رسول **الله**. كأنـه يسأله عن سبب ضحكه.

فقـال عليـه السـلام: عجبت من هـؤلاء اللاتي كـن عندي لما سمعـن صوتك ابتدرن الحجاب.

قـال عمر: فأنت يا رسول اللـه كنـت أحق أن يهبن. ثم التفت إليهن يقول: أي عدوات أنفسهن! أتهبنني ولا تهبن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم؟

قلـن، ولا يخـذل المرأة لسانهـا في هذا المقـام: نعم أنت أغلـظ وأفظ من رسول اللـه!

وحسبـك مـن غيرته أنه هو الذي أشار على النبـي صلى اللـه عليه وسلم، بحجاب أمهات المسلمين، وكان يرى إحداهن في الظلام ذاهبة لبعض شأنها فيقول لها: عرفتك يا فلانة! ليريها أنها في حاجة إلى مزيد من التحجب. وقد

ضجرت إحداهن منه لهذا فقالت له: وإنك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا؟

على أن الغيرة في ابن الخطاب، لم تكن غيرة مقصورة على المرأة وكفى. بل غيرته على المرأة لم تكن إلا شطراً من غيرته على كل حرم وحوزة. فمن هذه الغيرة العامة سياسته العربية التي كانت تصد الغرباء عن جزيرة العرب كأنها الحرم الموصد، ومنها غيرته على الزي العربي والشمائل العربية، ومنها غيرته على العقيدة وحدود الشريعة، وغيرته على كل حق يحميه غيور.

والأحاديث عنه في هذه الخصلة تتعدد في معارض شتى، كما تعددت أحاديث عدله ورحمته وكل صفة بارزة فيه.فشأن هذه الصفات أن يظهرن أبداً حيث ظهر له قول أو عمل، لأنهن أصيلات مطبوعات يختلطن بكل ما عمل وقال.

إلا أنك تقرؤها جميعاً فتخرج منها بأثر واحد لا اختلاف فيه.

ذلك أن عمر كان يغار على حق ولا يغار من أحد ولا ينفس على ذي نعمة.

فإذا قيل لك: إن عمر قد غار فلن يخطر لك أن تسأل: ممن كانت غيرته؟ وإنما يخطر لك أن تسأل في كل مرة: علام غار؟ ولأي شيء كان يغار؟

فهو يغار على حق أو يغار على عرض، أو يغار على دين، أو يغار على صديق أو صاحب حرمة، ولا يغار من هذا أو ذاك لنعمة أصابها هذا أو ذاك.

إنما كان يغار على شيء يحميه ويعلم من نفسه القدرة على حمايته، فهي غيرة مَن يريد الحماية لغيره، ولا يريد انتزاع الخير لنفسه أو غلبة إنسان على حظه.

رجل قوي، جيّاش الطبع، شديد الشكيمة، مؤمن بالحق وحرماته، قادر على تقويم من يحيد عنها ويجترئ عليها. فإن لم يكن هذا غيوراً فمن يكون الغيور؟

وقل في ذكائه وفطنته وألمعية ذهنه ما تقول فيما اشتهر به من صفات العدل والرحمة والغيرة، وإن كانت هذه الصفة أحوج منهن إلى الشرح والتحليل.

فبعض المستشرقين الذين أثنوا عليه قد عرضوا لأمر تفكيره فوصفوه

بأنه محدود التفكير، أو أنه يأخذ الأمور بمقياس واحد.

ونحن لا نقول؛ إن عمر رضي الله عنه، خلق بذهن عالم بحّاثة منقطع للكشف والتنقيب، ولا أنه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر في مناحي الظنون والفروض، ولا أنه خلق بذهن منطقي يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين. فالواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه، وأنه كان معنياً بالعمل قبل عنايته بالنظر أو الفرض والتقدير، ولكن الفرق بعيد بين هذا وبين الفكر المحدود والنظر الذي يقيس الأمور بقياس واحد.

فعمر كانت له فطنة الرجل العليم بنقائض الأخلاق وخبايا النفوس، ولم يحكم عليها قط كأنه ينظر إليها من جانب واحد أو يطبعها في تفكيره بطابع واحد. بل علم الدنيا وعلم كيف يتقلب الإنسان، وراح في علمه هذا يراقب الناس مراقبة الجذور، ويقيم عليهم الأرصاد إقامة الرجل الذي لا يفوته أن ينتظر منهم ما ينتظر من خير وشر وقوة وضعف وصلاح وفساد.

وكفى من كلماته الدالة عليه أن نذكر أنه كان يحب أن يعرف الشر كما يعرف الخير، لأن «الذي لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه» وأنه كان يحب أن يعرف الأعذار كما يعرف الذنوب، حيث يقول: «أعقل الناس أعذرهم للناس»، وأنه هو القائل: «احترسوا من الناس بسوء الظن»، وهو القائل مع ذاك : «أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر». يوفق في هذين القولين بين سهر الحاكم الذي لا ينبغي أن تخفى عليه خافية، وبين عدل القاضي الذي لا ينبغي أن يحكم بغير بيّنة ظاهرة.

بل لو كان عمر بن الخطاب محدود التفكير ينظر إلى الأمور من جانب واحد لما كثرت مشاورته للكبار والصغار والرجال والنساء مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدد، وأن للأمور وجوهاً لا تنحصر في الوجه الذي يراه، وكثيراً ما قال: «أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه». وليس استطلاع الآراء ولا الخوف من الإعجاب بالرأي شيمة رجل محصور التفكير ضيق المنافذ إلى الحقيقة.

وقد عاشره أناس من الدهاة فخبروه وحذروه! وقال المغيرة بن شعبة لعمرو بن العاص: أأنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئاً فيلقنه عنك؟ والله

مـا رأيت عمر مستخلياً بأحد إلا رحمتـه كائناً من كان ذلك الرجل. كان عمر والله أعقل من أن يخدع وأفضل من أن يخدع».

إنمـا كان عمر كما وصـف نفسه «ليس بالخب ولكن الخـبّ[1] لا يخدعه». وهـذا هو الحـد الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء المحمـود والدهاء المذموم، أو بـين الفهم الصحيح والخبيث القبيح. فهناك فطنة تسيء الظن لأنها تعرف الشرور التي في طبائع الناس، وفطنة تسـيء الظن لأنها تشعر شعور السوء، والفـرق بينهما عظيـم كالفرق بين الخير والشر والمحمـدة والمذمة. فالفطنة الأولى معرفـة حسنـة والفطنة الثانية خلـق رديء، وإنمـا كان عمر بالفطنة الأولى معصومـاً مـن أن يَخـدَع غـيره أو ينخدع لغيره، وهذا هـو الحد القوام الذي لا نقص فيه من جانبيه.

وكانـت له في استيحـاء الخفايا قدرة تقرب من مكاشفـة الغيب لولا أنها تستنـد إلى التقدير الصحيح والظـن المدعوم بالخبرة، وحكاية واحدة من هذا القبيـل تغني عن حكايـات، وهي حكايته مع المغيرة الذي استكثر على عمرو ابن العاص أن يوحي إلى عمر بمراده ويتداهى عليه.

فقـد هم عمر رضـي الله عنه بأن يعزل المغيرة عـن العراق، ويولي جبير ابـن مطعم مكانه، وأوصى جبيراً أن يكتم ذلك ويتجهز للسفر. فأحس المغيرة وسـأل جليساً لـه أن يدس امرأته، وهـي مشهورة بلقط الأخبـار حتى سُميت «لقّاطـة الحصا» لتستطلـع النبأ من بيت جبير، وذهبـت إلى بيته فإذا امرأته تصلـح أمره فسألتهـا: إلى أين يخرج زوجك؟ قالت: إلى العمـرة! قالت لقّاطة الحصـا: بـل كتمك، ولو كانت لك عنده منزلة لأطلعك على أمره! فجلست امرأة جبير متغضبة ودخل عليها وهي كذلك، فلم تزل حتى أخبرها وأخبرت لقّاطة الحصـا. وذهـب المغـيرة إلى عمر، ففاتحه بمـا علم وهو يقول لـه: بارك الله لأمـير المؤمنـين في رأيه وتوليته جبيرا! فلم يعجب عمر من وقوفه على السر بـل قـال: كأني بك يا مغيرة قد فعلت كيت وكيـت، كأنما سمع ورأى.. وأنشدك اللـه هـل كان كذلك؟ قال المغيرة: اللهم نعم. ثـم صعد عمر إلى المنبر ونـادى

1- الخب: المخادع.

في النـاسـ: أيها النـاس! مـن يدلني على المخلط المزبل[1] النسيج وحده؟ فقام المغيرة فقال: ما يعرف ذلك في أمتك أحد غيرك؟. فأبقاه على ولايته ولم يزل واليه على العراق حتى مات.

وإنما كانت مجاراته للداهية من هذا القبيل إعجاباً بحصافته لا انخداعاً بمكـره، وقد يتغابى ويعمل ما يريـده المتداهي عليه، لأنه أدرك مرمى كلامه وفهـم ما فيه من صـواب، كما صنع مع عمرو بن العاص في خطبة أم كلثوم بنت علي رضي اللـه عنهما. وسيأتي الكلام عنها في فصل تال.

علـى أن القدرة الذهنيـة التي امتاز بها عمر في غنى عن الاستدلال عليها بمـا قـال ومـا قيل فيـه، ومـا دار بينه وبـين بعض القـوم مـن المساجلات والمحـاورات. إنـه عمـل لم يعملـه إلا القليل مـن أقدر الحكام في تاريخ بني الإنسان، وكفى بذلك دليلاً على قدرته الذهنية لا حاجة بعده إلى دليل. ساس شعوبـاً بينها مـن الاختلاف مثل ما بين العرب والفرس، وبين الفرس والقبط والسوريـين، ونصّـب ولاة وانتـدب قواداً وسَـيَّر بعوثاً وأشرف على ميادين قتال، وأقام نظماً في الحكومة وراقب رعاة ورعية فيما يعلنون وما يبطنون، ونجح في كل ما عمل نجاحاً منقطع النظير غير مردود إلى المصادفة ولا إلى ارتجـال المغامريـن، وليس هذا كله مما يضطلع به رجـل محدود الفكر ضيق الأفـق، قليل الخبرة بالجماعـات والأفراد. فإذا استوفى هـذا الحظ الوافي من القـدرة الذهنيـة، فذلك حسبه منها وحسب كل مـن تصدى لمثل عمله ونهض بمثـل وقره[2]،ولا عليه بعد ذلك أنـه لم يفكر على نمط الفلاسفة وأقطاب العلم وأساطـين المنطق والرياضة، فإن الدنيا لم تخرج لنـا عمر ليزيدنا أفلاطوناً آخر أو إقليدس ثانياً أو «فارادي» سابقاً في الزمن القديم، بل أخرجته للناس ليكـون مؤسس عهد ومحول تاريخ. فـإذا تأدّى به عقله إلى تلـك الغاية فهو العقـل الصائـب يفكر على النحو الـذي خلق له ويبلغ القصد الـذي رمى إليه. وعلينا نحن أن نعرف كيف كان تفكيره وأن نسلكه بين قرنائه وأنداده.

إنما طرأت شبهة العقل المحدود على المستشرقين الذين ظنوا به هذا الظن

1- رجل مخلط مزبل: يجمع بين الأشياء، ويميز بينها لقوة فكره.

2- وقره: حمله ومسؤوليته.

من ناحية واحدة، وهي ناحية العدل الذي لا يلتفت ذات اليمين وذات الشمال، والقضاء الذي يكيل الجزاء دقة بدقة، ولا يبالي بالنقائض والمفارقات.

ونظروا إلى جملة آرائه في المسائل الجلي فإذا هي من الآراء التي يغلب عليها القطع والجزم والانطلاق إلى غير غرض ماثل لا تنحرف عنه قيد شعرة، كأنه قد جهل ما في الدنيا من نقائض وخفايا ومن عوج وتعريج، أو كأنه السهم الثاقب ينفذ فيما أمامه إلى هدفه المحدود، ولا يلتفت إلى شيء في نفاذه أو يعوقه عائق دونه.

فخطر لهم أن فطنته إنما كانت فطنة فراسة فطرية كالغريزة التي تهتدي على استقامة واحدة، ولكنها لا تنحرف ولا تتصرف ولا تخالف ما جُبلت عليه، وأنها فطنة العقل المحدود والبصر الموكل بجانب واحد ينفذ فيه ولا يحيط به أو يتشعب في نواحيه. والفكر المحدود هنا هو فكر أولئك المستشرقين لا فكر عمر بن الخطاب.

فالرجل الذي يستقيم على وجه واحد لا يحيد عنه، هو واحد من رجلين: فإما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه لا يرى غيره ولا يحيط بما حوله.

وإما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه قادر على اختراق العقبات، عالم أنها تنثني إليه حيث كان دون أن ينثني إليها حيث كانت.

واستقامة عمر بن الخطاب على وجهه من هذا القبيل وليست من ذلك القبيل: هي استقامة قدرة وليست باستقامة عجز، وهي استقامة تصرف سريع وليست باستقامة محجور مقيد، يأبى أن يدور لأنه قد أعياه أن يدور.

هي استقامة حياة غلابة، وليست باستقامة أداة كالموازين تسوي بين التبر والتراب، لأنها لا تميز بين التبر والتراب.

فالرجل الذي يجتنب التصرف في العدل عجزاً عن الفهم والتزاماً للحرف المكتوب ونزولاً إلى مرتبة الموازين التي لا تعي ولا تغضب ولا تغار وغنماً هو آلة فقيرة في مادة الحياة.

إما الذي يجتنب التصرف في العدل غيرة على الضعيف وقدرة على القوي، وعلماً بالتبعة واضطلاعاً بجرائرها فذلك حي غني بالحياة يعدل لفرط السليقة الإنسانية والقدرة الحيوية، ولا يعدل لأنه آلة تشبه الميزان الذي لا حس فيه.

وشتــان بين هذا وذاك. إنهما لنقيضان، وإن كانا في ظاهر الأمر شبيهين متقاربين.

والاعتمــاد على الأمثلــة الخاصة أوْلى بنا في هــذا المعرض من الاعتماد على القواعد العامة والتقريرات النظرية.

فهـذه أمثلــة ثلاثــة مــن أمثلة العـدل الـذي يبـدو لأول وهلــة كأنه عدل الموازيــن الآلية حين تسوّي بين الأوزان، وإن اختلفت القيم والأقدار، وتفصل في الأنصباء بغير نظر إلى فوارق الدنيا ومقتضيات السياسة وتبدل الأحوال. ونختارهــا مــن أجهر الأمثلــة وأدناهــا إلى تأييد شبهــات المستشرقين فيما زعموه من العقل المحدود، لنرى على قدر ضخامة هذه المثلة ضخامة الخطأ في استخراج ما تدل عليه.

كان عمــرو بــن العاص والياً لمصــر وكان ابنه يجري الخيــل في ميدان السبــاق، فنازعه بعض المصريين السبق واختلفا بينهمــا لمن يكون الفرس السابــق. وغضب ابــن الوالي فضرب المصــري وهو يقول: أنا ابــن الأكرمين! فاستدعــى عمر الوالي وابنه حين رفع إليه المصــري أمره، ونادى بالمصري في جمْع من الناس أن يضرب خصمه قائلاً له: اضرب ابن الأكرمين! ثم أمره أن يضــرب الــوالي لأن ابنه لم يجــرؤ على ضرب النــاس إلا بسلطانه، وصاح بالوالي مغضباً: بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ فما نجا من يده إلا برضا من صاحب الشكوى واعتذار مقبول.

وكان خالــد بــن الوليد، أشهر قادة الإســلام في زمانه فأحصى عليه عمر بعض المآخــذ ومنها؛ إنفاقه مــن بيت المال في غير ما يرضــاه. فأمر به أن يحاكــم في مجلس عــام كما يحاكم أصغر جندي، وعزلــه بعد مقاسمته فيما يملك من نقد ومتاع.

وكان جبلــة بــن الأيهم، أمــيراً نصرانيــاً فأسلم وأسلمت معــه طائفة من قومــه، ثــم وطئ أعرابــيٌ إزاره فلطمــه جبلة على مــلأ من حجاج بيــت اللــه. فقضى عمر للأعرابي أن يلطم الأمير على ذلك الملأ، لأن الإسلام لا يفرق بين سوقة وأمير.

هــذه أمثلــة العدل الــذي لا ينصــرف ولا يلتفــت إلى الدنيا ومــا فيها من فــوارق وتعريجات تتأبى على القصاص المستقيم، وهي أقوى الشبهات على

النظـر المحدود في تقدير الجزاء بـالحرف المكتوب، دون الالتفـات إلى الأحوال والمقتضيـات.

فهـل هــي في الواقع كذلـك؟ وهل كان علــى عمر أن «يتصــرف» في هذه الأقضيــة بلباقة الساسة الدهــاة في جميع الأزمــان، إذ يحتـالون على حرف الشريعة ويدورون حول حدود القـانون؟

نعــم كان عليه ذلك لــو عجز عن سنة المساواة واحتــاج إلى الحيلة. فإنما يعاب على الوالي عدل الموازين، ويحمد منه التصرف والدوران لأن المساواة تعييه، أو لأن المساواة تعرّضه لعاقبة شر وأظلم من الإجحاف، فإذا نظر إلى عاقبــة المساواة في المعاملــة فرآها شراً وأظلم من عاقبــة التفرقة والتمييز، فقد وجب عليه إذن أن يدور حول الحقيقة وألا يواجهها نصاً بغير انحراف.

ولكــن أيــن هــذا من عمــر وأين عمــر من هــذا؟ إنــه كان قوياً قــادراً على العواقــب، وكان شديــد الألم من ظلم الظالم شديــد الخجل من خذلان المظلوم، وكان وثيــق الإيمان بنصر الله في الحق وفي النجدة: فلماذا ينحرف؟ ولماذا يتصرف؟ ولماذا يدور؟

كان قويــاً بطبعــه قويــاً بإيمانــه فلماذا يهــاب قوياً جار علــى ضعيف؟ ولماذا يروغ من صرامة القاضي إلى دهاء السياسي الذي يدور حول الحقوق والحدود؟

للمستشرقين المتحدثين بـالتفكير المحدود أن يأخذوا عليه تشهيره بكبار الــولاة ويثبتوا به كل ما قالوه عن ذلــك التفكير المحدود الذي ينسى الفوارق ولا يحتـال على المحظورات، ولكن بشرط واحد.

ذلــك الشـرط هو: أن يتوقعوا ولــو من بعيد أن يثور ابــن العاص ونظراؤه علــى هــذا القصاص، فيختل حكــم الدولة وينتشـر الأمر علــى الخليفة ويقع المحظور أضعاف ما كان واقعاً لو بطلت المساواة بين السوقة والولاة.

أمــا أن يكون ابــن العاص ونظراؤه لا يثورون ويعلمــون من هو عمر وما هي عُقباهم إذا ثاروا عليه.

وإمــا أن يكــون عمر لا يخشــى تلك الثورة ولا يعبأ بهــا إذا هي فاجأته أو جاءته على غير انتظار.

وأمــا أن يكــون الأمــر في ضمــيره وفي ضمائرهم يجري علــى البديهة

التي لا خفاء بها ولا شك فيها، فكيف يقال إذن إن تفكير عمر في قصاص الولاة كباراً وصغاراً تفكير محدود؟ وأين هو في هذه الحالة موضع التفكير المحدود؟

إنه في موضع واحد، وهو كما أسلفنا موضع الناقد الذي يصف عمر بغير وصفه، لأنه هو محدود الفكر في قياس الرجال بمقياس واحد، أو في اعتقاده أن الخطوب تبقى كما هي ولا تتغير كلما تغيرت عليها أيدي الرجال.

لقد كان عمرو بن العاص خطراً على الخليفة الذي يغضب منه لو كان غير عمر، ولكنه هو – والذين كانوا أجرأ منه على الفتن وأسرع منه إلى الغضب – لم يكن لهم من خطر إذا كان عمر هو الذي أمر بالعزل وهو الذي قضى بالقصاص.

فأجرأ منه ولا ريب كان خالد بن الوليد، وأشهر منه بين سيوف الإسلام لو عمد إلى السيف. ومع هذا نقم خالد عزله، فخطب الناس ومضى يقول: «إن أمير المؤمنين استعملني على الشام حتى إذا كانت بثنية – أي حنطة – وعسلاً عزلني وآثر بها غيري». فما أتمها حتى نهض له رجل من السامعين فقال له: صبراً أيها الأمير فإنها الفتنة. فما تردد خالد أن قال: أما وابن الخطاب حي فلا.

نعم، لا فتنة وابن الخطاب حي، ولو كان الغاضب خالداً الغضوب، ومن هنا حُق له أن يشكو ولا جناح عليه.

وأطرف من هذا في هيبة عمر بين ولاته وقواده؛ أنه كتب إلى أبي عبيدة يأمره أن يقاسم خالداً ماله نصفين، فقاسمه جميع ماله حتى بقيت نعلاه، فقال أبو عبيدة: إن هذا لا يصلح إلا بهذا فأبى خالد أن يخالف أمر عمر فأعطاه إحداهما وأخذ الأخرى.

لقد نظرنا إلى عمر مستقيماً ولم ننظر إلى الخطوب، ولو نظرنا إليها لرأينا أنها انثنت لتنقاد له وتتقي مصادمته وتستقيم على منهاجه. فعلمنا لمَ استقام دون أن يقدح ذلك في صدق نظره إلى الدنيا وصدق فراسته في خلائق الناس.

وندع قضايا الولاة وننظر في قضية الأمير؛ الذي ارتد عن الإسلام هو

وقومه، لأن عمر أجبره على قصاص المساواة بينه وبين رجل من السوقة. فماذا كان ينبغي أن يفعل عمر غير ما فعل من المساواة الصادقة بين الأمير الضارب وخصمه المضروب؟

لعل داهية من دهاة السياسة الذين يصفون أنفسهم بالنظر البعيد كان يؤثر إرضاء الأمير، واستبقاء أتباعه في الإسلام والاحتيال على الشاكي بما يواسيه ويغنيه عن أن يسوي بين الخصمين، ويمكن لضعيف من ضرب أمير اعتدى عليه.

فهل معنى ذلك أن عمر كان يعوزه دهاء أولئك الساسة وما عندهم من بُعد نظر مزعوم؟

كلا. بل معناه أن أولئك الساسة يعوزهم السخط على الظلم والغيرة على الحق واليقين بالقدرة والإيمان بمناعة الإسلام أن يصيبه غضب أمير صابئ بما يضيره، ولو كثر أتباعه والصابئون في ركابه.

معناه أنهم احتاجوا إلى التصرف وعمر لم يحتج إليه.

وها هي ذي السنون قد مضت وتلتها الأحقاب والقرون، فبدا لنا أن النظر البعيد والعدل الشديد في هذه القضية يلتقيان، وأن عمر كان أحسن المتصرفين فيها، لأنه اجتنب التصرف الذي يهواه الدهاة. فقد أفاد الإسلام ما لم يفده بقاء جبلة وأتباعه على دينه، ووقاه ضرراً أضخم وأوخم من نكوص أولئك الصابئين عنه. أفاده ثقة أهله بإقامة أحكامه واطمئنان الضعفاء إلى كنفه، ورهبة الأقوياء من بأسه وسمعته في الدنيا برعاية الحق وإنجاز الوعد وتصديق معنى الدين، ولا معنى له إن كان أضعف بأساً من أمير وجب العقاب عليه.

ويجوز أن الفاروق لم ينظر إلى عواقب القرون، كما ننظر إليها الآن، بعد أن برزت من حيز الفرض إلى حيز العيان. غير أن الأمر الذي لا يجوز في اعتقادنا؛ أنه عدَل في قضية جبلة ونظرائها عدْل آلة أو عدْل ميزان. إن الميزان لأقل من مخلوق له حياة.

أما الفاروق في هذه القضية، فقد كان أكبر من الحياة الفانية، كان بطلاً يؤمن ويعمل بإيمانه، وهكذا يعلو الإنسان ببطولة الإيمان.

والعبرة التي نخرج بها من هذا؛ أن النظرة الأولى في أخلاق عمر بن

الخطاب حسنة ولكن النظرة الثانية هي على الأغلب الأعم أحسن من الأول.

فالناقدون الأوروبيون الذين فسروا عدله المستقيم القاطع بالنظر الضيق والفكر المحدود لم يفهموه ولم ينصفوه، ولو فهموه وأنصفوه لعلموا أن عدله المستقيم القاطع زيادة في القدرة وليس بنقص في الفطنة، أو أنه زيادة في قوة الثقة وقوة الإيمان وليس بنقص في العلم والبداهة، ولم يكن عسيراً عليهم أن يفقهوا ذلك لو راجعوا أنفسهم وتريثوا في حكمهم، لأن قوة الثقة وقوة الإيمان لا تخفيان في خُلق من أخلاقه ولا عمل من أعماله، ولا تزالان ممزوجتين فيه بكل إقدام وبكل إحجام. فكان يقدم على أعظم الخطوب ويحجم عن أهون الهينات تحرجاً منها وتنزهاً عنها، إذا اقتضى ذلك وازع من قوة الإيمان.

فلم يكن يمضي قدماً لأنه يغفل عما حوله من النواتئ والمنعرجات والسدود، بل كان يمضي بينها قدماً لأنه لا يباليها، ويؤمن أصدق الإيمان أنها تنثني له إذا مضى فيها، فلا حاجة به أن ينثني إليها.

إنه ليعلم العوج ولكنه يعلم أنه أقدر منه، لأنه يؤمن بحقه إيمان القوي الوثيق، فله من قوته ومن إيمانه قدرتان.

إنه ليرفع العبء إلى كاهله وهو قائم لا يطأطئ للنهوض به، فليس الفارق بينه وبين غيره أنه يجهل العبء الذي يعرفونه، أو ينسى العواقب التي يذكرونها، أو يتحلل من المصاعب التي يتحرجون منها. كلا! إنما الفرق بينه وبينهم أنهم ينثنون للخطوب، وأن الخطوب هي التي تنثني إليه.

هذه القوة في إيمانه كانت المسيطر الأكبر على كل خلق من أخلاقه، وكل رأي من آرائه، بل كانت هي المسيطر الأكبر على ما هو أصعب مقاداً من الأخلاق والآراء، وأشد عراماً[1] من العقائد والشبهات، وهي دوافع الطبع وسوْرات الغريزة، وقلما خلا منها طبْع قوي عزوف غيور.

فالأفكار والأخلاق جانبان من جوانب النفس الإنسانية قابلان للضوابط والقيود، ولكن ما القول في الدوافع والسوْرات؟

1– أشد عراماً: أشد شراسة وشدة.

مثل الفكر كمثل السفينة الطافية على وجه النهر لها شراع ولها سكان، وعليهما معاً رقيب من النواتية[1] والربّان[2].

ومثل الخلق كمثل النهر المندفع تحبسه الشواطئ والقناطر ويفيض في موعد ويعرف له مجرى، ويحسب له مقدار.

ولكن ما القول في السيل العرَم؟

ما القول في السوْرة الجامحة التي ليست بفكر يسوس ويُساس، ولا بخلق متميز بسماته وخصائصه ومراميه!

هن تبدو لنا قوة الضوابط والقيود.

وهنا أيضاً كانت ضوابط الإيمان القوي في نفس عمر كأقوى ما تكون.

ولا أحسب أن قلبه الكبير جمحت به في الجاهلية أو الإسلام سوْرة أكبر من سوْرته يوم نُعِي النبي إلى المسلمين، فأنكر أن ينعى وأبى أن يسمع صوتاً بين المسلمين يزعم أن محمداً قد مات، وصاح والناس في رهبة منه كرهبتهم من شبح الموت المخيّم يومئذ على الرؤوس: «والله إني لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات».

ثم أقبل أبو بكر من مسكنه على فرسه، فنزل فتمشّى وئيداً صامتاً لا يكلم أحداً، وتيمّم النبي وهو مغشّى بالثوب، فكشف عن وجهه ثم أكبّ عليه وقبّله، وبكى.

ثم أحس صوْلة عمر وهو يكلم الناس، فخرج إليهم فقال: اجلس يا عمر! وأقبل على المسلمين يكلمهم بكلام السماء: «أما بعد، فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر **الله** شيئاً وسيجزي **الله** الشاكرين».

فأهوى عمر إلى الأرض وأناب.

وكأنه والمسلمين معه ما علموا أن أنزلت هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر تلك الساعة.

1- النوتي: الملاح في البحر خاصة. جمعه النواتية.

2- الرُّبّان بضم الراء: من يُجرِي السفينة.

يا لروعة الشلال الزاخر؟

ويـا لروعـة السابح القاهر الذي لوى به لياً كأنمـا قبض منه على عرف، وأخذ له بعنان!

أكبر ميدان من ميادين الدنيا لا يرينا صراعاً عاتياً هو أوْلى بالروعة من نفس عمر وهي متراوحة بين شعوره الزاخر وإيمانه الوثيق.

لحظـة هـائلـة من أهـوَل ما تحس النفوس، ثـم انهزام كأسـرع ما يكون الانهـزام، وانتصار كأسرع ما يكون الانتصـار، وغاشية تنجلي عن صاحب تلـك النفس وهو مالـك لزمامه، ماض بشعـوره إلى حيث يمضـي به إيمانه، فهما قوتان غالبتان، وليستا بعد بالعسكريين المتغالبين.

لقد كانت تلك سوْرته الكبرى ولكنها لم تكن أولى سوْراته ولا آخرها.

فقد عهدت هذه السوْرات في طبعه حتى عرف من عهدوها كيف يسوسونها ويتقونهـا، وأوشكت أن تحسـب في عداد الأنهار المحكومة لا في عداد السيول الجارفة انطلقت من عقالها.

ذهـب إليـه بلال مستئذناً، فقال له الخادم إنـه نائم، فسأله: كيف تجدون عمر؟ قال: خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم. قال بلال: لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه!

فهـو الإيمـان ضابط كل شيء في تلك النفس حتى السوْرات التي ليس لها ضابط في النفوس.

أو قل إنها هي النفس القوية في دفعاتها وفي ضوابطها على السواء.

وربَّ نفس من ضعـف الدّفعة بحيث يقمعها أهـون ضابط يسيطر عليها، فأما الدّفعة التي لا يقف في طريقها إلا ضابط أقوى منها، فتلك هي الطبيعة الحيوية المضاعفة، وليست هي الضعف الذي يتراجع لأهون مراجعة.

نذكـر هذا وينبغي أن نذكره ولا ننساه، لأن الفرق بين الإيمان الذي يكبح الهزيل المنزوف الحياة وبين الإيمان الذي يكبح القوي الجيّاش فرق عظيم.

ولم يكـن عمـر معرضاً عن زخـارف الحياة لهـزال كان في دواعي الحياة فيـه. وإنمـا كان معرضاً عنها لأنه كان قادراً علـى الإعراض غير ممتحن به في إرادة ولا عزيمـة. وكان معرضـاً عنهـا لأنه صاحب حيويـة غير الحيوية الجسدية الموكلة بالسـرور والمتاع. فمن الواجب إذا ذكرنا الحيوية وضعفها

وقوتها؛ أن نذكر أبداً أنها حيويات متعددة وليست بحيوية واحدة.

حيوية الروح وحيوية الخلق، وحيوية الذوق، وحيوية العقل وحيوية الجسد، وغير ذلك مما يتداخل بين هذه الحيويات.

فليس من الضروري إذا رأيت رجلاً قليل الاشتهاء لمتعة الأجساد؛ أن تحكم عليه بضعف الحيوية، فربما كانت له حيوية أخرى تملأ ألوفاً من النفوس لا تجد متاعها في أكلة أو شهوة، وتجد المتاع في إحقاق الحق وزجر الطغيان وإقامة العدل والشريعة بين الناس.

وهكذا كانت حيوية عمر فيما يريده وفيما يزهد فيه.

لم تكن قلة الرغبة في زخارف الدنيا هي مقياس حيويته العظمى، وإنما كان مقياس تلك الحيوية عظم الرغبة في الإصلاح والتقويم، وفي إجراء ما ينبغي أن يجري. غير مبالٍ ما يكلفه ذلك من جهد تتضاءل دونه جهود الألوف من الموكلين بمتاع الأجساد.

●●●

تلك صورة مجملة للصفات الكبيرة التي كانت غالبة على نفس عمر بن الخطاب، وهي العدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان.

وأول ما يلاحظ عليها؛ تعدد الصفات الغالبة في نفس واحدة، وصفة واحدة منها قد تغلب على النفس – وليست بصغيرة – فتنعتها بنعتها وتستأثر بتمييزها والدلالة عليها.

ثم يلاحظ عليها أن الصفة منها تتصل بعمر بن الخطاب، فتأخذ منه وتصطبغ بصبغته، حتى كأنها لم تعهد في غيره على شيوعها وكثرة الموسومين بسماتها.

إلا أن هذا وذاك ليس بأعجب الملاحظات ولا أندرها في هذا السياق، وإنما العجب العجاب حقاً هذا التركيب الذي ندر مثيله جداً بين خصائص النفوس، كائناً ما كان نصيب صاحبها من العظمة والامتياز.

وأحرى بنا أن نقول «هذه التركيبة» ولا نقول هذا التركيب، لأن صفاته الكبيرة تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذي ينفع لغرض واحد مفهوم، والذي ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط.

إذا نظرت إلى تلك الصفات أجزاء متفرقات فهي سهلة بسيطة ليس فيها

شيء عويص أو مكتنف بغموض.

ولكنك تنظر إليها مركبة متناسقة، فيبدو لك منها جانب الدهشة والإعجاز، أو جانب الندرة التي يعزُّ تكرارها في طبائع النفوس، لأنها تتركب لاستيفاء الغرض منها جميعاً واستيفاء الغرض في كل منها على حدة، وهذا هو النادر جد الندرة في تركيب الأخلاق.

ما العدل مثلاً بغير الرحمة التي تمزجه بالإحسان؟ وما العدل والرحمة معاً بغير الحماسة الروحية والغيرة اليقظى التي تجعل كراهة المرء للظلم كأنها كراهة الضرر الذي يصيبه في نفسه وآله وتجعل حبه للعدل كأنه حب هواه وقبلة مُناه؟ وما العدل والرحمة والغيرة جميعاً بغير فطنة تضع الأمور في مواضعها، وتعصم المرء أن ينخدع لمن لا يستحق ويغفل عمن يستحق، وهو حسن القصد غير متهم الضمير؟ وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الإيمان الذي هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع، والمرجع الذي لا مرجع بعده لطالب الإنصاف؟

كل صفة تتمة لجميع الصفات.

وكل الصفات روافد لغرض واحد يتم به نصر الحق وخذلان الباطل.

وكل خليقة فهي جزء لا ينفصل من هذه «التركيبة» التي اتفقت أحسن اتفاق وأنفع اتفاق، وكأنما اتفقت لتصبح كل خليقة منها على أتم قدرتها في بلوغ كمالها وتحقيق غايتها.

فلا نقص في العدل كالنقص في كل عدل يعمى عن الطبيعة البشرية ويذهل عن ضعف الإنسان.

ولا نقص في الغيرة كالنقص في كل غيرة ظالمة قاسية كأنها ضراوة وحش وليست بحماسة روح.

ولا نقص في أولئك كله كالنقص في جميع الصفات بغير الفطنة التي تخرج بها من ظلام إلى نور، وبغير الإيمان الذي يقف منها موقف الحارس الساهر والرقيب الأمين.

صفات متراكبة كأنها صفة واحدة يأخذ بعضها من بعض فلا تتعدد في مرآها، ولا تزال في صورة البساطة بعيدة عن التركيب، فيخطئ النظر القصير في التفرقة بين هذه الظاهرة النفسية الرائعة وبين ظاهرة الشيء البسيط

المحـدود، وإنه لخطأ شائـع ينساق إليه كثيرون ممن يستسهلون بساطة عمر، وهــي أولى بـالروعـة من تركيب يختلط من كل مزيــج، ثم يزيد في الألوان ولا يزيد في الإتمام والتوحيد والإتقـان.

ولو أن مخترعاً من أهل القصص حـاول أن يخترع سيرة عمر بن الخطاب، لأعياه أن يخترع ذلك الشتيت المتفرّق من الأخبـار والأحـاديث والنوادر ليقرأه القــارئ بعـد ذلك، فيقبل منه ما يقبل ويُسقط مــا يسقط، ثم يبقي منه ما يدل أصدق الدلالة على كل صفة من تلك الصفـات.

فلا اختراع في جملة أخبار عمر، وإن جاز الشك في بعضها أو جاز إسقاط الكثـير منها، ومن شــاء فليشك في هذا الخبر أو ذاك ما بـدا لـه الشك، وليسقط منهــا مــا بدا له الإسقــاط، فسيبقى بعـد ذلك جميعه خير يـدل على عدله ولا سبيـل إلى نقضه. وخبر يدل على رحمته ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدل على غيرتـه ولا سبيـل إلى نقضــه، ويبقى ذلـك التركيب العجيب الـذي هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل في مصادر الأخبـار.

هذه هي المعضلة التي عنينـاهـا حين قلنا في صدر هذا الفصل؛ إن سهولة عمـر وخلـو طبائعه من التعقيد والغموض، هي سهولــة أصعب من الصعوبة. لأنهـا تنتهي بـك إلى صعوبة التركيبة التي هي أندر مـن التعقيد والغموض، وتريك عناصر شتى قد تتناقض في غير هذا التركيب، ولكنها هنا لا تتنـاقض في شــيء ذي بــال، لأن التنـاقـض أن يذهــب كل عنصر في وجهــة مُعارِضة لسائـر الوجهــات، فأما أن تكون كلهــا ذاهبة في وجهة واحـدة فذلك عنصر واحد متعدد الأجزاء والألوان.

ولـهـذا كانت دراسة عمر غنيمــة لكل علم يتصل بـالحيــاة الإنسانية كعلم الأخــلاق وعلم الاجتمـاع وعلم السيـاســة، ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى.

لأن كل نفس صغـرت أو كـبرت فهــي إنســان يضيف العلم بــه إلى علم النفس بعض الإضـافة.

ولكــن ليســت كل النفوس بـالنفس التــي تصحــح أوهــام الواهمين في فضائـل الأخــلاق وفضائل الاجتمــاع، وفي القدرة المثلى التــي يقتدي بهـا طلاب الرِّفعة والسيـادة.

ونحـن في عصر شاعـت فيه فلسفـات مُسهبة تنكر الرحمـة والعدل على الأقويـاء الغيوريـن، وتحسبهمـا حيلـة من حيـل الطبع في خلائـق الضعفاء لاستدامـة البقـاء. كأن رحمـة الضعيف تنفعه إذا رحـم، وكأن عدل الضعيف ينفعـه إذا عـدل، أو كأن القوي يخلق نفسه لنفسـه، ولا يخلق قوياً لتفيد قوته فائدتها في خدمة المحتاجين إليها.

فعمـر ذو البأس والعـدل، وعمر ذو الرحمـة والغيرة، أصـدق تفنيداً لذلك الوهم الأخرق البليد. إذا كانت رحمته وعدله لا تناقضان البأس والغيرة فيه، بـل كان بأسـه معواناً لرحمتـه، وكانت غيرته معواناً لعدلـه، وكان هو قويـاً لينتفع الناس بقوته، ولم يكن قوياً ليطغى بقوته على الضعفاء.

ولمَ يكون لزاماً أن يقسو ذو البأس ولا يرحم؟

ألا يقسـو الضعيـف؟ فلمَ العجـب إذن من رحمة القوي؟ كل مـا هنـالك أن رحمـة الضعفاء غير رحمـة الأقوياء. فأما العقل الذي يرى الرحمة غريبة في الأقويـاء، ويرى القسـوة غريبة في الضعفاء، فهو يرى غـير الواقع من هؤلاء وهـؤلاء. إذ الواقع في الدنيا أن القسـوة لا تدل على القوة، وأن الرحمة لا تدل علـى الضعف، وأن ليس في الدنيا أقسى من الأطفـال، وهم أضعف من فيها من الضعفاء.

وبغير إمعان طويل في دقائـق النفس الإنسانية استطاعت امرأة محزونة أن تفـرّق بـين الخصلتـين وتجمـع بينهما معـاً في عمر بن الخطـاب، ونعني عاتكة بنت زيد حين قالت في رثائه:

رؤوف على الأدنى غليظ على العدى ... أخـي ثقة في النائبات منيب

وهـي تفرقة سهلة، ولكنها صادقة جامعة، فغـير عجيب أن يكون إنسان كذلك، وإنما هو أوفق شيء لطبائع الأشياء.

مفتاح شخصيته

مفتـاح الشخصية هـو الأداة الصغيرة التـي تفتح لنا أبوابهـا، وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها، وهو كمفتاح البيت في كثير من المشابه والأغراض، فيكـون البيت كالحصـن المغلق ما لم تكن معك هـذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب، فإذا عالجته بها فلا حصن ولا إغلاق!

وليس مفتـاح البيت وصفاً له ولا تمثيلاً لشكلـه واتساعه، وكذلك مفتاح الشخصيـة ليس بوصف لها ولا بتمثيـل لخصائصها ومزاياهـا، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دخائلها ولا تزيد.

ولـكل شخصية إنسانية مفتاح يسهل الوصـول إليه أو يصعب على حسب اختـلاف الشخصيـات. وهنا أيضاً مقاربـة في الشكل والغرض من مفاتيح البيـوت. فـربَّ بيت شامخ عليه بـاب مكين يعالجه مفتاح صغـير، وربَّ بيت ضئيل عليه باب مزعزع يحار فيه كل مفتاح.

فليسـت السهولـة والصعوبة هنا معلقتـين بالكبر والصغـر، ولا بالحُسن والدمامـة، ولا بالفضيلـة والنقيصة، فـربَّ شخصية عظيمـة سهلة المفتاح، وربَّ شخصية هزيلة ومفتاحها خفي أو عسير.

وقد يحيّرنا الرجل الذي قيل في وصفه مثل ما قيل في ابن عباد:

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت   يداه بالجود حتى شابه الديما[1]
فإنها خطرات من وساوسه   يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً

فإننا لا نستطيع أن ننفذ منه إلى مواضع اللوم أو مواضع الثناء، ولا ندري حقاً أَعَمِلَه من الكرم أم من البخل، ومن الرفعة أم من الخِسّة، ومن الشجاعة المحمودة أم من الجبن المذموم؟ وغاية ما ننتهي إليه أن نفض المشكلة بكلمة واحدة هي الوسواس، وهي حيلة تلجئنا إليها قلة الحيلة، لأن تفسير الأعمال بالوسواس يفيدنا في تقدير صاحبها وتقدير أعماله وأخلاقه، ولكنه تفسير له معنى واحد في النهاية: وهو ترك التفسير.

قد تحيرنا هذه الشخصية المنقوصة ولا تحيرنا الشخصية الكاملة التي تروعنا بفضائلها ومزاياها، ثم لا نستغرب منها الفضيلة أو مزية بالقياس إلى انتظام عملها واتصال أثرها، كالشمس الطالعة تروعنا بإشراقها في أوقاتها وبروجها، ثم لا تحيرنا لمحة عين كما تحيرنا الذبالة الضئيلة تومض لحظة وتختفي من بعيد.

وفي اعتقادنا أن شخصية عمر من أقرب الشخصيات العظيمة مفتاحاً لمن يبحث عنه، فليس فيها باب معضل الفتح وإن اشتملت على أبواب ضخام.

وقد ذكرنا في الفصل السابق، أن إيمان عمر هو الضابط الذي يسيطر على أخلاقه وأفكاره، كما يسيطر على دوافعه وسوْراته، ولكن الذي نريده بمفتاح الشخصية شيء آخر غير معرفة الضابط الذي يسيطر عليها؛ نريد به السمة[2] التي تميزه بين العظماء حتى في الإيمان وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والسوْرات، فإن الإيمان ليقوى في نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس، وهنا نبحث عن «مفتاح الشخصية» لنعرف به الفارق بين الإيمان في طبيعة عمر وبين الإيمان في طبائع غيره من الأقوياء.

والذي نراه أن «طبيعة الجندي» في صفاتها المثلى هي أصدق مفتاح «للشخصية العمرية» في جملة ما يُؤثَر أو يروَى عن هذا الرجل العظيم.

1- الديم: جمع ديمة، وهي السحابة الممطرة.

2- السمة: العلامة والشارة المميزة.

فأهم الخصائص التي تتجمع «لطبيعة الجندي» في صفتها المثلى؛ الشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة على الشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والإيمان بالحق وحب الإنجاز في حدود التبعات أو المسؤوليات.

هذه الخصائص قد تجمعت بعد ألوف السنين من تجارب الأمم في تعبئة الجيوش حتى عرف الناس أخيراً أنها لازمة للجندي في أمثل حالاته. فما من خاصة منها يستغني عنها الجندي الكامل الذي تحلّى بأجمل صفاته وألزمها لتحقيق وجوده.

فانظر إلى هذه الخصائص جميعها؛ هل تجدك محتاجاً إلى التنقيب طويلاً عن واحدة منها إلى نفس عمر؟ هل تجدك محتاجاً إلى تعمُّل أو استقصاء لجمْع أشتاتها والاهتداء إلى شواهدها ومواقعها؟

كل هذه الخصائص عُمَرِيَة لا شك فيها. فهو الشجاع، الحازم الصريح، الخشن، المطيع، الغيور على الشرف، السريع النجدة، المحب للنظام، المؤمن بالواجب والحق، الموكَّل بالإنجاز، العارف بالتبعات والمسؤوليات.

هذه الخصائص واضحة كلها في عمر، وعمر وحده واضح بين أمثاله في جميع هذه الخصائص، حتى ليخيّل إلينا لو أن أحداً مولعاً بتأليف الألغاز سأل عن عظيم في الإسلام والعروبة متصف بجميع هذه الخصائص على أصدق وأبرز حالاتها، لكان الجواب الواحد عن سؤاله اسم عمر بن الخطاب.

وقد يكون العجب من توافر هذه الخصائص في تفريعاتها الثانوية وأشكالها العارضة أبلغ وأدل على العمق والتأصل من توافر الخصائص الجليلة التي هي بمثابة الأصول الجامعة في طبائع الجنود.

فالنظام مثلاً، ليس بالخلق الأصيل في الجندي الباسل، فقد ينساق إليه بطبعه وقد يحتاج إلى تعوّده وإدمانه حتى يكسبه بطول المرانة.

لكن النظام كان خلقاً أصيلاً في طبيعة عمر حتى فيما يتفرع عليه ويدخل منه في عدد الأشكال والنوافل[1].

أرأيته وهو يصلي بالناس فلا يكبّر حتى يسوي الصفوف ويوكّل رجلاً

1- النوافل: جمع نافلة، وهي الزيادة

بذلك؟ أرأيته وهو يرى الناس يجتمعون بالمسجد في شهر رمضان أوزاعاً متفرقين حول كل قارئ، فيأمرهم أن يجتمعوا إلى قارئ واحد؟ أرأيته وهو يركب في السوق، فيكسر ما برز من الدكاكين ويخفق التجار بالدِّرَّة إذا تكوّفوا[1] على الطعام، وقطعوا طريق السابلة؟ أرأيته وهو لا يزال يأمر بالمثاعب[2] والكنف[3] أن تقطع عن طريق المسلمين؟ أرأيته وهو ينهى الولاة عن الاتكاء في مجالس الحكم، ويكتب إلى عمرو بن العاص «وقع إليّ أنك تتكئ في مجلسك، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكئ».

بل أرأيته وهو يرعى المراتب فينزل درجة من سلالم المنبر بعد أبي بكر لأن الخليفة الأول أحقّ منه بالتقديم؟

ذلك هو السمت العسكري بالفطرة التي فُطر عليها، وليس هو السمت العسكري بالأسوة والتعليم. وبالفطرة التي فطر عليها كان يحب ما يحسن بالجندي في بدنه وطعامه، ويكره ما ليس بالمستحسن فيه، فكان يقول: «إياكم والسمنة فإنها عقلة»[4]، وكان يقول: «إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية إلى السقم، وعليكم بالقصد في قوتكم، فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة». وكان يأمر بالجدّ ويحذّر من المهازل لأن «من كثر ضحكه قلّت هيبته، ومن كثر سقطه[5] قل ورعه». وكان يمشي «شديد الوطء على الأرض جهوري الصوت»، كما يمشي الجنود وكما يتكلمون، وكان يأمر بتعلّم الرماية والسباحة والفروسية والمصارعة وكل رياضة يتدرب عليها الجندي وتتهذب بها الأبدان والأخلاق.

وإذا ارتقينا من هذا إلى النظام الأشمل والتقسيم الأعم الأكمل، فهناك عمر بن الخطاب الذي دون الدواوين وأحصى كل نفس في الدولة الإسلامية كأدق

1- تكوّفوا على الطعام: اجتمعوا عليه.

2- المثاعب: مسايل الماء.

3- الكنف: جمع كنيف، وهو الحظيرة من الخشب أو الشجر تتخذ للإبل والغنم لتقيها الحر والبرد.

4- العقلة: القيد والعقال.

5- السقط: الخطأ من القول والفعل.

إحصــاء وعــاه الموكّلون بـالتجنيد في العالم الحديث. فما مــن رجل أو أرملة أو طفـل إلا عرف اسمه وعرف مكانه، وعُرفت حصته من بيت مـال المسلمين. ومـا من مجاهد إلا عُرفت لـه رتبته من السبق والتقديم على حسب المراتب التي يمتـاز بهــا الجنــود، فـالحاضــرون في «الحديبية» يـأتــون بعدهم في التقــديم، والذين اشتركـوا في حرب الــردة يـأتون بعد هؤلاء وهؤلاء، والذيــن حـاربوا في معـارك الــروم والفرس ومعهــم أبنـاء الغزاة في بدر يلحقون بمراتــب هؤلاء المتقدمين، وقس على ذلك مـا يليه من سائر المراتب في حقوق التقديم والتقسيم.

ثــم هنــاك عمر بن الخطاب؛ الذي عشّر الجنــود، أي جعلهم عشرات عشرات، ثم قسمهم إلى كتائب وبنود.

وهنـاك عمر بن الخطاب؛ الذي لم يدبر قط تدبيراً كبيراً أو صغيراً في شؤون الدولة إلا بنظام لا يختل أو على أساس لا يحيد.

وقــد كانت لـه طريقة الجند في التصريف السريـع الذي ينفذ إلى الغرض من أقــرب طريق، فلمــا تشاور المسلمون مـــاذا يصنعون بسهيل بــن عمرو، خطيب المشركين يومئذ، وأقدر الخـائضين منهم في الإسلام، قـال عمر بن الخطاب: «يـا رســول اللــه! انزع ثنيتيه[1] السفليين فلا يقوم عليــك خطيباً أبداً». وكـان سهيل أعلم – أي مشقوق الشفة السفلى – فـإذا نزعت ثنيتـاه فقد عجز عن الخطابة من غير مـا حـاجة إلى عهد أو تحذير أو شغل شاغل بـإسكاته والرد عليه.

●●●

والقضــاء لم يكن من لــوازم «الطبيعة الجندية» وإن تولاه القـادة والجند في أيـام الفتن والأيام التي تقـام فيها الدول النـاشئة والنظم الجديدة.

ولكن، كم من قضية لعمر بن الخطاب تذكّرنـا بـالقضاء العسكري الذي يمنـع الضرر من أقرب الطرق ويحمي الأكثرين بـالحد من حقوق الأقلين؟

هتفــت امرأة بـاسم نصر بن حجـاج، وتمنت أن تشرب الخمر وتلقـاه، فـأرسل إليه فـإذا هو أحسن النـاس شعراً وأصبحهم وجهاً. فـأمره أن يجم[2] شعره، فظهر جبينــه ووجنتـاه فـازداد حسناً، ثم أمــره أن يعتمّ فزادته العمـامة زينة وغواية،

1– الثنية: من الأسنان، وجمعها ثنايا وثنيات، وفي الفم أربع.

2– يجم شعره: يقصِّره.

فقال: لا يسكن معي رجل تهتف به العواتق[1] في خدورها، وزوّده بمال وأرسله إلى البصرة ليعمل في تجارة تشغله عن النساء، وتشغل النساء عنه.

وفي القضية جوْر على نصر بن حجاج لا جدال فيه، ولكن في سبيل مصلحة أكبر وأبقى، أو في سبيل مصلحة يرعاها «الحكم العسكري» في أزمنة كزمان عمر، ويقضَى فيها بما هو أعجب من إقصاء نصر بن حجاج، يرعاها أحيانا بمنع الإقامة بمكان، ومنع المرور من طريق، وتحريم تجارة لا حرام فيها، ومراقبة إنسان يُخشَى أن يقود إلى جريمة، وتقييد السهر بعد موعد من الليل.

ولسنا نقول: إن هذا الحكم في قضية نصر بن حجاج كان حكماً لزاماً لا محيص عنه ولا مأخذ عليه، ولكنّا نقول: إنه حكم فيه تلك الصبغة العمرية التي سميناها «مفتاح شخصيته» وهي المقصودة بما نكتبه الآن.

وقد كان له في قضائه ذلك الحزم الذي يقطع اللجاجة[2]، وينهض بالحجة على كل ذي خلاف كلما اشتجر[3] الخلاف: كتب إليه أبو عبيدة من دمشق أن عمرو بن معد يكرب وأبا جندل وضراراً وجماعة من علية القوم والوجوه شربوا الخمر وسئلوا فأجابوا «إننا خيّرنا فاخترنا». قال: «هل أنتم منتهون» ولم يعزم[4]». وكأن أبا عبيدة تحرّج من عقاب هؤلاء العلية، فرفع أمرهم إلى الخليفة يستفتيه، فلم يلبث البريد أن بلغ المدينة حتى عاد إليه يأمره أن يدعوهم على رؤوس الأشهاد، ويسألهم سؤالاً لا يزيد ولا ينقص منه: أحلال الخمر أم حرام؟ فإن قالوا حرام فليجلدهم، وإن قالوا حلال فليضرب أعناقهم. فقالوا: بل حرام، فجُلِدوا وتابوا.

•••

وربما تجمّع للرجل كل ما في «طبيعة الجندي» من الخصائص، وبقيت محبوسة فيه لا يدري بها الناس إلا أن يأتي بعمل ينم عليها، فيدين نفسه

1- العواتق: جمع عاتق وهي الشابة الصغيرة.

2- اللجاجة: تمادي الخصمين.

3- اشتجر: تنازعوا.

4- لم يعزم: لم يحدد حكماً قاطعاً. وعزيمة الله، فريضته التي افترضها.

بطبيعته تلك ولا يدين غيره، ويكون مطبوعاً على أن يطبع ولا يكون مطبوعاً على أن يُطاع، وإذا جاءته طاعة المطيعين له، فإنما تجيئه من سلطان النظام وحكم الشرع وغلبة العادات، لأن الشجاعة مثلاً لا تلازم الهيبة في كل حال، فقد يكون الشجاع مهيباً، ويكون غير مهيب أحياناً ممن تقتحمهم الأنظار ويجترئ عليهم المستخفون.

أما عمر بن الخطاب فقد كانت له «طبيعة الجندي» ظاهرة وباطنة، تبادر القلوب كما تبادر الأنظار، وتلازمه كأنها عضو من أعضائه، فما يجترئ عليه مجترئ إلا أن يطمعه هو، ويسهو عن نفسه لحظة ليغريه بالاجتراء.

وهي في موقف الأمر تخيف مَن لا يخاف ويجفل منها من يحتمي بجاه أو كبرياء. شكا إليه رجل من بني مخزوم أبا سفيان لظلمه إياه في حد كان بينهما، فدعا بأبي سفيان والمخزومي، وذهبوا إلى المكان الذي تنازعاه، ونظر عمر فعرف صدق الشكوى، ونادى بأبي سفيان: خذ يا أبا سفيان هذا الحجر من هنا فضعه هنا. فأبى وتردد، فعلاه بالدِّرة وهو يقول: خذه فضعه ها هنا، فإنك ما عملت قديم الظلم، فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعه حيث قال، ولو غيّر عمر أمره هذا الأمر لاستكبر أن يطيع أو شنها عليه شعواء لا تؤمن جريرتها.

كان يوماً[1] في مجلس عمر وزياد ابن سمية[2] يتكلم، وهو يومئذ شاب، فأحسن كعادته في مجال الخطابة والمشورة، فأعجب به عمر وهتف به: لله هذا الغلام! لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه.

وكان علي بن أبي طالب إلى جانب أبي سفيان، فمال إليه هذا وهمس في أذنه كلاماً فحواه؛ أنه يعرف من أبو ذلك الغلام من قريش. قال علي: فمن؟ قال: أنا. قال فما يمنعك من استلحاقه؟ فهمس له: أخاف هذا الجالس أن يخرق عليّ إهابي![3].

1- أي أبو سفيان.

2- اشتهر باسم «زياد بن أبيه» ولم يكن معروف الأب، وفي عهد معاوية، شهد ناس من المسلمين أنه ابن أبي سفيان فاستلحقه معاوية «أي اعترف به أخاً له» وولاه البصرة. اشتهر بالذكاء وسعة الحيلة والخطابة.

3- الإهاب: الجِلد.

وخليـق بمثـل هذا الرجل ألا يكـون له شعار غير شعـار الجند حيث كانوا: الأمر هو الأمر، والطاعة هي الطاعة.

وخليـق بالنـاس أن يفهموا عنه بغير بيان، لا سيما إذا فهموا قبل ذلك أنه متى وجبت الطاعة، كان هو أول من يطيع. ذلك هو الجندي المطبوع.

جنـدي من جنود اللـه في معترك الحـق والإيمان. وإذا استوفينا المثل إلى أقصـاه، فالقانـون المطاع هو القـرآن، والقائد الأعلى هـو النبي الذي يوحَى إليه، وليس أحد بعد ذلك أكبر من أن يطيع. يأمر اللـه فالطاعة واجب لا هوادة فيه.

ويأمر القائد الأعلى فقد يراجعه مَن دونه ويرتفعان معاً إلى القانون، لأن الطاعـة لا تمنع المراجعة والمشاورة، ولكنها تمنع التمرد على القائد الأعلى، وإنـكار سلطانـه حيثمـا استقر على قرار، فـإن رجع القائد عـن أمره فحسن، والمراجعـة إذن خـير لا ضرر فيـه، وإذا مضى في أمره فلا خـلاف إذن فيما يجب: فالذي يجب إذن واحد، وهو أن يطاع.

كذلـك راجع عمـر النبي في مسائل شتى، فأخذ النبي برأيه في بعض هذه المسائل وخالفه في بعضها، فلم تكن طاعته فيما خولف فيه أقل ولا أضعف مما ووفق عليه.

وكذلـك راجع الخليفة أبـا بكر في كبريات المسائـل وصغارها، فكان أبو بكر يثوب[1] إلى رأيه كثيراً، ويصر على ما بدا له إذا رأى الحسنى في الإصرار، فيطيع عمر أمره بعد ذلك كأنه لم يكن خلاف.

وإذا امتنعـت المراجعـة فليس الرجل عند ذلك بواهن عـن احتمال التبعة، وتصريف الرأي، والاضطلاع بأعباء الموقف كيف كان.

اشتـد المرض بالنبي عليـه السلام، فقال: ائتوني بكتـاب أكتب لكم كتاباً لا تضلـوا بعده. قال عمر: إن النبـي صلى **الله** عليه وسلم غلبه الوجع، وعندنا كتاب اللـه حسبُنا.

عندنا كتاب اللـه حسبُنا.

1- يثوب إلى رأيه: يرجع إليه ويأخذ به.

عندنا القانون الأعلى.

أمـا القائد فهو في مرضه بحال لا تستحب معها المراجعة، وهو مع ذلك لم يصر على أمره ولم يعاود طلب الورق للكتابة، وإنما قال حين كثر اللغط بين الصحابة: قوموا عني. ولا ينبغي عندي التنازع، ثم عاش عليه السلام أياماً، ولم يذكر الكتاب.

فالرجل يطيع إذا استقام الأمر واستقرت التبعة. وكان يراجع إذا اتسع مجال المراجعة. فإذا لم يكن هذا ولا ذاك فهو ضليع بالتبعة التي توجبها عليه نفسه، وقمين أن يذهب إليها ولا ينكل عنها.

وتلك سنة جرى عليها عمر عن علم وقصد، ولم يجر عليها عن بداهة وإلهام وكفى، وأشار إليها في كلامه غير مرة، فقال في خطبة من خطبه ما فحواه: «كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنت عبده وخادمه وجلوازه[1]، وكان كما قال الله تعالى: «بالمؤمنين رؤوف رحيم»، وكنت بين يديه كالسيف المسلول، إلا أن يغمدني أو ينهاني عن أمر فأكف عنه، وإلا أقدمت على الناس لما كان أمره..».

فهو جلواز النبي وسيفه المسلول كما وصف نفسه.

وهو على أقوم مثال للجندي الفاضل العليم بموقع الطاعة، وموقع المراجعة، وموقع المشاورة، وهو مع التبعة حيث لا مهرب منها، وتلك هي الجندية في صورتها المثلى.

وما نحسبه كان يراجع ويشاور إلا لغرض واحد، وهو الوصول إلى الأمر الذي يحمل التبعة فيه.

فإذا أعفَى نفسه من التبعة بمراجعة رؤسائه، وأعفى نفسه من التبعة بمشاورة مرؤوسيه، فقد عرف كيف ينبغي أن يطيع، وعرف كيف ينبغي أن يطاع، وعرف ما يتوق كل جندي أن يعرفه حين يؤمر وحين يأمر، وهو توضيح ما يُطلب منه وما يطلب من غيره، وتقرير مكان التبعات حين تقسم التبعات.

ولقد كانت له مخالفات ليست من قبيل المراجعة ولا المشاورة التي تعمل

1- الجلواز: الشرطي.

فيها الرويّة عملها، أو تختلف مذاهب الآراء فيها.

كانت هذه أيضاً من مخالفات «الجندي» التي يندفع إليها كلما غلبته الحماسة وثارت به الحمية.

فلما كان يوم أُحد جاء أبو سفيان ينادي على مسْمع من المسلمين: أفيكم محمد؟ فقال رسول الله : لا تجيبوه، فعاد ينادي مرتين: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه!

فسأل ثلاثاً : أفيكم ابن أبي قحافة[1] فسكتوا.

ثم سأل أفيكم ابن الخطاب؟ وكررها ثلاثاً. فلمّا لم يسمع جواباً قال لقومه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم![2].

كثير على عمر أن يحتوي صبره في هذا الموقف أكثر مما احتواه. فما قالها أبو سفيان حتى صاح من مكانه: «كفرت يا عدو الله، ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر وأنا أحياء! ولك منا يوم سوء!».

هذه مخالفة لا مراجعة فيها ولا مشاورة. لكنها من مخالفات الجند، ولهم ولا شك مخالفات كما لهم طاعات.

•••

نعم كانت له مخالفاتهم وطاعاتهم، وكانت له كذلك فكاهاتهم وأهواؤهم التي هي أخص من سائر الفكاهات والأهواء.

فكانت تعجبه الفكاهة التي توحي إليه معنًى مضحكاً فيه صراحة وخشونة، ومنها الفكاهة التي نسميها اليوم: بـ «النكات العملية».

فرغ رسول الله يوماً من بيعة الرجال وأخذ في بيعة النساء، فاجتمع إليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة متنقبة[3] متنكرة، لما كان من صنيعها بحمزة[4] رضي الله عنه، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بصنيعها. فلما

1- هو أبو بكر الصديق، رضي الله عنه.

2- حدث هذا بعد نهاية المعركة. وقد ظن أبو سفيان أنهم ماتوا في الموقعة.

3- أي تلبس النقاب وهو الحجاب.

4- هند: زوج أبي سفيان، وهي التي مثّلت بجثة حمزة بعد أن قُتل في أحد.

دنون منه ليبايعنه قال عليه السلام: تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً.

قالت هند: والله إنك لتأخذ أمراً ما تأخذه على الرجال، وسنؤتيكه.

قال: ولا تسرقن.

قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنّة[1] والهنّة وما أدري أكان ذلك حلالاً لي أم لا.

قال أبو سفيان وكان شاهداً: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل.

فقال رسول الله: وإنك لهند بنت عتبة!

قالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف، عفا الله عنك.

فمضى رسول الله في أخْذ البيعة، وعاد يقول: ولا تزنين.

قالت: يا رسول الله: هل تزني الحرة؟

قال: ولا تقتلن أولادكن!

قالت: قد ربيْناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم، فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب[2]، وكان قليل الإغراب في الضحك، فإن استغرب ضاحكاً بين حين وحين فإنما يُضحكه مثل هذه الفكاهة.

وعلى هذا النحو فكاهته مع خادمه أسلم وابنه عاصم: دخل عليهما وهما يغنيان غناء يشبه الحداء، فوقف يستمع ويستعيد. وشجعهما إصغاؤه واستعادته فسألاه: أينا أحسن صنعة؟ قال: مثلكما كمثل حماري العبادي. سئل: أيهما شر؟ فقال هذا ثم هذا!

ومن فكاهته القوية؛ تلك المزحة المرعبة التي أطار بها لب الحطيئة ليكف عن هجاء الناس، فدعا بكرسي وجلس عليه، ودعا بالحطيئة فأجلسه بين يديه، ودعا بأشفي[3] أي مثقب، وشفرة، يوهمه أنه سيقطع لسانه، فضجّ الحطيئة وتشفّع الحاضرون فيه، ولم يطلقه حتى أخذ عليه عهداً لا يهجوَنّ أحداً بعدها، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم. فما هجا بعدها وعمر بقيد الحياة.

1- الهنّة: مؤنثة الهن وهو الشيء.

2- استغرب في الضحك: بالغ فيه.

3- الأشفي : المثقب، والشفرة، والسكين العظيمة.

تلك أمثلة من فكاهته الخشنة التي تُعهد في طبيعة الجند، وهي فكاهة لا يطمع منه في غيرها.

وشاعت الجاهلية أن تورّطه في بعض أهوائها، فكان هواه منها معاقرة الخمر يحبها ويُكثِر منها. وقد نرى أنه هو قريب من مزاج الجند غير نادر فيهم، إذ الخمر توافق ما فيهم من سوْرة طبع، وتشغلهم عن الخطر أو تعينهم عليه، وتصاحبها في كثير من الأحيان ضجة يألفونها.

وقد أحب ضجّة الدفوف وهي في سياق هذا الهوى، وظل يحبها بعد إسلامه وخلافته، وإن كرهها في غير الأعراس. فسمع ضوضاء في دار فسأل: ما هذا؟ قيل له: عرس! فقال: هلا حركوا غرابيلهم؟ أي الدفوف!

على أنه كان يحب الغناء جملة، ويطيل الإصغاء إليه ما لم يشغله عن مهم من أمر دينه أو سياسته. فسُمِع صوت حاد وهم منطلقون إلى مكة في جوف الليل فما زال يوضع راحلته[1] حتى دخل بين القوم يسمع إلى مطلع الفجر، ثم قال للقوم: إيه! قد طلع الفجر. اذكروا الله.

●●●

فطبيعة الجندي في الفاروق تامة متكاملة بأصولها وفروعها. ويندر أن تتم طبيعة شاملة في رجل واحد إلا أن يكون كعمر في أصالة الطبع، وصراحته وخلوصه واتساقه، فلا يخذِل منه جزءٌ جزءاً، ولا تُقبِل منه وجهة حيث تُدبِر أخرى، وحينئذ لا عجب أن تتم له طبيعة واحدة بالغة ما بلغت من تعدد العناصر والألوان والشيات. كما أنه لا عجب أن يشبه الولد أباه، لأنه أصيل صريح النسب، بالغاً ما بلغ التعدد في مشابه الأخلاق والجوارح والأعمال.

ولهذه الطبيعة أثرها في أمور لا تمت إليها على ظاهرها. كأثرها في تحريم رق العربي، وفي إخلاء الجزيرة من غير العرب، فهي شنشنة الغيور على الحوزة، الموكل بحماية الذمار[2].

ولها أثرها في سياسته مع الأمم، حيث يأمر الجند بتصديق كلمة الشرف

1- يوضع راحلته: يحملها على السير السريع.

2- الذمار: ما يلزمك حمايته وحفظه والدفاع عنه، والحرم والأهل والحوزة.

والـبر بـالوعـد ولو كـان إشارة بـاليد أو نبْأة مـن صوت. فقد أوجب على قـادته وجنـوده إذا نزلوا بـلاد الأعـاجم، فبدرت منهم إشارة أو نبـأ يحسبونـهـا عهداً أن ينجـزوا هـذا العهد ولا ينكصوا فيـه، ولو أتيح لهـم أن يتعللوا بجهل اللغة وغرابة العادات والمصطلحات.

وإنـك علـى الجملة لا تعرض عملاً مـن أعمال الفـاروق العامة والخاصة على هذه الطبيعة، إلا وجدت له قراراً فيها ووجدت عليه صبغة منها.

فهي لا ريب أقرب مفتاح لهذه الشخصية العظيمة، وبها تتميز خصائصه التي لا يشترك فيها أناس مطبوعون على غيرها، وإن كانوا عظماء أقوياء.

وقد أسلفنا الإشارة إلى الإيمان القوي، وقلنا إنه ضابط لأخلاقه وسوْراته، وليس بمفتاح يكشفها ويفتح مغالقها، لأن الإيمـان القوي نفسه يحتاج في فهمـه وتمييـزه إلى المفتاح الـذي يفرّق بين ضـروب الإيمان عنـد الأقوياء، وليست القوة كلها كما لا يخفى معدناً واحداً في البواعث والمظاهر والآثار.

وهكـذا كان إيمان عمر في سلـوك دنياه وسلوك دينه: كان إيمان الطبيعة الجندية في حالتها المُثلى.

ففي سلوك دنياه كان يعيش أبداً عيشة المجاهد في الميدان. فآثر الشظف وقنع منها بأقل ما يكفيه ولا غنى عنه.

وفي سلوك دينه كان موقفه بين يدي اللـه أبداً كموقف الجندي الذي يعلم أن لا يلقى مولاه إلا ليؤدي الحساب على الكثير والقليل، فإن تجئه المسامحة جاءت عفواً لا ينسيه تحضير الحساب.

وكان معتمـداً علـى الغيب، موَصّـلاً بالقدر يركن إليه كأنـه يراه بعينيه، ومـن دأب كل طبيعـة تستحضر المـوت أن تنظر إلى الغيـب وتستطلع طلعه[1] وتنتظر منه الحماية والهداية.

فاشتهـر عن كثير من كبار القـادة؛ أنهم يؤمنون لهم بنجم سعد يلحظهم، أو بغايـة أجـل لا يعجلون عنهـا، أو إلهام يهديهم إلى النجـاة ويرون أماراته وعلاماته في الرؤى والهواتف وكلمات الفأل والبشارة.

وكان عمر يتفاءل بالأسماء وينظر في الرؤى والمنامات، ويروى عنه في

1- يقال: فلان أطلعني على الأمر، أو أطلعني طلعه بكسر الطاء.

روايــات متواترة أنه أنبئ بموته في منام، وأنه رأى كأن ديكاً ينقره نقرتين، وفسروا له الديك برجل من العجم يطعنه طعنتين.

وروى محارب بن دثار عنه أنه سأل رجلاً: من أنت؟ فقال: قاضي دمشق. قــال: كيـف تقضي؟ قال: أقضــي بكتاب الله. فسألــه: وإذا جاءك ما ليس في كتــاب اللـه؟ فأجابــه: إذن بسنّة رسول اللـه، فسأله ثانية: وإذا جاءك ما ليس في سنــة رسـول اللـه؟ قــال: أجتهد برأيــي وأؤامر جلسائــي. فاستحسن قوله وأوصــاه إذا جلس للحكـم أن يدعو اللـه قائلاً:«إني أسالـك أن أفتي بعلم، وأن أقضي بحلم، وأسألك العدل في الغضب والرضا».

ثــم رجع القاضــي بعد فـترة فسأله عمر: مــا أرجعك! قال: رأيـت الشمس والقمـر يقتتــلان، مع كل واحـد منهما جنود مــن الكواكب. فسألــه: مع أيهما كنت!

فقال: مع القمر!

فتأمــل قليلاً ثم ذكر قوله تعــالى: «وجعلنا اليل والنهــار ءايتين فمحونا ءاية اليل وجعلنا ءاية النهار مبصرة» ثم قال: لا تلي لي عملاً[1].

هــذه رواية من روايــات كثيرة عن المنامات ونظرة فيها، لا ندري مبلغها مــن الصحة في تفصيلاتها، ولكنها كلها تدل على الغرض الذي قصدنا إليه، وهــو استهداء الغيب من طريق الرؤى والعلامات، إلى جانب الإيمان القوي لا يسهو عن عالم الغيب طرفة عين.

ومــن الحق أن نضيف هنا استــدراكاً آخر، لعله أدعى إلى البحث من القول في الجهاد والإيمان، وذلك أن العدل لا يناقض طبيعة الجند عامة، وأن طبيعة الجند لا تستلزم العدوان في كل محارب، ولا سيما المحارب نضحاً[2] عن دين ووفقاً لشريعة.

فالعـدل يفتقر إلى شجاعة وشرف، وهما خصلتان مطلوبتان في الجندى المطبــوع، فأما الشجاعة في الرجل العادل فتحميــه أن يحابي الأقوياء وهو جــبن، وأما الشرف فيحميــه أن يجور على الضعيف وهــو خسة، ولا تناقض

1- لا تلي: لا هنا نافية وليست ناهية، فالفعل بعدها مرفوع.

2- نضحاً: دفاعاً.

بين هذه الخصال.

إنما المحارب المعتدي هو الذي «يحارب لحسابه» كما يقولون، أو يحارب لنفسه مرضاة لطمعه، وذهاباً مع نزواته، ومن هذا الطراز الإسكندر وتيمور ونابليون.

أما المحارب الذي تقيّده إرادة غير إرادته، ويحكمه قانون غير هواه، فالحرب من مثله واجب يُلام على تركه وليست بجريمة يُلام على اقترافها.

وقد يرى هؤلاء أن أشرف الجهاد جهاد النفس والهوى قبل جهاد الخصوم والأقران، كما رأى عمر بن الخطاب.

ومصداق ذلك ظاهر في كل قائد تدعوه إلى الحرب إرادة إله أو إرادة أمة، أو إرادة ضمير له قانون. فطبيعة الجندي في هؤلاء لا تناقض العدل إلا كما تناقضه طبيعة الفيلسوف أو طبيعة الفن أو طبيعة التصرف في شؤون المعاش، ولا تناقض بينه وبين واحدة منها، أو هي جميعاً في هذه الخصلة سواء.

هؤلاء لا يحاربون إلا مكرهين، وإذا حاربوا لم يحاربوا لبغي ولا لتنكيل ولو كان في ميدان القتال، وسُنّتهم هي سُنة عمر حين حذّر المجاهدين أن يعتدوا لأن الله لا يحب المعتدين ثم قال: «لا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور[1]، ولا تقتلوا هرِماً ولا امرأة ولا وليداً، ونزِّهوا الجهاد عن عرض الدنيا، وأبشروا بالإرباح[2] في البيع الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم».

وذلك هو الجندي في حالته المُثلى.

وذلك هو المفتاح الصادق الذي لا نعلم مفتاحاً أصدق منه لخلائق هذا الجندي العادل الكريم.

1- الظهور: النصر.

2- الإرباح: الحصول على الربح.

إسلامه

يجـوز أن نبحـث عن سبب واحـد للعمل الذي يعمله الرجـل اليوم وينساه غـداً، أو يكرره كل يـوم ولا يلتفت إلى عقباه، أو يلتفـت إلى عقبـاه، ولا يتوقـع لهـا أثراً يغـيّر في مجرى حياته. فسبب واحد لعمل من هذه الأعمال كاف ولا حاجة بعده إلى استقصاء.

لكـن العمـل الذي تتحـول به حياة الإنسـان تحولاً حاسماً لـن يرجع إلى سبب واحد، ولن تستغني في تفسيره عن عدة أسباب، بعضها حديث وبعضها قـديم، ومنهـا الظاهر الطبع والخفي المستعصي، وقـد يجهل صاحبها بعض هذه الأسباب وينسى المهم منها ويتعلق بالهيّن القريب.

فالرجل الذي يغيّر موطنه أو معيشته أو زيّه، لا يفعل ذلك عفو الساعة، ولا تلبيـةً لاقتراح يوحي إليه في مجلس فراغ. وقـد يتوهّم هو أنه سمع الاقتراح فلبّـاه، وأنـه لم يكـن ليلبيه لـو لا ما سمع في تلـك اللحظـة العارضة، فهجر أهلـه وترك موطنه وغيّر صناعته مـن أجل كلمة. وإنك سائلـه ساعتئذ:«إنك قـد هجـرت أهلك وتركت موطنك وغـيّرت معيشتك، لأنك لبّيْـت اقتراحاً، فهل تعلـم لمَ لبَّيتَ الاقـتراح؟»، فإذا سألته ذلك السؤال رددتـه إلى نفسه، فعلم أن الأسبابَ الصحيحة وراء ذلك، وأنه لم يتحول لأنه سمع الاقتراح المزعوم. بل سمـع الاقتراح ولبّاه لأنـه كان قبل ذلك مستعداً للتحـول ماضياً في طريقه.

ولو سمعه مئة معه لم يكونوا مستعدين مثله لما عملوا به ولا التفتوا إليه.

وأيـن تغيير المعيشة والموطـن والزي من تغيير العقيـدة الدينية؟ إننا إذا استصغرنـا السبـب لواحد في تفسير تلك التغييرات فهو لا مراء أصغر من ذلك جداً في تفسير التحول الحاسم إلى دين جديد.

لأن الإنسـان إذا غيّر معيشته فإنما يغيّر صناعـة، وإذا غيّر موطنه فإنما يغـيّر بلـداً، وإذا غيّر زيّه فإنما يغـير سمتاً[1] يقوم على كسـاء، ولكنه إذا غيّر عقيدته الدينية فقد غيّر كونه واستبدل به كوناً آخر، وقد غيّر ماضيه وماضي أهلـه، وغـيّر حاضره وحاضـر أهله، وغيّر مصـيره في الدنيـا ومصيره بعد الموت، وغيّر آراءه ومقاييسه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس، ومنها مآلف وأواصر ومحاب ومكاره متوشّجات الأصول إلى ما وراء الآباء والجداد.

فسبب واحد لا يغيّر هذا كله دفعة واحدة.

ولابـد لتمـام هـذا التغيير مـن أسبـاب سابقة وأسبـاب مهيئـة، وأسباب موقوتة هي أظهر تلك الأسباب، وقد تكون أضعفها وأقلها تفسيراً لذلك الحدث العظيـم في العالم، وهـل يتغير الإنسان هكذا إلا وقد أحـاط بالعالم في نظره حدث عظيم؟

ونحن قد أشرنا فيما تقدم إلى ندم عمر لشكاية المرأتين اللتين عارضهما في الإسـلام، وإلى مـا كان لندمـه من كسْر حدته واستـلال ضغنه، وترويض عنـاده، والتقريب بينه وبـين الخشوع الديني والهدايـة الإسلامية. فهل نقف عند هذا الندم وكفى؟ وهل انتهينا به إلى حيث يستقر الوقوف؟

وممـا لا شك فيه أن عمـر كان مقترباً من الإسلام يـوم رثى لأم عبد اللـه بنـت حنتمة، وتركهـا تنطلق إلى الهجرة وهو يدعو لها بالسلامة. وكانت هي علـى صواب حين طمعت في إسلامه ورجالهـا يائسون منه. فقد سألها عامر بن ربيعة مستغرباً مستبعداً: كأنك قد طمعت في إسلام عمر؟ قالت: نعم. قال: إنه لا يُسلم حتى يُسلِم حمار الخطاب!

ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة، إذ ليس أسرع من المرأة أن تلمح جانب

1- السمت: الهيئة.

الرِّقة وجانب الغضب من قلب الرجل في خطفة عين. أليست حياتها كلها من قديم الزمن منوطة بذلك الغضب، كيف تتلطف في تحويله، وبتلك الرِّقة كيف تتلطف في ابتعاثها من مكمنها؟ وهل تحجبها عنها القوة وهي ما نفذت إلى نفس الرجل قط إلا من وراء القوة؟

فعمر كان مقترباً من الإسلام يوم رثى للمرأة المهاجرة، ودعا لها بصحبة الله، وكان على تمام الإسلام يوم رأى الدم على وجه أخته، ورأى زوجها منطرحاً لا يقوى على دفاع.

ولكنه كما قلنا سبب من أسباب، أو أنه هو السبب العارض الذي يومئ[1] إلى السبب العميق: سبب عارض هو الأسف لشكاية الضعيف، وسبب عميق هو الرحمة التي تجمل بذي نخوة كريم. وليس الإنسان كله ندماً ورحمة، وإن طال ندمه وطالت رحمته. فليس كل ما احتوى رحمته بمحتويه إلى زمن طويل.

وقد تعددت الروايات في إسلام عمر، واختلف بعض هذه الروايات في اللفظ واتفق في المغزى، وجعل أناس ينظرون فيها كأنما الصحيح منها لا يكون إلا رواية واحدة وسائرها باطل لا يشتمل على حقيقة. فلمَ لا تكون صحاحاً كلها؟ ولمَ لا تكون أسباباً متعددات في أوقات مختلفات؟ فمن المستطاع المعقول أن نسقط منها قليلاً من الحشو هنا ثم نخلص منها إلى جملة أسباب لا تعارُض بينها في الجواهر، وقد يعزز بعضها بعضاً في نسق السيرة وفي لباب النتيجة.

روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال:«كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش، فخرجت أريد جلسائي أولئك فلم أجد منهم أحداً. فقلت: لو أنني جئت فلاناً الخمّار! وخرجت فجئته فلم أجده، قلت: لو أنني جئت الكعبة فطُفت بها سبعاً أو سبعين، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة؛ فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، وكان إذا صلّى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام، واتخذ مكانه بين الركنين: الركن الأسود والركن

1- يومئ: يشير.

اليمــاني. فقلــت حــين رأيته: والله لــو أني استمعــتُ لمحمدٍ الليلة حتــى أسمع مــا يقــول! وقام بنفسي أنني لو دنــوت أسمع منه لأُرَوِّعَنَّــه[1]. فجئت من قِبَل الحِجـر[2] فدخلت تحـت ثيابها ما بيني وبينــه إلا ثياب الكعبــة، فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام».

وروى ابــن إسحــق في سبب إسلامه، كمــا نقلنا عنــه في كتابنا «عبقرية محمــد» :«أن عمر خرج يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلــم ورهطاً مــن أصحابه، قد اجتمعــوا في بيت عند الصفــا وهم قريب من أربعــين بين رجال ونساء، ومع رسول اللــه صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بــن عبــد المطلب، وأبو بكر بــن أبي قحافة الصديق، وعلي بــن أبي طالب، في رجــال من المسلمين رضي الله عنهــم، فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريــد يا عمر؟ فقــال: أريد محمداً هــذا الصابئ[3] الذي فرّق أمــر قريش وسفّه أحلامهــا وعاب دينها وسبّ آلهتها فأقتله. فقال نعيم: والله لقد غرّتك نفسك يــا عمــر! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي علــى الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قال وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك[4] وابن عمك سعيد بن زيد ين عمر، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمد على دينه. فعليك بهما.

قال؛ فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خبّاب في مخدع لهم أو في بعض البيت. وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبّاب عليهما. فلما دخل قال: ما هذه الهينمــة[5] التــي سمعت! قالا له: ما سمعت شيئاً! قــال: بلى والله. لقد أُخبِرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أختَه فاطمة لتكُفّه عن زوجها، فضربها فشجّها. فلما فعل ذلك قالت له أخته: نعم،

1- لأُرَوِّعَنَّه: لأفزعنه.

2- الحِجر: بكسر الحاء حطيم مكة، مدار البيت من جهة الشمال.

3- الصابئ: الخارج من دين إلى دين.

4- ختنك: الختن: الصهر، زوج البنت أو الأخت.

5- الهينمة: الكلام الخفي غير الواضح.

قـد أسلمنا وآمنـا بـالله ورسوله، فـاصنع ما بدا لك. فلمـا رأى عمر ما بـأخته مـن الدم ندم على مـا صنع فـارعوى وقـال لأختـه: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكـم تقـرأون آنفاً أنظر مـا هذا الذي جاء به محمد. وقـرأ سورة طه، فلما قرأ منها صدراً قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليـه فقال له: يا عمـر، والله إني لأرجو أن يكون الله قـد خصّك بدعوة نبيه، فـإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيّد الإسلام بـأبي الحكم بن هشام أو بعمر بـن الخطـاب. فـالله الله يـا عمر! فقال له عند ذلك عمـر: دُلّني يا خباب على محمـد حتى آتيه فأُسْلـم. مقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر مـن أصحابـه. فـأخذ عمر سيفـه فتوشّحه، ثم عمد إلى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وأصحابـه، فضرب عليهم الباب، وقـام رجـل من أصحـاب رسول اللـه فنظـر من خلل[1] البـاب فرآه متوشحـاً بـالسيف، فرجـع إلى رسول الله وهـو فَزِع فقال: يا رسول اللـه! هذا عمـر بن الخطاب متوشحاً بـالسيف. فقـال حمـزة بن عبد المطلب: نـأذن له، فـإن كـان يريد خيراً بذلنـاه له، وإن كـان يريد شراً قتلنـاه بسيفه. فقـال رسول اللـه:ائذن لـه. ونـهض إليه حتى لقيَـه بـالحجرة فـأخـذ بـحُجُزتـه[2] أو بمجمع ردائه، ثم جبذه جبذة[3] شديدة، وقـال: مـا جاء بك يـا ابـن الخطاب؟ فوالله مـا أرى أن تنتهي حتـى ينزل الله بك قـارعة[4] فقال عمر: يـا رسول الله! جئتك لأومن بـالله وبرسوله وبمـا جاء من عند **الله**!».

هـاتـان الروايتان همـا أجمع الروايـات للأسباب«المباشرة» التي قرّبت بـين عمـر والإسلام، وتتفرع منهمـا روايات منوّعـة يزيد بعضها تـارة، أن عمـر قـد أوفد لقتل النبي من قِبَل قريش، ويزيـد بعضهـا تـارة أخرى آيات من القـرآن الكريم قرأهـا عمر في بيت أخته غير الآيات التي تقدمت الإشارة إليها في سـورة طـه. وأشبههـا بـالتصديـق أنه لما اطّلـع على الصحيفة، قـرأ فيها اسم«الرحمـن الرحيم» فذُعِر وألقـاها، ثم رجع إلى نفسه فتنـاولها وجعل كلما

1- الخلل: الفُرجة بين الشيئين.

2- بحُجُزته: الحُجُزة موضع شد الإزار من الوسط.

3- جبذ: جذب.

4- القارعة: الداهية.

مـر باسم من أسماء اللـه ذُعِر. فلـما بلــغ (ومـالكم لا تؤمنون بـالله والرسول يدعوكـم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) قـال: أشهد أن لا إله إلا اللـه، وأن محمداً رسول اللـه.

وهــذه علــى اختلافهــا روايــات متقاربــة يبــدو لنا أنهــا قصــة واحدة شُطِـرت شطرين، وزيدت عليهــا الحواشي والأطـراف، فاختلفت في ألفاظها ومواعيدهــا، واتفقـت في جوهرهــا ومدلولهــا، لأنهــا تمس نفـس عمر من الناحية التي هي أشبه أن تهديه إلى طريق جديد.

وهي كمـا أسلفنـا – تجمــع لنـا الأسباب«المباشرة» التي اقترنت بإسلام عمـر، ولا تغنينــا عــن الأسبــاب الأخــرى التــي هــي أســاس هــذه الأسباب ومرجعها، ولأجلها كـان خليقاً أن تـأخذه بلاغة القرآن، وأن تميل به الرحمة إلى الإيمـان.

فقـد كـان مهيأً للإســلام لا محـالة، وكانت مجافاتــه للإسلام خليقة أن تنتهــي بعد قليـل، وألا تطول إلا ريثمـا تعن المنـاسبــة للشهـادة باللسان بعد التهيؤ بـالفطرة والضمير.

فلــم يكــن بين عمر والإسلام في بداية الأمر إلا بـاب واحد للعداء. وكل مـا عــدا ذلك من الأبواب، فقد كـان مفتوحاً بينــه وبين هذا الدين الجديد، مـا هو إلا أن يراه بـالعين حتى يندفع فيه.

كـان بــاب العداء بينه وبين الإسلام؛ أنه رجل قويٌّ غيور عزيز في قومه. فــإذا رجل يخــرج عليهم فيفرّق – كمــا قـال – أمر قريش، ويسفّه أحلامها ويعيب دينـها ويسبّ آلهتـها، فلا جرم يثور ويغضب وينقم، ولا عجب أن يذود عــن ذماره ويرحض[1] المعـابة عن شرف آبـائه، ويرى أنـه غير عـادٍ ولا بـاغٍ، وأن البغــي والعــدوان إنمـا يجيئــان من قِبَل ذلك الرجل الخـــارج على قومه، حتى يتبين لـه الحق الذي يصدع بـه؛ أن الذي هو فيه هو البغي والعدوان.

ذلــك بـاب العداء الوحيد الذي كـان بين عمر والإسلام، وهو بـاب لا يطول مدخله في نفس طبعت على العدل والإنصـاف.

فمــا من سبب يصــل بين الجاهلي الشريــف وهذا الديــن الجديد إلا كـان

1– رحض الثوب: غسله ويرحض العابة عن شرف آبـائه: يزيلها.

موصّـلاً بنفس عمـر أوثق صلة، وما علمنـا من سبب للإسـلام إلا كانت له عقدة في نفس عمر وثيقة القرار.

فربمـا أسلم أناس لأنهم أخذوا ببلاغة القـرآن، وأسلم أناس كرهوا المنكر الـذي كان يشيـع في الجاهليـة، أو لأنهـم ورثـوا النزعـة الدينيـة والخلائـق المستقيمـة، أو لأنهـم جُبِلـوا علـى روحانيـة تصل بينهم وبين عـالم الغيب وحظـيرة الأسرار، أو لأنهـم قد عرضت لهم عارضة موقوتـة حرّكت ما فيهم من كوامن تلك الأسباب.

وكل أولئك كان عمر على استعداد له عظيم.

وكل أولئـك لم يكـن عمر فيه بالوسـط المكرر، بل كان فيـه العلم المترفّع المضيء بين الأعلام.

كان عمـر بليغـاً حسن النقـد للبلاغة، هواه منها الصـدق والطبع وجمال التفصيل، فكان يطرب لقول زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث: يمين أو نفار أو جلاء[1]

يقـول كلما أنشـده معجبـاً: مـا أحسـن مـا قسـم! وسـمّـاه شاعر الشعـراء لأنـه لا يعاظل[2] بـين القـوافي ولا يتبع حوشـي الكـلام.

وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يبرُق الفجر فيقول لجليسه: «الآن اقرأ يا عبد اللـه».

وجـاءه يومـاً بعض آل هرم بن سنـان؛ ممدوح زهير فقال عمـر: أما وإن زهـيراً كان يقول فيكم فيحسن، فقيـل له: كذلك كنا نعطيه فنجزل. فعاد عمر يقول: ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم.

وجاءه وفد من غطفان فسألهم مَن الذي يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء اللـه للمرء مذهب

قالوا: نابغة بني ذبيان. فسألهم: ومن الذي يقول:

1- يريد الشاعر أن مقاطع الحقوق ثلاثة، يمين أو حكومة أو بيّنة.

2- يعاظل: عاظل بالكلام عقده وصعبه واستخدام غريبه.

أتيتك عارياً خلْقاً ثيابي على وجَل تظن بي الظنون[1]
فألفيْت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

قالوا: هو النابغة فقال: هو أشعر شعرائكم.

وطالما أُعجب بقول عبْدة بن الطبيب:

والمرء ساعٍ لأمر ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل

وينشده فيقول: على هذا بُنِيَت الدنيا!

وندر بين أئمة الدين من غاص في أدب قومه غوْصه، ووعى من أشعارهم وطُرَفهم مثل ما وعاه. قال الأصمعي :«ما قطع عمر أمراً إلا تَمَثّل فيه ببيت من الشعر». ونحن نرجع إلى الشعر الذي تمَثل به فنراه في أحسن موقع وأصدق شاهد، ونلمح من قليل أخباره في خلوته؛ أن الأدب كان جانباً من جوانبه التي ترق فيه حاشيته، ويأنس فيه إلى قلبه، ويرجع فيه إلى فطرته. جاء عبد الرحمن بن عوف إلى بابه فوجده مستلقياً على مَرْحَفة له وإحدى رجليه على الأخرى وهو ينشد بصوت عال:

وكيف ثوائي[2] بالمدينة بعدما قضى وطراً منها جميل بن معمر

فلما دخل عبد الرحمن وجلس قال له: يا أبا محمد: إنا إذا خلوْنا قلنا كما يقول الناس.

ولم يقصر إعجابه بالشعراء على الذين وافقوا المواعظ والسنن الدينية، بل نظر في فنهم وفاضل بينهم في بلاغتهم، ففضل امْرَأ القيس لأنه«سابقهم، خسف لهم عيْن الشعر فافتقر عن معانٍ عور أصح بصر»[3].

ونوادره مع الشعراء والرواة كثيرة تدل على شغفه بالبلاغة الصادقة، وحفظه لأجمل ما يحفظ بين أهل عصره، كما تدل على ذلك خُطبه ورسائله وشواهده وأمثاله.

1- الثوب الخلْق: البالي.

2- ثوائي: إقامتي.

3- خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معانٍ عور أصح بصر: استنبط عين الشعر وشق طريق المعالي وأتى بالشوارد الحسان. راجع باب«ثقافته».

وقـد يصح أنه نظـم الشعر أو لا يصح. فقد نُسِبت إليه أبيات، وأنكر هو أنه شاعر حيث يقول: لو نظمت الشعر لقُلته في رثاء أَخي. ولكن الصحيح أنه كان يحـب الشعـر البليغ ويرويــه ويوصي بروايته، وأنه نشـأ في قوم يحبون مثل مــا أحـب، ويعجبون بمثل ما أعجبه، ومنهم أبوه الذي نظم الشعر في أكثر من مناسبة، ورُوِي عنه أنه قال لما توَعّده أبو عمرو بن أمية:

أيُــوعِدني أبـو عمرو ودونـي رجــال لا يـنــهنهها الـوعـيـد[1]
ربيــع المعدمين وكل جــارٍ إذا نـــزلـت بـهـم سنة كـؤود[2]
هم الرأس المقدم من قريـشٍ وعـنـد بـيـوتهم تلقى الـوفـود
فكيف أخاف أو أخشى عدواً ونـــصرهم إذا أدعــو عتيـــد
فلست بعادل عنهم سواهـم طوال الدهر ما اختلف الجديد[3]

إلى ما آخر ما نسب إليه.

فأقـرب شــيء إلى الواقع – وإلى المتوقع – أن يؤخـذ ببلاغة القرآن رجل نشـأ هـذه النشأة، وأحب الـكلام البليغ هذا الحب، وأن يخشـع لآياته ويعجب لتفصيله فيفتح من قلبه مسالك الإصغاء.

وكان عمـر مستقيـم الطبــع مفطوراً علــى الإنصاف، فلم يكـن رجل مثله ليستريــح إلى فســاد الجاهلية أو يخفــى عليه فسادها إذا نُبّــه إليه وهُدِي إلى ما هو خير منه.

وكانـت النزعــة الدينية وراثــة في أسرته على ما يظهر مـن مبادرة أخته فـاطمــة وابن عمــه سعيد بن زيد إلى الإسلام، وكان لــه قبل الإسلام رجل من عمومته يقدح في الوثنية، ويبحث عن الحق في النصرانية واليهودية، ويبتلي أهلــه بـالخلاف ويبتلونه بـالإيذاء والحبس والإرهـاق، ونعني به زيد بن عمرو بن نفيل.

وعمر نفسه، ألم يقل لنا إنه يئس ليلة من السمر ومن الخمر، فذهب يطوف بـالبيـت كأن طـواف البيت شهوة من شهوات قلبــه تنوب عنه مناب المحبوب مــن الشهوات! ألم يكــن فى الجاهلية ينذر أن يعتكف ليلــة من كل أسبوع؟ بل

1– لا ينهنهها الوعيد: أى لا يهابون التهديد.

2– سنة كؤود: شديدة مظلمة.

3– الجديد: الليل والنهار، يعني أنه لا يعدل بهم قوماً آخرين مهما تعاقب الزمان.

لعل صلابة الخطّاب أبيه لم تكن فى صميمها شيئاً مناقضاً لعنصر الدين والإيمان. فإن هؤلاء الصلاب الشداد في المحافظة على العُرف هم أولئك المتزمتون[1] الذين لا يطيقون المساس بعقائدهم إذا آمنوا بدين.

وزاد عمر على الوراثة الدينية؛ أنه كان صاحب فراسة وزكانة[2]، وكان يستطلع الرؤى والمنامات ويتصل بالغيب ويبصر على البعد، كما سلف في حديث سارية حين ناداه يا سارية الجبل! يا سارية الجبل. وبينهما مسيرة أيام.

وكانت العوارض تمر به، فتعطفه إلى الإسلام تارة من طريق الرحمة وتارة من طريق العدل والنخوة، فيخشع ويندم ويراجع عناده وكبرياءه. إذ ليس أبغض إلى الرجل الأبيّ المنصف من أن يحارب أناساً لا يحاربونه، ويلج في إيذاء قوم لا يقدرون على أذاه.

فإذا تفتحت هذه الأبواب جميعاً بين عمر والإسلام فباب واحد موصد لن يحجبه طويلاً عن هذا الدين، ولن يحجب هذا الدين طويلاً عنه.

وقد تفتحت في يوم من الأيام.

تفتحت كلها فدخلها دخول العاصفة من جميع الأبواب، وأسلم الجاهلي الشريف كما كان ينبغي أن يسلم، وكما كان يقيناً سيسلم في مناسبة من المناسبات.

فإذا العالم الإنساني قد تفتحت فيه صفحة جديدة:

صفحة يقرأ فيها القارئ قبل كل شيء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية مُنشئة من لدن المقادير التي تسيطر على هذا الوجود: كان قدرة تلابس الضعيف فيقوى، وتلابس القوي فتنمي قوته وتجري به في وجهته، وكان يداً خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة في التيه، فإذا هي صرح له أساس وأركان، وفيه مأوى للضمائر والأذهان. جاهليٌّ كسبه الإسلام فكسبه العالم الإنساني كله في آخر الزمان، ونفس ضائعة ردّت إلى صاحبها فعرف منها ما كان ينكر، واطّلع

1– المتزمت: الوقود المتشدد في دينه.

2– الزكانة: الفطنة والفراسة.

منها على ما كان يجهل، ونفع بها أمته وأمماً لا تحصى، وصنع بها الإسلام أعظم وأفخم ما تصنعه قدرة بناء وإنشاء، حيثما كانت قدرة بناء وإنشاء.

ونظرت الأمم فرات كيف تعلو النفس الإنسانية حتى يحار فيها الإنسان، وهو ريشة في مهب النوازع والأشجان[1].

رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامه ولا يروي ظمأه إلا ليعدل ويعرف الحق، وكأنه لا يصحو ولا ينام إلا ليعدل ويعرف الحق، وكأنه لا يتنفس الهواء إلا ليمتنع الظلم عن الناس وتدول دولة الباطل بين الناس، وكأنما العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم، وهو وحده أقوى في المطالبة بهما من ألف غريم.

لقد كان هذا الرجل المجيد يبغض أن يظلم غيره أشد من بغضه أن يظلمه غيره، وهذه منزلة في الأنفة لا تطاولها المنازل، لأنها منزلة الأبطال الذين يسمون على أنفسهم ولهم أنفس أسمى من عامة الأبطال.

وإننا لنعلم كم حزّ في قلبه الكريم أن يضرب بريئاً على دين الحق كلما رجعنا إلى أيامه الأولى بعد الإسلام، وهي أيام لا تُنسَى في تاريخ البطولة والأبطال.

فما شغله أمر بعد إعلان الدين إلا أن يخرج ليضربه أناس كما كان يضرب أناساً في سبيل ذلك الدين.

ثار إلى الناس يضربونه ويضربهم، فقام خاله يسأل: ما هذه الجماعة؟ قيل له إن ابن الخطاب قد صبأ، فقام على الحجر ينادي: ألا إنني قد أجرت[2] ابن أختي: فانكشف الناس عنه. فكان لا يزال يرى مسلماً يُضرَب ولا يضربه أحد، وثقُل عليه ألا يصيبه ما يصيب المسلمين، فذهب إلى خاله وقد اجتمع الناس في الحجر وناداه: اسمع! جوارك مردود عليك[3]. قال خاله وهو به وبما يستهدف له أدرى: لا تفعل يا ابن أختي. فأصر على رد جواره، وطاب

1- الأشجان «جمع شجن» والشجن: الهم والحزن والحاجة الشاغلة.

2- أجاره: أي أدخله في حِماه ورعايته وجواره.

3- أي: أعفني من حمايتك.

لـه بعـد ذلك أنه اقتص مـن نفسه للأبرياء الذين ضربهـم وهو يجهل دينهم، فـلا تمضي تلك الضربات بغير قصاص، وإن كفّر عنها بـالتوبة وإعزاز الدين الذي آذاهم من أجله.

وأبـى من اللحظـة الأولى إلا أن يواجـه الخطر الأكبر في سبيـل دين، وإلا أن يقبضـ على الثور مـن قرنيه كما يقول الغربيون في أمثالهم، وأن يتحدى قريشاً بحقه مذ آمن بأنهم على باطل. فسأل أناساً: أي أهل مكة أنقل للحديث؟ قيـل له جميل بن معمـر الجمحي. فذهب إليه فصرّح لـه بإسلامه! ولم يكذب الرجل الظن به، فما هو إلا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه إلى أندية قريش حـول الكعبة يصرخ بأعلى صوته على بـاب المسجد: يا معشر قريش ! ألا إن عمـر بن الخطاب قد صبأ. وعمر يقول من خلفه: كذب! ولكني أسلمت وشهدت أن لا إلـه إلا اللــه وأن محمداً عبده ورسوله، ثم نشبت المعركة بين هذا الرجل المفـرد وبينهـم فيثب علـى أدناهم منــه وأجرئِهم عليه – عتبـة بن ربيعة – فيصرعه ويبرك عليه فيضربه ويدخل إصبعيه في عينيه لأنهما عمياوان عن الحـق لا تبصران النـور! ويتكاثرون عليه فلا يدنو منهـم أحد«إلا أخذ شريف من دنا منه» حتى أحجموا عنه وركدت الشمس وفتر من طول الصراع، فجلس وهم قائمون على رأسه يثلبونه[1] وهو يقول لهم:«افعلوا ما بدا لكم. فواللـه لو كنــا ثلاثمئة رجل لتركتموها لنا أو تركناهـا لكم». وهذا ما أراد. فما يستريح وجدانــه الحي أن يضرب مسلماً لإسلامه، ولم يضرب كافراً لكفره، وما يشعر أنه وفّى للـه دينه وقد ضرب ولم يضرب وآذى أناساً ولم يؤذه أحد، وما تهدأ حاسة العدل فيه – وقد كانت كأنها من حواس بدنه – إلا أن يحس القصاص في نفسه كما أحس المضربون بالأمس عدوانه في أنفسهم.

وراح يسأل النبي: يا رسول اللـه ! ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا؟ فقال عليـه السلام: بلى والذي نفســي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم. قال: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن!

فمــا لبـث النبي أن خرج في صفـين أحدهما فيه عمـر والآخر فيه حمزة،

1– يثلبونه: يشتمونه ويعيرونه.

ولهما كديد[1] كأنه كديد الطحيني، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة فلا يجرؤ سليط[2] منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان.. وسماه النبي يومئذ الفاروق.

قال علي بن أبى طالب، رضي الله عنه:«ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكّب قوْسه وانتضى في يده أسهماً واختصر عنزته[3] ومضى قِبَل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف فى البيت سبعاً متمكناً، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف على الحِلق[4] واحدة واحدة.

يقول لهم: شاهت[5] الوجوه! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس[6]! من أراد أن يثكل أمه أو يُوتم ولده أو يرمّل زوجته[7] فليَلْقني وراء هذا الوادي».

لقد كان له في تحديه لقريش عدتان: شجاعته وعدله، فما كانت شجاعته في هذا التحدي بأظهر من عدله، ولا كان عدله فيها بأظهر من شجاعته. إذ الشجاع الحق مطبوع على الأنفة من الظلم، لأنه شديد الإحساس بذله، ومن كان شديد الإحساس بذل الظلم فهو شديد الإحساس بعزة العدل من طريق واحد. وقلما أغضب العادل الشجاع شيء كاستطالة الظالم وظنه أن المظلوم لا يستطيل عليه، فذلك هو التحدي الذي يثير الشجاعة ويثير النقمة على الظلم أو يثير حب العدل في وقت واحد، وإن الموت لأهون من الصبر على هذا التحدي المرذول وهذا الصلف القبيح. وما الشجاعة إن لم تكن هي الجرأة على الموت كلما وجب الاجتراء عليه؟ وأي امرئ أوْلى بالجرأة من الشجاع الذي يعلم أن الحق بين يديه؟ ألسنا على الحق إن حيينا وإن متنا؟ فعلى الحق

1- كديد: التراب الناعم.

2- السليط: البذيء اللسان.

3- العنزة: عصا لها زج كالرمح الصغير، واختصرها وضعها في حِصره.

4- الحلق: جمع حلقة والحلقة: القوم يجتمعون مستديرين.

5- شاهت الوجوه: قبحت.

6- المعاطس«جمع المعطس» والمعطس: الأنف.

7- أي يجعل أمه ثكلى، أو ولده يتيماً أو زوجته أرملة: يعني أن أقتله.

إذن فلنمت ولا نعيش على الباطل، فالباطل كريه والجبن كريه. وذانك ملتقى العدل والشجاعة في قلب العادل الشجاع.

ونهج عمر طريقه في الإسلام كما نهج طريقه إلى الإسلام: كلاهما طريق صراحة وقوة لا يطيق اللف والتنطع ولا يحفل بغير الجد الذي لا عبث فيه. فلا وهن ولا رياء، ولا حذلقة ولا ادعاء وما شئت بعد ذلك من إسلام صريح قويم فهو إسلام عمر بن الخطاب.

قال في بعض عظاته:«لا تنظروا إلى صيام أحد ولا إلى صلاته، ولكن انظروا مَن إذا حَدَّث صدق، وإذا ائتُمِن أدى، وإذا أشفى – أي هم بالمعصية– ورع».

وقال في هذا المعنى:«لا يعجبنكم من الرجل طنطنته، ولكن، من أدى الأمانة إلى من ائتمنه، وسلم الناس من يده ولسانه».

وقال في عمل الدنيا والآخرة:«ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا، أو عمل للدنيا وترك الآخرة، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه. وإنما الحرج في الرغبة فيما يجوز قدْر الحاجة وزاد على حد الكفاية».

ولم يكن أبغض إليه ممن يتوالى ليقال إنه متوكل على الله، أو يتراءى بالضعف ليقال إنه ناسك، أو يفرط[1] في العبادة ليقال إنه زاهد في الدنيا.

فكان يقول:«إن المتوكل الذي يلقي حبّة في الأرض ويتوكل على الله»،«ولا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني. وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض».

وكان يضرب من يتماوت ويستكين ليظهر التخشع في الدين، فنظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت فخفقه بالدّرة وقال:«لا تمت علينا ديننا أماتك الله»، وأشاروا له إلى رجل يصوم الدهر فضربه وهو يقول له: كل يا دهر! كل يا دهر! ينهاه عن الصوم الذي يعوقه عن معاشه ولا يوجبه عليه الدين».

وكان كلما رأى شاباً منكساً رأسه صاح به:«ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فإنما أظهر للناس نفاقاً إلى نفاق».

1- أفرط إفراطاً: أسرف وتجاوز الحد، بعكس التفريط.

وإنمـا كـان يعجبه«الشـاب النـاسـك نظيف الثوب طيـب الرائحة»، ويرى المسلمين بخير مـا علّموا أبنـاءهم الرمي والعـوْم والفروسية،«فأنتم بخير» كما قال: ما نزوتم[1] على ظهور الخيل».

ديـن الرجل القوي الشجاع الذي ينتصـر بدينه في ميدان الحياة، وليس بديـن الواهن المهزوم الذي تركتـه الدنيا فأوهم نفسه أنه هو تاركها ليقبل على الآخرة.

وكانـت شجاعتـه في دينه أنـدر الشجاعات في النفوس الآدمية، لأنها الشجاعـة التـي يواجـه بها تهمة الجـبن وهـو أرذل من الموت عنـد الرجل الشجـاع. فـإن كثيراً من النـاس ليعدلون عن الصـواب الذي يظهرهم بمظهر الخوف ليقال إنهم شجعان، وإنهم في عدولهم عنه لمن الجبنـاء المستبعدين للثنـاء، ولم يكن عمـر يعدل عن صواب فهمه ولو قيـل في شجاعته ما قيل، وتلك أشجع الشجاعات.

فشـا طاعـون عمواس وعمـر في طريقـه إلى الشـام، فلقيـه أبـو عبيدة وأصحابه عند تبوك وأخبروه خبر الطاعون، فاستشار المهاجرين والأنصار فاختلفوا بين ناصح بالمضي وناصح بالقفول: ناصح بالمضي في طريقه يقـول إنـه خرج لأمر ولا يـرى له أن يرجع عنه، وناصـح بالقفول يقول إنه اصطحب «بقية النـاس وأصحاب رسول اللـه ولا يرى أن يقدمهم على وبـاء»، ثـم دعا مشيخة قريش من مهاجـرة الفتح فلم يختلف عليه رجلان وأشاروا جميعـاً بالرجـوع. فقال أبو عبيـدة: أَفِراراً من قدر اللـه؟ قـال عمر: نعم نفرُّ مـن قـدر اللـه إلى قدر اللـه، أرأيت لو كان لك إبـل هبطت وادياً له عدوتان[2] إحداهمـا خصبـة والأخـرى جدبـة، أليس إن رعيـت الخصبـة رعيتها بقدر اللـه، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر اللـه؟ ومارام[3] مكانه حتى جاءه عبد الرحمن بن عوف، فحسم الخلاف برأي النبي في الخروج من أرض الطاعون

1- النزو: الوثوب.

2- العدو : المكان المرتفع.

3- رام: برح وترك.

والقدوم إليها حيث قال عليه السلام:«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

فكان إيمانه بصيراً لا يهجم به على عمياء، ولا يستسلم فيه استسلام العجزة وهو قادر على الحيطة والأخذ بالأسباب، وكانت نصيحته العامة للمسلمين في أمر الطاعون كرأيه الخاص في أمر نفسه وصحبه، فأمرهم بالاستنقاذ ما وجدوا له سبيلاً وكتب إلى أبي عبيدة:«إنك قد أنزلت الناس أرضاً غمقة – أي وخيمة – فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة[1] وهو أحوط ما يحتاط به أمير عالم في هذه الأيام.

•••

كذلك لم يكن يؤمن بشيء ينفع أو يضر غير ما عرفت أسباب نفعه وضرره فكان ينظر إلى الحجر الأسود فيقول كلما استلمه[2]: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبِلك ما قبّلتك».

وسمع أن الناس يأتون الشجرة التي بايع رسول الله تحتها بيعة الرضوان، فيصلون عندها ويتبركون بها، فأوعدهم[3] وأمر بها أن تقطع، مخافة أن تسري إلى الإسلام من هذه المناسك وأشباهها لوثة[4] من الوثنية والتوكل على الجماد.

•••

وربما التبس الأمر من نوادر عمر في التقشف واجتناب المتع والمناعم فحسبت فرائض يوجبها ويجري فيها على طريقة أولئك النسّاك المتخشّعين الذين كان ينهاهم أن يميتوا الدين، ويهزأ بهم كلما تنطعوا وأوجبوا ما لا يجب على المؤمنين.

1– النزهة: المرتفعة.

2– استلم الحجر الأسود: أي لمسه بالتقبيل أو باليد.

3– أوعد: تستخدم في الشر، أما وعد فتكون في الخير.

4– اللوثة: الحماقة.

فــلا يلتبسن الأمر هــذا المُلتَبس، فهو واضح بــين التفرقة من سيرتـه ومن الأحـاديث التي صحبت تلك النوادر، فسرتها ودلت على الغرض منها.

فعمر كان مسلماً وكان خليفة للمسلمين، وفرّق بين محاسبة المسلم نفسه وهــو مسؤول عنها دون غيرها، وبين محاسبــة الخليفة نفسه حتى يقع الشك في عملــه وينزّه يده وأيدي أهلــه عما ليس لهم بحق من سلطان الحكم أو بين المال، ثم يفي لذكرى صاحبه الذي خلفه على المسلمين، فلا يعيش في مكانه خيراً من عيشته، ولا يمنح نفسه وذويه ما لم يمنحه النبي لآله وذويه.

وعمر الذي كان يقنع بالخشن الغليظ من المأكل والملبس، ويأبى أن يذوق في المجاعــة مطعماً لا يســع جميع المسلمين، إنما هــو الخليفة الذي يحاسب نفسه قبل أن تحاسبه الرعية، وقد وجد منهم من لامه لأنه طرح كساءه وفيه فضــل ملبس. فاتقاء هذا الحاسب وما وراءه من حساب اللــه؛ هو الذي توخّاه خليفة النبي في معيشته ومعيشة أهله، مما يشبه تقشّف النسّاك.

وعلى هذا كله، كان أعلم النـاس أن الطيبات حلال، وأن النهي عن الحلال تنطّع في الدين يأباه الإسلام.

كتــب إليه أبــو عبيدة أنه لا يريــد الإقامة بأنطاكية لطيــب هوائها ووفرة خيراتهــا، مخافــة أن يخلد الجنــد إلى الراحة فلا ينتفع بهــم بعدها في قتال، فأنكــر عليــه ذلك وأجابــه:«إن اللــه عز وجــل لم يحرّم الطيبــات على المتقين الذيــن يعملون الصالحــات، فقال تعالى في كتابه العزيــز «يأيها الرسل كلوا مــن الطيبــات واعملوا صالحــاً إني بما تعملــون عليم»، وكان يجــب عليك أن تريــح المسلمين من تعبهــم، وتدعهم يرغدون في مطعمهــم ويريحون الأبدان النصبة[1] في قتال من كفر باللـه.

وحــدث حذيفــة بن اليمان، أنــه أقبل علــى النـاس وبين أيديهــم القصا ع، فدعاه عمر إلى الطعام وعنده خبز غليظ وزيت! فقال حذيفة: أمنعتني أن آكل الخبــز واللحــم ودعوتني على هــذا؟ قال: إنما دعوتك علــى طعامي، فأما ذاك فطعام المسلمين.

فللمسلمين حل ما شاءوا من الطعام، أما الرجل الذي ينفق من بيت المال،

1- النصبة: التي أصابها النصب، وهو التعب.

فلـه ما يكفيه. والحرج كل الحرج عليـه – وهو عدل عمر وحزمه وجلده – أن يأخـذ منـه ما لا حاجة به إليه، وإنه ليزداد حرجـاً على ما فيه من قناعة أن يكـون من أصحاب رسول اللـه، ويعلم كيف كان رسول اللـه يأكل في بيته، ومـاذا كان يجـد مـن الملبس له ولأهله، ثـم يصيب من هـذا أو ذاك خيراً مما أصاب الرسول.

وللـولاة عنده مثل مـا للمسلمين عامة مـن حق المتعـة السائغة والنعمة التـي ترضاهـا الرجولة، لا يأخذهم بمحاكاته لأنهم يتولون الأمر كما تولاه، بل ربما لامهم على التقتير كما كان يلومهم على الإسراف.

أنكـر على عامله في اليمن حللاً مُشهرة ودهونـاً معطرة، فعاد إليه العام الـذي يليـه أشعث مغبراً عليه أطلاس[1] فقـال: لا. ولا كل هذا، إن عاملنا ليس بـالشعـث ولا العافي[2]. كلـوا واشربوا وادهنوا، إنكم ستعلمـون الذي أكره من أمركم.

•••

ومن تمام العلم بإسلام عمر أن نعلم فضل إسلامه مع مَن لم يكن من أهل الإسلام، فإن الحق الذي يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود يدخل في بـاب السياسة القومية أكثر مـن دخوله في باب الفضيلة الإنسانية. وإنما يصبح حقاً جديراً باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه.

وعمر كان ولا ريب أشد المسلمين في إسلامه.

فلـو كان الإسـلام ظالمـاً بطبيعتـه لمـن لم يدخلوا فيـه، لكان عمـر أشد المسلمـين ظلماً لهم وقسوة عليهم. لكنـه كان في الواقع أشد المسلمين رعاية لعهدهم مذ كان أشد المسلمين غيرة على دينه وعملاً بأدبه.

فـكان شأنه مع مَن حاربوه شأن المحـارب الشريف، ولن ينتظر محارب من محارب إلى آخر الزمان معاملة أقومَ ولا أصدقَ من معاملة عمر لمحاربيه.

وكان شأنـه مـع مَن صالحـوه وعاهـدوه؛ أن يفيَ بعهدهـم ويخلص في

1– أطلاس: جمع أطلس، وهو الثوب الوسخ.

2– العافي: طلب المعروف، والشعث: الوسخ الجسد أو المتلبد شعر رأسه.

الوفـاء بـه بإخلاص مَن يطالب نفسه به قبل أن يطالبـوه، ومَن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه.

كتـب للنصارى في بيت المقدس أمانـاً على أنفسهـم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم لا تهدّم ولا تسكن، وحان وقت الصلاة وهو جالس في صحـن كنيسـة القيامة، فخرج وصلـى خارج الكنيسة علـى الدرجة التي علـى بابها بمفردة، وقال للبطرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون مـن بعـدي، وقالوا: هنا صلـى عمر! ثم كتب كتابـاً يوصي بـه المسلمين، ألا يصلي أحد منهم على الدرجة إلا واحداً واحداً غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها.

وكذلـك كان يفعل في كل موضـع صلـى فيـه مـن الكنائس التـي عاهد النصارى على تركها وتحريم هدمها وسكناها.

أمـا عهده لهم فقد كان مثالاً من السماحة والمـروءة لا يطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنة ما كانت.

فكتب لهم العهد الذي قال فيه:«هذا ما أعطى عبد اللـه عمر، أمير المؤمنين، أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصُلبانهم وسقيمهـا وبريئها وسائر ملتهـا: إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منهـا ولا مـن خيرها ولا مـن صلبهم ولا من شيء من أموالهـم، ولا يُكرَهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهـل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وأن يخرجوا منها الروم واللصوت[1]، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومـن أقـام منهم فهـو آمن، وعليه مع الـروم ويخلي بيَعهم مـن الجزية. ومَن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصُلُبهم[2] فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم».

وليس لذي عهد من ظافر أن يطمع في أمن أكرم من هذا الأمان.

وأنـه قـد كان يعطيهم عليه وعلى قومه هذه العهـود ثم لا يقنع بها حتى

1- اللصوت: اللصوص، مفردها لصت.

2- البيع: جمع بيْعة وهي معبد النصارى، والصلب جمع صليب.

يشفعهـا بـالوصـاة للـولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهـل الذمة، وأن يوفَى لهـم بعهدهـم وينضـح[1] عنهم، ولا يكلّفوا فـوق طاقتهم: كتب بذلـك إلى أبي عبيدة، كما كتب إلى غيره من الولاة، وأوصى به في وصيته قبل أن يموت.

وما شكا إليه مظلوم من أهل الذمة والياً كبُر أو صغُر إلا أنصفه منه. بعث زيـاد بن حدير الأسدي على عشور[2] العراق والشام. فمر عليه تغلبي نصراني معه فرس قوّموها بعشرين ألفاً. فخيّره أن ينزل عن الفرس ويأخذ تسعة عشر ألفـاً أو يمسكها ويعطِي الألف ضريبة، فأعطاه التغلبي ألفاً وأمسك فرسه. ثم مر عليه راجعاً في سنته فطالبه بضريبة أخرى، فأبى وشكاه إلى عمر وقصّ عليـه قصته، فمـا زاد أن قال له: كُفيت! ثم رجع التغلبـي إلى زيّاد، وقد وطّن نفسه على أنه يعطيه ألفاً أخرى، فوجد عمر قد كتب إليه: مَن مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل[3].

وسمع أن بني تغلب لا يزالون ينازعون واليهم الوليد بن عقبة وينازعهم، وأنهم أوعزوا صدره فقال فيهم يتوعدهم:

إذا ما عصبت الرأس مني بمشوَذ[4] ففيك مني تغلب ابنة وائل

فخشي أن يضيق بهم صبره فيسطو عليهم، فعزله، وأمّر غيره.

ولعل حاكماً من الحكام لا يُرام منه أن يبلغ في البر بمخالفيه في الدين مبلغاً أكرم وأرفق من إجراء الصدقة على فقرائهم، ولا سيما الحاكم الذي يدعو إلى دين جديد.

وقد تقدم أن عمر أجرى الصدقة على شيخ يهودي مكفوف البصر، وقال: ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم.

وقد جعل ذلك سُنّة فيمن يبلغه أمرهم من الذميين والمعوزين. فمرّ في

1- ينضح عنهم: يدافع عنهم.

2- العشور: ضرب من الزكاة.

3- من قابِل: أي بعد عام.

4- المشوذ: العمامة.

أرض دمشق بقوم مجذمين[1] من النصارى، فأمر أن يُعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت.

وإذا أحصيت له في سيرته الطويلة أوامر وخطاً تحرم الذميين بعض الحريات أو بعض الحقوق، فكن على يقين أنه قد صدر في ذلك جميعه عن حكمة توجبها سياسة الدولة، ويقرها العقل والعرف كما يقرها الدين والكتاب، ولم يصدر فيه قط عن حيْف مقصود أو عن رغبة في حرمان الذميين حرية يستحقونها أو حقاً هم أحرار فيه.

ولعل الذي يحصي له من هذه الأوامر والخطط لا يعدو النهي عن استخدام بعض الذميين، ومنعهم أن يتشبّهوا في الأزياء والمظاهر بالمسلمين، وإجلاء بعضهم عن الجزيرة العربية في إبان الفتوح، والحذر من الكيد والتجسس والانتفاض.

فأما نهيه عن استخدام بعض الذميين؛ فارجع إلى ما قاله في ذلك تعلم أنه منع استخدامهم لمصلحة العدل وكراهة الظلم والمحاباة. فقال:«إني نهيتكم عن استعمال أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشا»[2].

وطلب يوماً من أبي موسى رجلاً ينظر في حساب الحكومة، فأتاه بنصراني، فقال: إني سألتك رجلاً أشركه في أمانتي فأتيت بمن يخالف دينه ديني. وقلما نهى عن استعمال اليهود والنصارى إلا ذكر بعدها أنهم أهل رشا، ولا تحل في دين الله الرشا.

وكان له عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق، فعرض عليه أن يسلم حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين فأبى، فأعتقه وأطلقه وقال له: اذهب حيث شئت!

فلم يكن نهيه عن استخدام أهل الكتاب في مهام الدولة إلا إيثاراً للعدل وكراهة للرشوة والزيْغ في الحكومة، وما نظن أحداً ينكر استخدام الغرباء عن الدولة خليق أن يحاط بمثل هذا الحذر، وأن يجتنب فيه هذه الآفة، إذ يكثر بين المرتزقة الذين يخدمون دولة من الدول، وهم غرباء عنها كارهون

1- مجذمين: مصابين بالجذام، وهو مرض قد ينتهي بصاحبه إلى تآكل الأعضاء وسقوطها.

2- الرشا: جمع رشوة.

لمجدهـا وسلطانها أن ينظروا إلى منفعتهـم قبل أن ينظروا إلى منفعتها، وأن يساومـوا على نفوذهم قبل أن يستحضروا الغـيرة على سمعتها، والرغبة في خيرهـا وخير أهلهـا، ولا سيما في زمن كانـت الدولة تميـز بالعقائد قبل أن تميز بالأوطان.

ومـا من أمة في عهدنا هذا تبيـح الوظائف العامة إلا بقيود وفروق متفق عليها: أولها تحريمها على الأجانب ما لم تكن في استخدامهم منفعة عامة.

وهـذه هي سياسـة عمر في مسألة الوظائف القوميـة، بغير إعنات للدولة ولا إعنـات للرعيـة، وكفى باتقاء الإعنات أن العبد المملوك يخيّر في الوظيفة والإسلام فيأبى، فلا يصيبه من ذلك ضيْم، ويطلق له زمامه ما يشاء.

أمـا نهيه عـن تشبُّه الذميين بالمسلمين وكراهتـه أن يبدلوا أزياءهم التي ولدوا عليها فلا يلام عليه حتى نعلم لمَ كان أناس من الذميين يودّون التشبه بالمسلمـين في الـزي والشـارة؟ أكانـوا يتشبهون بهـم حباً لدينهـم فهم إذن مسلمـون لا يمنعهـم مانـع أن يجهروا بالإسـلام، أم يتشبهون بهـم كيداً لهم ورغبة في التسلل بينهم والغفلات من عهودهم والتزاماتهم وما توجبه الدولة عليهم في تلك العهود والالتزامات؟

إن كانـوا يفعلونـه لهذا فلا لوْم علـى عمر أن يأبـاه، وبخاصة في الزمن الـذي كان المسلمـون فيـه جميعاً في حكـم الجنود، وما من دولـة ترضى أن تبيح أزياء جنودها لمن يشاء.

وأمـا إخراج بعض الذميين من الجزيرة، فما خـرج منهم أحد إلا وقد غدر بذمته وكرر الغدر مرة بعد مرة، كما صنع أهل خيبر.

ومنهم من أُجلِي عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلاً عن نقضه العهد كما فعل أهل نجران.

فقـد صالحهـم النبـي علـى أن يبقوا فـى مساكنهـم ولا يأكلـوا الربا ولا يتعاملـوا به، وجاء أبو بكر فجدد الصلح علـى ذلك، ثم استخلف عمر فرجعوا إلى الربا وأفرطوا فيه، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفاً فتحاسدوا بينهم وأتوْا عمر يسألونه إجلاءهم فاستحب هذا الجلاء.

علـى أنه لم يكـن يأبى على التجار المأمونين أن يدخلـوا الجزيرة ويؤدوا العشـور. فلما كتب إليه المشركون من أهل منبج أن«دعنا ندخل أرضك تجاراً

وتعشرنا[1]»، شاور أصحاب النبي فأشاروا عليه بقبولهم، فدعاهم إليه.

ولا يفوتنا في هذا الصدد أمران مقترنان بخطة الإجلاء التي لجأ إليها عمر، وأيقن بصوابها وضروراتها. فأول الأمرين: أن الجزيرة حرم الإسلام الذي كان يحيط به أعداؤه ويتربصون به الدوائر ويثيرون الفتنة على أطرافه، كما صنع الفرس بالعراق والروم بالشام، ولا أمان على حرم يسكنه أناس فيهم مَن يغدِر بأهله، بل فيهم من هؤلاء كثيرون.

وثاني الأمرين: أن عمر قد سوّى بين الإسلام والنصرانية في هذه الخطة، فحفظ حرم النصرانية ببيت المقدس للمسيحيين لا يسكنه معهم من يحذرون غدره.

وقد أجمل العوض حين ألجاته ضرورة الدولة إلى اتخاذ هذه الخطة، فاشترى بيوت أهل نجران وعقاراتهم وأقطعهم النجرانية عند الكوفة، وكتب لهم وصاة قال فيها:

«هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران. من سار منهم آمن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين، ومَن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الأرض، فما اعتملوا[2] من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله. ومن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزْيَتُهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا - إلا من صنعهم - البر غير مظلومين ولا معتدَى عليهم».

ولم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذي يختار بعده بالذميين كافة «أن يوفي بعهدهم ولا يكلّفوا فوق طاقتهم، وأن يقاتل من ورائهم[3]»، ودون هذا بالمراحل الشاسعة يقف عدل الدول القدامى والمحدثات في كل ما اتخذ من حيْطة حربية أو حماية قومية أو معاهدة بينها وبين أمة أجنبية، وإن عذرها لدون عذر عمر في خططه، وإن أسبابها لدون أسبابه في الإقناع.

●●●

1- تعشرنا: أي تدعنا نؤدي العشور.

2- اعتمل: اعتمل فلان، عمل لنفسه وتصرّف في العمل.

3- يقاتل من ورائهم: يحميهم.

كان مسلماً شديداً في إسلامه، فلم تكن شدته في إسلامه خطراً على الناس، بل كانت ضماناً لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمي ولا مشرك في غير حدود الكتاب والسنة.

وكان جاهلياً فأسلم، فأصبح إسلامه طوراً من أطوار التاريخ. ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية منشئة في التاريخ الإنساني لما كان إسلام رجل طوراً من أطواره الكبار.

●●●

وكان هذا الرجل يحب ويكره كما يحب الناس ويكرهون، ولكن لا ينفعك عنده أن يحبك ولا يضيرك عنده أن يكرهك إذا وجب الحق ووضح القضاء. قال يوماً لأبي مريم السلولي قاتل أخيه: والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح! فقال له أبو مريم: أتمنعني لذلك حقاً؟ قال: لا. قال: لا ضير! إنما يأسى على الحب النساء.

وحسبك من إسلام يحمي الرجل من خليفة يبغضه وهو قادر عليه، فذلك المسلم الشديد في دينه، والذي يشتد فيأمنه العدو والصديق.

عمر والدولة الإسلامية

تأسست الدولة الإسلامية في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، لأنه وطّد العقيدة وسيّر البعوث، فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه في حرب الرِّدة، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح، فكان له السبق على خلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين.

إلا أننا نسمي عمر مؤسساً للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق في أعمال الخلافة. لأننا «أولاً» لا نجد مكاناً في التاريخ أليْق به من مكان المؤسسين للدول العظام.

ولأننا من وجهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح، وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسساً لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأذانه، وأعزها بهيبته وعنفوانه.

وكان مؤسساً لها يوم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة، وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها، وكان مؤسساً لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم، وهو في الدولة الإسلامية دستور الدساتير ودعامة

الدعائـم، ولم يزل يراجـع أبا بكر في ذلك حتى استدعـى زيد بن ثابت، كاتب الوحـي فأمره أن يتتبع آي القرآن ليجمعها مـن الرقاع والأكتاف والعسب[1] وصدور الرجال، فكان ذلك أول الشروع في جمع الكتاب.

هـذا إلى أن أبـا بكر رضي اللـه عنه، أسس ولم يتسع له الأجل حتى يفرغ مـن عمله، وجـاء عمر بعده فـأتم عمله وأقـام الأساس ثم أقـام عليه البناء، وكانت قدرته على التأسيس هي آية الآيات فيه، وفي ذلك العصر من البداوة الباديـة، لأنـه التفـت إلى مواضعه الخليقـة بالاهتمام والتقـديم كأنه راجع تاريـخ عشريـن دولة مستفيضـة الملك راسخـة العمران. وهي قـدرة تروعنا وتدهشنـا لو شهدناها مـن ملك تربّى على الملك، وسلفه[2] على عرشه سمط[3] مـن الملـوك. وأوْلى أن تروعنا وتدهشنا من رجـل البادية الذي يقدم على أمر جديد لم تعنه فيه السوابق، ولم يهتد فيه إلا بما اختار هو أن يهتدي إليه.

فبعـد جمْع القرآن لا نعرف عملاً يقترن به ويلازمه ويعد من أسس الدولة العربيـة كالعمـل على تصحيح اللغـة وحفظها من الخلـط والفساد. وكلاهما عمـل لا يفطـن إليه إلا من طبع علـى سليقة التأسيس وأخـذ بها من أصولها، وكلاهمـا فطـن إليه هـذا المؤسس الكبير على أهْـون ما يكون مـن البساطة والسهولة، فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع آي القرآن، وكان أثره في تدعيم الدولة الأدبية كأثره في تدعيم دولة الغزوات والفتوح.

ونـدر في الدولـة الإسلامية نظام لم تكـن له أولية فيـه. فافتتح تاريخاً، واستهـل حضـارة، وأنشـأ حكومـة ورتب لهـا الدواويـن، ونظم فيهـا أصول القضـاء والإدارة، واتخـذ لها بيت مال، ووصل بـين أجزائها بالبريد، وحمى ثغورهـا بالمرابطين، وصنـع كل شيء لها، في الوقت الـذي ينبغي أن يصنع فيـه، وعلـى الوجه الذي يحسُـن به الابتـداء، فأوجز ما يقال فيـه؛ إنه وضع دستوراً لكل شيء وتركه قائماً على أساس لمن يشاء أن يبني عليه.

1- الأكتاف: جمع كتف، والعسب جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا ينزعون حوضه ويكتبون في طرفه العريض، وكان العرب يكتبون كذلك على صفائح الحجارة وعلى الأضلاع والأكتاف... إلخ.

2- سلفه: تقدمه.

3- سمط: خيط تنظم فيه حبات العقد، والمراد عدد.

وملاك[1] النظم الحكومية كلها نظام الشورى، الذي أقامه عمر على أحسن ما يقام عليه في زمانه، فجمع عنده نخبة الصحابة للمشاورة والاستفتاء، وضنّ بهم على العمالة في أطراف الدولة، تنزيهاً لأقدارهم وانتفاعاً برأيهم واعتزازاً بتأييدهم له ومعاونتهم إياه فيما يتولاه من ثواب أو عقاب.

وجعل موسم الحج موسماً عاماً للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء في أقطار الدولة من أقصاها إلى أقصاها، يفد فيه الولاة والعمال لعرض حسابهم وأخبار ولايتهم ويفد فيه أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يشكيهم، ويفد فيه الرقباء الذين كان يبثهم في أنحاء البلاد لمراقبة الولاة والعمال. فهي«جمعية عمومية» كأوفى ما تكون الجمعيات العمومية في عصر من العصور.

كان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم، ويستمع لهم ويسمعهم، ويتوخّى في جميع ذلك تمحيص الرأي وإبراء الذمة والخلوص إلى التبعة السليمة من العقابيل.

وإن أضعف الناس رأياً لمن يستضعف فضل الأمير في عمل تولاه لأنه عمله بمشاورة غيره.

فإن باب المشاورة مفتوح لكل إنسان، وليس كل إنسان مع ذلك بالذي يريد أن يستشير، أو الذي يعرف كيف يستشير إذا أراد، أو بالذي يحسن الموازنة بين الآراء إن عرف من يستشيرهم ومن يقبل مشورتهم في حالة ويرفضها في حالة أخرى.

إن المشاورة لفن عسير.

وإن الذي ينتفع بمشورة غيره لأقدر ممن يشير عليه.

وقد كان عمر عبقري هذا الفن الذي لا يجارَى. وكان من بدعه الملهمة في هذا الفن العسير؛ أنه لم يلتمس الرأي عند أهل الحنكة والخبرة وكفى، بل كان يلتمسه كذلك عند أهل الحدة والنشاط ممن يناقضون أولئك في الشعور والتفكير. فكان كما روى يوسف بن الماجشون:«إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدة عقولهم»، وإنه لإلهام في فن الاستشارة لا يلهمه

1- ملاك الأمر: قوامه وأساسه، يقال: القلب ملاك الجسد.

إلا صاحب رأي أصيل، فمن الرأي الأصيل أن يخبر[1] الإنسان كيف يستعير آراء المشيرين.

انظر إليه كيف يستشير في اختيار أمير، تعلم أن الاستشارة كما قلنا فن، وأنه فن عسير.

قال لأصحابه: دلوني على رجل أستعمله.

فسألوه: ما شرطك فيه؟

قال:«إذا كان في القوم وليس أميرهم، كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم».

إن الذي يسأل هكذا، لهو أقدر من الذي يجيبه بالصواب، لأنه قطع له ثلثي الطريق السديد إلى الجواب.

وكان ربما استشار العدو الذي لا يأمنه، كما فعل في سماع رأي الهرمزان في أمر الحرب الفارسية، لأنه بصير يطلب نوراً، فإن رأى النور استوى لديه أن يحمل له المصباح عدو أو صديق.

ومن اليسير، إذا تعقبنا[2] مشاورات عمر، أن نعلم أنه هو واضع دستور الشوري في الدولة الإسلامية، وأن الشورى التي وضع دستورها هي شورى الرأي الأصيل يستعين بكل أصيل من الآراء.

وقد وضع لقواده دستور الحرب، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية إلى تخوم[3] أعدائها، كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده.

فأرسل المدد إلى العراق وعليه أبو عبيد بن مسعود الثقفي، وعلّمه كيف يستشير مجلس الحرب الذي معه، وكيف يقدم في موضع الإقدام ويتريث في موضع التريث، وأجمل له ذلك في قوله: «اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد مسرعاً بل اتئد، فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث[4]، الذي يعرف الفرصة، ولا يمنعني أن

1- خبر المر يخبره من باب نصر: علمه.

2- تعقبنا: تتبعنا.

3- تخوم: حدود، جمع تخم.

4- المكيث: الذي يتعجّل الأمر.

أؤمـر سليطاً «بن قيس» إلا سرعته إلى الحـرب. والسرعة إلى الحرب – إلا عن بيـان – ضياع» وزاده تبصرة بالحيطة فقال له: «إنك تقدُم على أرض المكر والخديعـة والخيانـة والجبريـة[1]: تقدُم على قـوم تجرأوا على الشر فعلموه، وتناسـوا الخير فجهلوه. فانظر كيف تكون، وأحرز[2] لسانك ولا تفشينّ سرك، فـإن صاحب السر – مـا يضبطه – متحصن لا يؤتَى مـن وجه يكره، وإذا لم يضبطه كان بمضيْعة».

فهـي المشـاورة، ثم أنـاة في الاجتهاد، إلا أن تجب السرعـة، ببيان وثقة، فليكن الإسراع. وهذه وصية عمر بن الخطاب الذي يُظَنُّ به الاندفاع، وينسى من يظن به هذا الظن، أنه قوي الاندفاع وقوي الضابط في وقت واحد، وعندما يقترن الاندفاع بضابط فهو مزية وليس بعيب.

وكتـب إلى سعـد بن أبـي وقاص بعد اختيـاره لحرب فارس، وفي كتابه لـه قبس من هذا المعنـى: «إذا انتهيت إلى القادسية، هـو منزل رغيب خصيب دونه[3] قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك[4] على أنقابها[5] ويكون الناس بـين الحجر والمـدر[6]، على حافات الحجر، وحافات المـدر، والجراع[7] بينها، ثم الزم مكانك، فلا تبرحه، فإنك إذا أحسوك أنغصتهم، ورموك بجمعهم الذي يأتـي علـى خيْلهم ورجْلهم، وحدهـم وجدهم[8] – فإن أنتـم صبرتم لعدوكم، واحتسبتـم لقتالـه، وقويتم الأمـانة – رجـوْت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع

1- الجبرية: بفتح الجيم وسكون الباء مع تشديد الياء: الكبر مثل الجبروت.

2- أحرز: الحرز المكان الحصين، فالمراد حصن لسانك واضبطه ولا تثرثر.

3- دونه: بينك وبينه.

4- مسالح: جمع مسلحة على وزن مصلحة، حد المراقبة على الحدود.

5- أنقابها: جمع نقب، وهو هنا الطريق في الجبل.

6- المدر: جمع مدرة وهي القرية والحضر، وعكسها الوبر أي البادية، والمراد بالحجر من أرض العرب الجبلية الوعرة.

7- الجراع: جمع أجرع وهو الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ولا تنبت.

8- حدهم وجدهم: يقال«فلان له حد وجد» أي له بأس وقوة.

لكم مثلهم أبداً، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم. وإن تكن الأخرى[1]، كان الحجـر في أدباركم فانصرفتم مـن أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكـم، ثم كنتم عليهم أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل، حتى يأتي اللـه بالفتح».

ثـم كتب إليه يستوصفه المنازل التي نزل بها ويسأله:«أين بلغك جمْعهم؟ ومَن رأسهم الذي يلي مصادمتكم؟ فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم. فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على الجلية».

وكتـب إلى أبـي عبيـد، وقـد تـرك حصـار حلـب يستضعف رأيـه في ترك حصارها:«سـرّني مـا علمت من الفتـح وعلمت من قُتل من الشهـداء، وأما ما ذكـرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى النواحي التي قرُبت من أنطاكية فهذا بئس الـرأي، أتـترك رجلاً ملكـت دياره ومدينته ثـم ترحل عنــه وتسمع أهل النواحـي والبـلاد بأنك ما قـدرت عليه؟ فما هذا برأي، يعلـو ذكره بما صنع، ويطمـع مَـن لم يطمع، فترجع إليك الجيوش وتكاتـب ملوكها. فإيّاك أن تبرح حتـى يحكم اللـه وهـو خير الحاكمين. وقد أنفذت إليـك كتابي هذا ومعه أهل مشـارف[2] اليمـن ممن وهب نفســه للـه ورسوله، ورغـب في الجهاد في سبيل اللـــه، وهم عرب وموالٍ[3]، رجـال وفرسان، والمدد يأتيك متوالياً إن شاء اللـه تعالى».

فـكان دستوره في الحرب أن يضع الأسس العامة ويعهد في تنفيذها إلى ذي خبرة وأمانة، ولا يتخلى عن تبعته العظمى في مصائر الحرب كل التخلي اعتماداً على القائد وحده، إذ ليس القائد بالمسؤول الوحيد عن المصير.

فـإذا رأى القائـد رأياً وخالفه هـو في رأيه، أعانه بالمـدد والمشورة على الأخذ بالرأي الذي دعاه إليه، وأبطل معاذيره بتوضيح الأمر وإعانته عليه.

1- الأخرى: يقصد النكسة أو الانهزام.

2- مشارف الأرض: أعاليها.

3- الموالي: يطلق على العُتقاء والحُلفاء.

ولقد كان إلى جانب هذا السهر على الميادين عامة لا يغلّ يد القائد فيما يحسن أن تنطلق فيه، فإذا تجاوز الأمر سياسة الحرب العامة من فتح الميادين وفك الحصار وانتظار الهجوم، فمن حق القائد عنده أن يختار لنفسه ولا ينتظر الرجوع إليه، وأن يجري في إدارة المعركة على الوجه الذي تمليه ضرورة الساعة، ولهذا استشاره أبو عبيدة في دخول الدروب خلف العدو فكتب إليه:«أنت الشاهد وأنا الغائب، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالأخبار، فإن رأيت الدخول إلى الدروب صواباً فابعث إليهم السرايا، وادخل معهم بلادهم، وضيّق عليهم مسالكهم، وإن طلبوا إليك الصلح فصالحهم».

فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بداءتها.

وهو يختار القائد الضليع بتسيير تلك الحملة.

وهو بعد هذا لا يعفي نفسه من التبعة، ولا يعفي القائد من واجب الرجوع إليه في المواقف الحاسمة، ولا يغلّ يده فيما هو أدرى به وأقدر على الاختيار فيه. ولا ينسى أن يعينه إذا خالفه في الرأي ليتفق الرأيان المختلفان. فإذا رجع القائد إلى الحصار الذي أزمع أن يتركه، رجع إليه وهو مؤمن بصواب ما يعمل، ليستمد من الإيمان بالصواب قوة لن يشعر بها وهو يؤدي عملاً يخالف الصواب في تقديره.

وهذه السياسة هي السياسة التي جرى عليها عمر في جميع بعوثه وغزواته وسراياه. وهي السياسة التي لا يستطيع حاكم أن يجري على غيرها في حرب قديمة أو حديثة، وقد جرى عليها فجعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد في الميدان، وجعلت بطل الفرس، رستم المشهور في التواريخ والأساطير، يقول: إن عمر هو هازمه في الميدان، و«أنه هو عمر الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل! أكل عمر كبدي أحرق الله كبده».

وربما أخطأ القائد الذي يختاره، فمسته التبعة من هذا الجانب لأنه هو المسؤول عن اختياره. غير أنها لا تمسه من جانب إلا أعفيَ منها من جانب آخر أو جوانب عدة، كما حدث في وقعة الجسر التي قُتل فيها قائده أبو عبيد المتقدم ذكره ثم انهزم فيها جيش المسلمين. فهو مسؤول عن اختيار هذا القائد، كما يسأل كل رئيس دولة في مثل ذلك، ولكن أعذاره على التحقيق

أكبر من أخطائه في كل مسألة من هذا القبيل، وفي هذه المسألة بعينها كان اختياره لأبي عبيد إنصافاً له حجته الراجحة فيه، لأنه كان أول من أجاب الدعوة إلى القتال فلم ير من الإنصاف أن يؤخر المتقدم ويقدم عليه المتخلفين، وقد سوّغ الرجل اختياره إياه بانتصاراته الأولى التي رفعت من شأنه بين القوّاد، فلما أخطأ جاءه الخطأ من مخالفة عمر في وصاياه، ومنها وجوب التريُّث والحذر من عبور الأنهار والجسور، ولم يكن على عمر لوْم في تقصير على التنبيه والتحذير.

•••

وقبل أن يضع دستوراً للولاة وضع دستوراً لنفسه قوامه؛ أن الحكم محنة[1] للحاكم ومحنة للمحكومين، و«أنه لا يصلح إلا بشدة لا جبرية[2] فيها، ولين لا وهن فيه[3]. وأن الخليفة مسؤول عن ولاته واحداً واحداً في كل كبيرة وصغيرة، ولا يعفيه من اللوم إنْ أحسن الاختيار».

قال يوماً لمن حوله: أرأيتم إذا استعملت عليكم خير مَن أعلم ثم أمرته بالعدل، أكنت قضيت ما عليّ! قالوا: نعم. قال: لا، حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا؟».

وعهوده على نفسه هي خير العهود التي تؤخذ على ولاة الأمر، وأبْينِها للحدود القائمة بين الراعي والرعية، وخير ما فيها؛ أنه كان يحث الناس على الاستغناء عن التحاكم إلى الحكام خلافاً لأصحاب الأمر الذين يودّون لو فرضوا لأنفسهم حكماً في كل شيء. فكان يقول لهم:«أعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلي..».

وجمع صلاح الأمر[4] في ثلاث:«أداء الأمانة، والأخذ بالقوة، والحكم بما أنزل الله»، وصلاح المال في ثلاث:«أن يؤخذ من حق، ويعطَى في حق، ويمنَع

1- محنة: اختبار، ومحنة من باب قطع وامتحنه اختبره، والاسم المحنة، ولذا سُمّيت المصائب بالمحن لأنها اختبار للإنسان.

2- جبرية: جبروت وطغيان.

3- وهن: ضعف.

4- أي أمر الدولة.

مـن بـاطل».وعـاهد النـاس فقـال:«لكم عليّ ألا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا ما أفـاء اللــه عليكـم إلا من وجهه، ولكم عليّ إذا وقع في يـدي ألا يخرج مني إلا في حقـه، ولكم عليّ أن أزيـد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء اللـه وأسد ثغوركم[1]، ولكم عليّ ألا ألقيكم في المهالك ولا أجمّركم – أي أحبسكم – في ثغوركم، وإذا غبتـم في البعوث فأنـا أبو العيال حتى ترجعـوا إليهم، فـاتقوا اللـه عبـاد اللـه، وأعينـوني على أنفسكم بكفّهـا عني، وأعينوني على نفسـي بـالأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاني اللـه من أمركم».

ومـن أوائل عهوده في بيـان الحق الذي يرشـح الحاكم لولاية الحكم:«أيها النـاس: إني قد ولّيت عليكم ولولا رجـاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما ولّيت ذلك منكم».

فـأحق النـاس بـالحكم أقدرهم على البر والحزم والنـهوض بـالأعبـاء، وليس لـه في غير ذلك حق يرشحه للحكومة.

ومـن أوائل خُطَبِـه بعد توليه الخلافة:«إن اللــه ابتلاكم بي وابتلاني بكم، وأبقـاني فيكم بعد صـاحبي، فلا واللـه لا يحضر لي شيء من أمركم فيليَه أحد دوني، ولا يتغيّـب عنـي فـآلـو[2] فيه عن أهـل الصدق والأمـانة، ولئـن أحسنوا لأحسنن إليهم ولئن أساءوا لأنكّلن بهم».

فهـو يعـاهدهم أن يلـي الأمر بنفسه في كل مـا حضـره، وألا يعهد فيه إلى غيره إلا إذا غـاب عنه، ثم لا يكون وكلاؤه فيه إلا من أهل الصدق والأمـانة، ثم هـو لا يدعهـم وشأنهم بعد ذلك بل يراقبهم ويتتبـع أعمـالهم، فيحسن إلى من أحسن وينكّل بمن أسـاء.

وقد كـان يقول ويعني مـا يقول ويعمل بمـا يقول.

وصــارح القـوم فيما لا يُحصَـى من الخطب والأحـاديـث أن له عليهم حق الطاعـة فيما أمـر اللـه، فلا طاعة لمخلوق في معصيـة الخـالق، وأن لهم عليه حـق النصيحـة ولو آذوه فيهـا. ومـن ذلك الرواية المشهورة التـي سأل النـاس

1- الثغور: جمع ثغر وهو من البلاد الموضع الذي يخاف منه هجوم العدو، ويقصد بسد الثغور الدفاع.

2- فآلو: ألا يألو: أي قصّر يقصر من باب عدا. فآلو، أي أقصر، ومنه : لا آلوك نصحاً أي لا أقصر في نصحك ولا أدخر جهداً فيه.

فيهــا أن يدلــوه على عِوَجه فقال لــه أحدهم:«واللــه لو علمنا فيـك اعْوِجاجاً لقوَّمْنــاه بسيوفنــا»، فحمد اللـه أن جعل في المسلمين مــن يقوِّم اعوجـاج عمر بسيفه.

ولم يكـن يبيح من مـال المسلمين أجراً لعملــه إلا ما يقيم أوَده[1] وأوَد أهله عنـد الحاجــة إليه، فــإن رزقه اللـه مــا يغنيه عن بيت المال كفّ يـده عنه:«ألا وإني أنزلـت نفسـ من مـال اللــه، بمنزلة ولي اليتيـم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بـالمعروف، تقرم[2] البهيمة الأعرابية: القضم لا الخضم»، أي كما تـأكل ماشية البـادية قضماً بـأطراف أسنـانها لا مضغاً وطحناً بـأضراسها.

ولمــا سئـل عما يحل للخليفة من مـال اللــه قال:«إنه لا يحل لعمر من مـال اللـــه إلا حلتــان: حلــة للشتاء وحلــة للصيف، ومــا أحجّ به وأعتمــر[3]، وقوتي وقــوت أهلي كرجل من قريش ليس بـأغنـاهم ولا بـأفقرهم. ثم أنـا بعد رجل من المسلمين».

وقـد كـان أسخى مــن ذاك في تقديــره لأرزاق الولاة والعمــال، فقدّر لعمّار بــن ياسر حين ولاه الكوفة ستمئــة درهم في الشهر له ولمساعديه، يزاد عليها عطــاؤه الذي يــوزع عليه كما توزع العطية على أمثالــه، ونصف شاة ونصف جريب[4] من الدقيق.

وقــدر لعبد اللـه بن مسعود مئة درهم وربع شاة لتعليمه النـاس في الكوفة وقيامــه على بيت المال فيها، ولعثمــان بن حنيف مئة وخمسين درهماً وربع شــاة في اليوم، مع عطائه السنوي وهــو خمسة آلاف درهم، وهكذا على حسب الولايـات والنفقـات.

وكـان يحظـر على الــولاة مظاهر الخُيَلاء والأبهة التي تبعد ما بينهم وبين الرعية، ولكنه ينظر في أعذارهم فيقبلها أو يغضي عنها لتوقف صلاح الولاية على ذلك.

1- أود: أود من بـاب طرب وعوج، فـالأود العوج، والمراد ما يكفى حاجاته الضرورية.

2- قرم: أي أكل أكلا ضعيفاً، والمراد أكل أخف أكل من أخشن طعام.

3- الحج معروف، والعمرة: الحج الأصغر، وهي مأخوذة من الاعتمار أي الزيـادة.

4- الجريب: مكيال كان يستخدم، يمكن أن يقدر بما يعادل 360 رطلا.

قـدم إلى الشام راكباً علـى حمار فتلقّاه عامله معاوية بن أبى سفيان في موكـب عظيم، فلمـا رآه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافـة، فمضى في سبيله ولم يـرد عليـه سلامه، فقال له عبـد الرحمن بن عوف: أتعبـت الرجل يا أمير المؤمنين، فلو كلمته! فالتفت إذ ذاك إلى معاوية وسأله: إنك لصاحب الموكب الذي أرى؟

قال: نعم

قال: مع شدة احتجابك ووقوف ذوي الحاجات ببابك؟

قال: نعم.

قال: ولمَ ويحك!

قـال: لأننـا ببلاد كثير فيها جواسيس العدو، فـإن لم نتخذ العدة والعدد استخـف بنا وهجـم علينا، وأمـا الحُجّاب فإننـا نخاف من البذلـة[1] جرأة الرعية، وأنا بعدُ عاملك، فإن استنقصتني نقصت، وإن استزدتني زدت، وإن استوقفتني وقفت!

فقال عمر: ما سالتك عن شيء إلا خرجت منه. إن كنت صادقاً فإنه رأي لبيب، وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب[2] لا آمرك ولا أنهاك».

أمـا دستور الـولاة عنده؛ فأساسـه أن الولاية تمييـز بالواجب والكفاءة وليسـت تمييزاً بالوجاهــة والاستعلاء، فكان يقـول للوالي:«افتح لهم بابك، وباشر أمورهـم بنفسك، فإنمـا أنت رجل منهم غـير أن اللـه جعلـك أثقلهم حملا».

وشغله كل الشغل، وأن تخضع الرعية لواليها رغبة في حكمه، واطمئنانا إلى عدلـه، فكان يقول للوالي:«اعتبر منزلتـك عند اللـه بمنزلتك من النـاس»، ويقـول للرعيـة:«إني لم أبعـث إليكم الـولاة ليضربـوا أبشاركـم[3]، ويأخذوا أموالكم، ولكن ليعلموكم ويخدموكم».

وتستوي عنده رغبة الرعية من المسلمين ورغبة الرعية من غيرهم. فلما

1- البذلة: الابتذال وترك الكلفة.

2- أريب: ذكي.

3- أبشاركم: جلودكم.

رأى أقوامــاً ذميــين ينقضون العهد ويثورون علــى الدولة، طلب من صلحاء البصــرة وفداً فيهم الأحنف بن قيس، وهو مصدّق عنده، فسأله:«إنك عندي مصدق، وقد رأيتك رجلاً فأخبرني«ألمظلمة[1] نفر أهل الذمة أم لغير ذلك؟».

فقال الأحنف:«لا بل لغير مظلمة، والناس على ما تحب».

فهدأ باله وقال:«نعم[2] إذن...انصرفوا إلى رحالكم».

وربمــا ذهــب في إرضاء الرعيــة مذهباً لم يحلم به الغــلاة من الظالمين بحقوق الشعوب في هذه العصور.

فـكان من قوّاده وولاتــه سعد بن أبي وقاص، قائــده المظفر في حروب فارس، وقريــب رسول اللــه صلى الله عليه وسلــم، والرجل الذي جعله عمر واحداً من ستة يستشارون بعده في أمر الخلافة، فثارت به طائفة من أتباعه وشكتــه إلى عمــر وجيوش الفرس تتجمّع للغزو والثأر. فلــم يشغله ذلك عن تحــرّي الأمر من مصــادره، وإيفاد من يبحث عن حقيقة الشكوى بين أهلها. فبعــث بوكيلــه على العمــال محمد بــن مسلمة يســأل عن سعــد وسيرته في الرعيــة. وكلمــا سأل عنه جماعــة أثنوا عليه، إلا من شكــوْه فقد أحجم فريق منهــم لم يمدحــوه ولم يذموه، وقال فريــق منهم:«إنه لا يقسِّــم بالسوِيّة، ولا يعدل في القضية، ولا يغزو في السريّة».

فعــاد محمــد بن مسلمــة إلى المدينة وسعد معــه، وأعاد عمــر سؤاله فلم تثبــت له مــن أمره ريبة، إلا أنــه اتقى الفتنة والخطوب منــذرة، فعزله وقال لشاكيــه:«إن الدليل على مــا عندكم من الشر نهوضكم لهذا الأمر، وقد استعد لكــم مــن استعــد، وأيم اللــــه لا يمنعني ذلك من النظــر فيما لديكــم وإن نزل بكــم»، وقال لسعد يومئذ مبرئاً له من تهمــة خصومه:«هكذا الظن بك يا أبا إسحــق! ولــولا الاحتياط لكان سبيلهــم بيناً». ثم أبى أن يفــارق الدنيا وفي ذمتــه شهادة لسعــد يعلنها لملأ المسلمين، فلما حضرتــه الوفاة وسألوه أن يستخلــف أبى أن يخلــف أحداً من أهله، وسمّى علياً وعثمان وطلحة والزبير وعبــد الرحمــن بن عــوف وسعــداً»، لأنهم نفر تــوفّي رسول اللـــه وهو عنهم

1- المَظلمة: بفتح الميم وكسر اللام: اسم لما تُطلب عند الظالم كالظلامة.

2- أي: لا ضيْر إذن.

راضٍ. فأيهم استخلف فهو الخليفة»، ثم قال: فإن أصابت سعداً فذاك، وإلا فأيهم استخلف فليستعين به، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة.

وهذا مثل من أمثلة الوفاء بجميع الحقوق، والرعاية لجميع الذمم من حاكمين ومحكومين، ولا يبعد أن يقع الغبن على بعض الولاة الكفاة من فرط العناية بشكايات الرعية، إلا أن عمر في حزمه وعدله لم يكن يفوته مفرق الصواب بين الأمرين. فغُبن والٍ أو قائد أهون من غُبن أمة أو جيش. ومن أقواله في ذلك«هان شي أصلح به قوماً أن أبدلهم أميراً مكان أمير».

بل ربما جرى منه حكم العزْل على الولاة الكفاة لغير سبب من أسباب الشكاية أو القصاص، وإنما هو سبب من الأسباب التي ترجع إلى سلامة الدولة أو ما نسميه في العصور الحديثة بالسياسة العليا. وهذه أسباب لا يصح أن يغفل عنها ولاة الأمر في أيام تأسيس الدول وتجربة النظم الحديثة، وأولها عصمة الدولة من فتنة المقتدرين المحبوبين.

فربما كان الوالي المقتدر المحبوب أخطر على الدولة الناشئة في تأسيسها من الوالي العاجز الغيض، إذا لم يتعهده نظر ثاقب وحساب عسير.

فقد تزين له نفسه، أو تزين له رعيته، أن يستقل بالأمر، وينتحل لذلك ما شاء من المعاذير. فإن فاته الاستقلال ورئيسه قوي مهيب لم يفته بعد زوال عهد واستقرار عهد آخر تؤذْوٍن بمثل هذا التقلقل، وتفتح الثغرات لمن يريد أن يلج[1] منها بعد طول تربُّص واستعداد.

ولم يكن عمر بن الخطاب يعرف تاريخ الإسكندر المقدوني وتواريخ العتاة من قياصرة الرومان، ولا كان الغيب قد انكشف له، فرأى ما تلاه من المثلة في دول المغول والعثمانيين ودول المسلمين من الشرقيين والغربيين، ولكنه لو استقصى أخبارهم جميعاً وعرف فتنة الولاة بعد زوالهم، لما ندم لحظة على عزل الذين عزلهم وهو يقول لهم: إنما عزلتكم لكيلا أحمل على الناس فضل عقولكم، أو لكيلا تفتتنوا بالناس كما افتتن الناس بكم، ولكان له سبب آخر وجيه بالغ في الوجاهة يدعوه إلى تغليب رغبات الرعية على مكانة الولاة، وهو عصمة الدولة من أولئك الولاة أن يطول بهم العهد، وتتم لهم

1- يلج: مضارع ولج أي دخل.

القدرة ويحوطهم الحب والولاء فلا يبقى بينهم وبين الانتفاض[1] إلا الفرصة السانحة، وهي أقرب شيء سنوحاً في إبان التأسيس والانتقال.

وما لم يكن عزل العمال لسبب من أسباب السياسة العليا التي من هذا القبيل، فلا جزاء إلا بقسطاس دقيق محيط ولا سيما في الشؤون المالية، لأنه يعتمد في محاسبتهم على وسائل متفرقة يستدرك بعضها نقص بعض، فلا تكاد تختفي عليه خافية مما يريد الوقوف عليه.

فمن هذه الوسائل: أنه كان يحصي أموالهم قبل الولاية ليحاسبهم بها على ما زادوه بعد الولاية مما يدخل في عداد الزيادة المعقولة، ومن تعلل منهم بالتجارة لم يقبل منه دعواه لأنه كان يقول لهم: إنما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجاراً.

ومنها: أنه كان يرصد لهم الرقباء والعيون من حولهم ليبلغوه ما ظهر وما خفيَ من أمرهم، حتى كان الوالي من كبار الولاة وصغارهم يخشى من أقرب الناس إليه أن يرفع نبأه إلى الخليفة.

ومنها: أنه كان يندب لهم وكيلاً خاصاً يجمع شكايات الشاكين منهم، ويتولى التحقيق والمراجعة فيها، ليستوفيَ البحث فيما ينقله الرقباء والعيون.

ومنها، أنه كان يأمر الولاة والعمال أن يدخلوا بلادهم نهاراً إذا قفلوا[2] إليها من ولاياتهم، ليظهر معهم ما حملوه في عودتهم، ويتصل نبؤه بالحراس والأرصاد الذين يقيمهم على ملاقي الطريق.

ومنها: أنه كان يستقدمهم في كل موسم الحج ليحاسبهم ويسمع ما يقولون وما يقال فيهم، وعليهم شهود ممن يشاء أن يحضر الموسم من أهل البلاد، ونوى في أواخر أيامه أن يستكمل الرقابة بالسير في البلاد فيقيم شهرين في الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة وغيرها، فإنه ليعلم «أن للناس حوائج تقطع عنه، أما هم فلا يصلون إليه، وأما عمّالهم فلا يرفعونها إليه».

وكان لا يكتفي بوسائله تلك إذا استراب، فيعمد إلى الحيلة للكشف عن

1- المراد الخروج على الدولة والاستقلال بالولاية.

2- قفلوا: رجعوا.

الخبايا التي تربيه. ومن ذلك؛ أنه سمع بعودة أبي سفيان من عند ولده معاوية والي الشام، فوقع في نفسه أن ولده قد زوّده في عودته بمال. وجاءه أبو سفيان مسلماً فقال له: أجزنا[3] يا أبا سفيان! قال: ما أصبنا شيئاً فنجزيك! فمد يده إلى خاتم في يده فأخذه منه وبعثه إلى هند زوجته، وأمر الرسول أن يقول لها باسم زوجها: انظري الخُرْجَيْن اللذين جئت بهما فابعثيهما.فما لبث أن عاد بخرجيْن فيهما عشرة آلاف درهم، فطرحهما عمر في بيت المال.

وكانت سنته إذا ثبتت على الوالي شبهة التصرف في بيت مال المسلمين، أن يصادر المال الذي ظفر به أو يقاسم الوالي فيما أربى[4] على كسبه المعقول، فيترك له النصف ويضم النصف إلى بيت المال، وهذا عدا ما يجزيه به من عزْل أو عقاب.

أما حساب الشكايات من المظالم، فكانت سنته فيه التحقيق ثم الجزاء على شرعة المساواة بين أكبر الولاة وأصغر الرعية بغير تفرقة بين السيئة وجزائها، فمن ضَرب ضُرب، ومن غصب رد ما غصب! ومن اعتدى قوبل بمثل اعتدائه وعليه زيادة التأديب.

وقد يأخذ الوالي أحياناً بوزر[5] ولده، أو ذي قرابته إذا وقع في نفسه أنهم يستطيلون على الناس بسلطان الولاية ولا ينهاهم الوالي المسؤول عنها.

جاء مصري فشكا إليه واليها عمرو بن العاص، وزعم أن الوالي أجرى الخيل فأقبلت فرس المصري فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح: فرسي ورب الكعبة! ثم اقتربت وعرفها صاحبها فغضب محمد بن عمرو، ووثب على الرجل يضربه بالسوط ويقول له: خذها وأنا ابن الأكرمين. وبلغ ذلك أباه فخشيَ أن يشكوه المصري فحبسه زمناً، وما زال محبوساً حتى أفلت وقدم إلى الخليفة لإبلاغه شكواه.

قال أنس بن مالك، راوي القصة: فوالله ما زاد عمر على أن قال له اجلس،

3- أجزنا: المقصود أعطنا.

4- أربى: زاد.

5- الوزر: الذنب.

ومضت فترة إذا به في خلالها قد استقدم عمْراً وابنه من مصر فقدما ومَثُلا[1] في مجلس القصاص. فنادى عمر: أين المصري؟ دونك[2] الدّرّة فاضرب بها ابن الأكرمين.

فضربه حتى أثخنه[3] ونحن نشتهي أن يضربه، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين! ثم قال: أجِلها[4] على صلعة عمرو! فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه، قال عمرو فزعاً: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت، وقال المصري معتذراً: يا أمير المؤمنين؛ قد ضربت من ضربني، فقال عمر: أما والله لو ضربته ما حُلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه، والتفتَ إلى عمرو مغضباً يقول له تلك القوْلة الخالدة التي ما قالها حاكم قبله:«أبا عمرو ! متى تعبّدتم[5] الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».

•••

ومن هذا العدل في شؤون الولاية نستطيع أن نفهم دستوره في شؤون القضاء، فلن يكون هذا الدستور إلا دستور العدل المحكم في الجزاء والفصل بين الحقوق. إلا أننا نعتقد أن وصاياه في القضاء أحكم وأصلح لجميع الأزمنة من جميع وصاياه، فلا تعقيب بعدها لمعقب في زمانه أو في زمان يليه، مهما تختلف الأقوام والأوقات.

أنشأ وظائف القضاء وتخيّر لها العدول[6] الأكفاء. ولم تكن به من حاجة هنا إلى سن الشريعة التي يحكمون بها فإنها ماثلة في الكتاب والسنة، ولكنه كان في حاجة إلى تعليم القضاة كيف يتصرفون حين يلتبس عليهم الأمر، فأحسن التعليم.

•••

1- مَثُلا: مَثُل بين يديه انتصب قائماً، وبابه دخل.

2- دونك: اسم فعل بمعنى حد.

3- أثخنه: أضعفه وأوجعه وأوهنه.

4- أجِلها: أدرها.

5- تعبّدتم: استعبدتم.

6- العدول: جمع عدل وهو العادل.

كان يكتب لأحدهم:«إذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال، فإذا جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاقض بها، فإذا جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله، ولم يتكلم فيه أحد قبلك، فاختر أي الأمرين شئت: إن شئت أن تجتهد وتقدم فتقدم، وإن شئت أن تأخر فتأخر[1]، ولا أرى التأخير إلا خيراً لك».

وضرب لهم أصلح الأمثلة باجتهاده واستفتائه، فلم يقطع يد السارق في عام المجاعة رعاية للزمن، ولم يقطع يد الغلام الذي سرق من سيده رعاية لسنه أو للعلاقة بين السارق والمسروق منه، واشتركت امرأة وصاحبها في قتل رجل فتحرّج من قتل اثنين بواحد حتى أفتاه علي رضي الله عنه بأنهما مستحقان للقتل، كما يستحق اللصوص المتعددون أن يقام عليهم الحد إذا سرقوا لحماً من بعير واحد، فأخذ بفتواه.

●●●

ومن وصاياه للقاضي:«آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيْفك[2] ولا ييأَس ضعيف من عدلك، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرّم حلالاً وأحلّ حراماً، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي[3] في الباطل. الفهم الفهم عندما يتلجلج[4] في صدرك ما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، واعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد[5] إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى،

1- تقدم: تتقدم، وتأخر: أي تتأخر.

2- حيْفك: ظلمك.

3- التمادي: الاستمرار والإصرار.

4- يتلجلج: يتردد ويتحيّر.

5- اعمد: اقصد.

واجعـل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيّنته وأخذت لــه بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء، فــإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العـذر، المسلمون عـدول[1] بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً[2] في ولاء أو قرابة، فإن اللـه قد تولى منكم السرائر ودرأ[3] عنكـم بالشبهات. ثـم إياك والقلق والضجر والتـأذي بالنـاس والتنكر للخصــوم في مواطن الحــق التي يوجب اللـــه بها الأجر، ويحســن بها الذخر، فإنــه مــن يخلص نيته فيما بينه وبــين اللـه تبارك وتعالى، ولــو على نفسه، يكفيه اللـه ما بينه وبين النـاس».

ومــن وصاياه لمن يلون الحكم: الـزم خمس خصال يسلم لك دينك وتـأخذ فيــه بـأفضل حظك: «إذا تقدم إليك الخصمـان فعليك بـالبيّنة العـادلة أو اليمين القـاطعــة. وأدْن الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه، وتعهّد الغريب فـإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله، وإنما ضيّع حقه من لم يرفق به، وآس بــين النـاس في لحْظـك وطرفك، وعليـك بـالصلح بين النـاس مــا لم يستبن لك فضل القضاء».

•••

تلــك نماذج متفرقة من وصاياه للقضـــاة وولاة الأحكام، وهي فيما نراه أحكـم وصايــاه، وأقربهــا أن يتبعها ســواه. ولذلك سبب لا يعســر تعليله. فقد كان عمــر في الجاهلية حكماً من قبيلــة مُحَكّمين، أو سفيراً يسعى بين النـاس بـالصلح من قبيلة سفراء، فهو في هذه الصناعة عريق.

إلا أن المــرء قـد يجلس للحكـم بين النـاس، كما جلس عمـر ولا يّحسِن الوصيــة فيــه كمــا أحسنهــا. وإنما بلا غ حســن الوصية أن تجمــع الخصلتين اللتــين اجتمعتا في وصاياه لقضاته. فما من أحد يستطيع أن يوصي قـاضياً بخــير مما أوصــى، وما من عقدة قضائيــة تـأتي من قبل القضـــاة أو من قبل المتقاضــين إلا وهي ملحوظة في كلامه، وهـاتان همــا الخصلتان البـاديتـان في دستور القضاء كما أملاه.

1– عدول: تُقبَل شهادتهم.

2– ظنيناً: متهماً.

3– درأ: منع العقوبة.

●●●

ولابد أن يلفت النظر في سياسته للولاية وسياسته للقضاء؛ أنه كان يأخذ الواجب حيث وجب، وإن اختلف الواجبان.

ففي الولاية كان يتحرّى البواطن ويمعن في تحريها ولا يكتفي من الناس بالظواهر. وفي القضاء وما شابه القضاء كان يكتفي بالظواهر حتى تنقضها البينة[1] القاطعة، وكان يعلن هذه الخطة على المنبر فيقول:«أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر، فإن من أظهر لنا قبيحاً، وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه، ومَن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً» أو يقول:«إنما كنا نعرفكم بالوحي ينزل، وإذ النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فقد رفع الوحي، وذهب النبي صلى الله عليه وسلم، فإنما أعرفكم بما أقول لكم. ألا فمن أظهر لنا خيراً وأثبنا عليه، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه».

بل كان له في الأخلاق الاجتماعية مذهب ثالث يشبه مذهبه في القضاء، فكان يكره أن يكشف المرء من أخيه ما يستره عنه، وينهى أن تظن بكلمة شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً.

وهذه في الظاهر نقائض، وفي الحقيقة واجبات متعددة كل منها في موضع لازم.

فالعلم بخبايا الحكومة واجب على كل وليٍّ مسؤول لا تنصلح الأحوال بغيره، وفي الغفلة عنه مضرّة محققة لجميع النَاس.

والأخذ بالبيّنة دون الظاهر في شؤون القضاء واجب لا محيص عنه لضمان السلامة ومنع الجور، وهو في أحد طرفيه لا يخلو من الحذر الشديد من الطبيعة البشرية، إذ فيه خشية من غواية الهوى أن تنطلق بالقضاة في الحكم بغير برهان.

وفي الأخلاق الاجتماعية لا يؤمن التقاطع بين الأصدقاء، إذا جرت العلاقة بينهم على التجسس والخدعة، ولا رعاية للمودة ما لم تكن رعاية للحرمات، ومنها الأسرار.

1- البيّنة: الدليل والبرهان.

والتفرقة بين الواجبات المختلفة هي دليل البصيرة في عرفان كل واجب منها، وأنها تصدر عن رأي أصيل ولا تصدر عن تسخير العرف وإملاء التقليد والمحاكاة.

•••

وأنشئت في عهد عمر دواوين أخرى غير دواوين القضاء ودواوين الإحصاء والخراج والمحاسبة التي لم تكن من المؤسسات القائمة قبل عهده. فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط الثغور ومصنع السّكَة لضرب النقود ودار الحبس للعقاب. ووكّل معظم الدواوين إلى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة، وليس من الميسور أن ينصرف إليها فتيان العرب عما هو أولى بهم من فرائض الدفاع والجهاد، فلو وجد منهم من يفي[1] لتلك الأعمال لكانت خسارة الدولة في قيامهم بها أعظم من ربحها، ولكنهم غير موجودين ولا عملهم فيها باللازم للمصلحة الكبرى، وقد يكون عمل الفارسي في مصلحة فارس والسوري في مصلحة سورية والمصري في مصلحة مصر أحرى[2] أن يعصمهم إن كان بهم عاصم وإلا فلا تثريب[3].

ووضع عمر نظاماً لتحصيل الجزية وتصرف في وضعها على حسب الأمم والبلاد. فأعفى التغلبيين بالشام من الجزية، وفرض عليهم بديلاً عنها ضعف صدقة المسلم، لأنهم أنِفوا أن يؤدوها وأزمعوا اللحاق بأرض الروم.

وكان له نظام اقتصادي يوافق مصلحة الدولة في عهده، فكان يحض على التجارة ويوصي القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك. ولكنه أبقى الأرض لأبنائها في البلاد المفتوحة، ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند في الجيش القائم. وإذا أسلم أحد الذميين أخِذت منه أرضه ووزّعت بين أهل بلده وفرض العطاء. وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم، وأن يعتصم[4]

1- يفي: يكفي ويصلح.

2- أحرى: أجدر.

3- تثريب: لوْم وذنب.

4- يعتصم: يمتنع ويتحصّن.

الجنـد الإسلامـي مـن فتن النـزاع علـى الأرض والعقـار، ومن فـتن الدعة[1] والاشتغـال بـالثراء والحطـام. وربما أغضى[2] عن كثير في سبيل الإعانة على تعمـير البلاد بأهلها. فصفح عن أهـل السواد«العراق» ليأمنوا البقاء فيه، مع أنهم حنثوا بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين في أثناء القتال.

ويلـوح من كلامه في أخريات أيامه أنـه كان على نية النظر في تصحيح النظـام الاقتصادي، وعلاج مشكلة الفقر والغنـى على نحو غير الذي وجدها عليـه، فقال:«لـو استقبلت مـن أمري ما استدبـرت[3] لأخذت فضـول[4] أموال الأغنياء فقسّمتها على الفقراء».

ولم يـرد في كلامـه تفصيـل لهـذه النية، ولكـن الذي نعلمه مـن آرائه في هـذا الصـدد كاف لاستخلاص مـا كان ينويه. فعمر على حبـه للمساواة بين النـاس كان يفرق أبداً[5] بين المساواة في الآداب النفسية والمساواة في السنن الاجتماعيـة. فكتـب إلى أبي موسـى الأشعري:«بلغني أنك تـأذن للنـاس جماً غفـيراً[6] فـإذا جـاءك كتابي هذا فـأذن لأهل الشـرف وأهل القـرآن والتقوى والديـن، فـإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة»، ولكنه لمـا رأى الخدم وقوفاً لا يأكلون مع ساداتهم في مكة غضب، وقال لساداتهم مؤنباً: ما لقوم يستأثرون على خدّامهم؟ ثم دعا بالخدم فأكلوا مع السادة، في جفان واحد.

فالمساواة في أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفي التفاضل بالدرجات، ولم يكـن يرضيه كذلك أن يعتمـد الفقراء على الصدقـات والعطايا ويعرضوا عـن العمـل واتخـاذ المهنـة، فكان يقـول لهم في خطبـة: «يا معشـر الفقراء، ارفعـوا رؤوسكم فقـد وضح الطريـق، فاستبقوا الخيرات، ولا تكونـوا عيالاً[7]

1– الدعة: الخفض والرفاهية.

2– أغضى: أغمض عينه وصفح.

3– المراد لو رجع من عمري ما فات.

4– فضول: ما زاد على الحاجة، جمع فضل.

5– أبداً: دائماً.

6– جماً غفيراً: جميعاً، الشريف مع الوضيع في كثرة.

7– لا تكونوا عيالاً على المسلمين: لا تعتمدوا على أن يعولوكم.

على المسلمين». وكان يوصي الفقراء والأغنياء معاً «أن يتعلموا المهنة، فإنه يوشك أن يحتاج أحدهم إلى مهنة وإن كان من الأغنياء».

فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه من أخذ فضول الغني وتقسيمه بين ذوي الحاجة، وهو تحصيل بعض الضرائب من الثروات الفاضلة وتقسيمها في وجوه البر والإصلاح.

على أن عمر يصح أن يسمّى مؤسساً لديوان الوقف الخيري على الوجه الذي نعهده الآن، فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الجياع الذين لا يجدون الطعام، وأصاب قبل خلافته أرضاً بخيبر فاستشار النبي عليه السلام فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بريعها، فجعلها عمر صدقة لا تُباع ولا تُوهب ولا تُورث، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم، ولا جناح[1] على من ولِيَها يأكل بالمعروف، ويطعم صديقاً فقيراً منها.

•••

وعرضت لعمر مسائل التعمير على حسب الحاجة إليها في وقته، فلم تجده مسألة منها دون ما تحتاج إليه من إصابة الرأي وحسن الرويّة. فكانت نصائحه في تخطيط المدن واختيار مواقعها من أنفع النصائح، وكانت دواعيه إلى بنائها من أشرف الدواعي وأليقها بالأمير.

شاهد في الجند هزالاً وتغيُّر ألوان فسأل قائدهم سعداً: ما الذي غيّر ألوان العرب ولحومهم؟ فأجابه: إنها وخومة[2] المدائن ودجلة، فكتب إليه: «إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فابعث سليمان وحذيفة فليرتادا[3] منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر»، وأمر أن تبلغ مناهج[4] المدينة أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين ذراعاً وما بين ذلك عشرين، وألا تنقص الأزقة عن سبع أذرع ليس دونها شيء، وألا يرتفع بناء الدور. فبنيت الكوفة على هذا التخطيط.

1- لا جناح: لا إثم ولا حرج ولا ذنب.

2- وخومة: فساد الجو والبيئة.

3- فليرتادا: فليختارا بعد البحث.

4- مناهج: طرق.

وعلم أن الجند يشكون الشتاء ويعوزهم الملجأ الذي يسكنون إليه بعد الغزو في حدود فارس، فكتب إلى عتبة بن غزوان؛ أن«ارتدْ لهم منزلاً قريباً من المراعي والماء»، ووصف له ما يلتزم من مواقعه وخططه، فبنيت البصرة عند ملتقى النهرين.

وهو الذي أشار على عمرو بن العاص أن يحفر خليجاً بين النيل وبحر القلزم لاتصال المرافق بين مصر وعاصمة الدولة، وضرب له الموعد حولاً يفرغ فيه من حفره وإعداده لمسير السفن فيه، فساقه من جانب الفسطاط إلى القلزم[1]، ولم يأت الحول حتى جرت فيه السفن، وسُمّيَ خليج أمير المؤمنين، ولم يزل مفتوحاً حتى ضيّعه الولاة وغفل عنه الخلفاء.

فسياسته التعميرية وافية بالغرض منها لعصره، وقد يلاحظ عليها أبناء العصر الحاضر شيئاً لا يوافقهم كالحد من ارتفاع الدور والزهد في تشييد القصور. أما هو فالوجه الذي توخّاه في سياسة التعمير؛ أن يحمي الدولة في نشأتها من الترف والبذخ، وأن يحول بين الجند وبين الاستنامة[2] إلى متاع القصور المشيّدة، والصروح الممردة، وما فيها من بواعث الوَهَن والفتور. ومن فلاسفة العصر الحاضر من يحسب ضخامة البناء دليلاً على ابتداء الضعف وعفاء[3] العقيدة، ويقول شبنجلر، أحد هؤلاء الفلاسفة:«إن الأمم في نهوضها تعبر طريقين مختلفين: طريق العقيدة وقوة النفس، وتلازمه بساطة الظواهر وعظمة الضمائر، وطريق الفخامة المادية والوفرة العددية، وفيه تنحل الضمائر وتخلفها العظمة التي تقاس بالباع والذراع، وتقدّر بالقنطار والدينار، وكانت قبل ذلك تقاس بما لا يحس من العزائم والأخلاق. وعمر على كلتا الحالتين، لم يتعد طبائع الأشياء، ولم يأخذ في زمنه بغير الصالح من الآراء.

•••

1– القلزم: مدينة السويس الحالية، وكان البحر الأحمر قديماً يسمّى بحر القلزم نسبة لهذه المدينة.

2– الاستنامة: الاطمئنان والرغبة والرضا.

3– عفاء: انتهاء.

وقصـارى القول؛ إن هذا الرجل لم تواجهه في ولايته الواسعة صعوبة أكبر منـه وأحـوج إلى قـدرة أعلى مـن قدرته أو هيبـة ودراية أجلّ ممـا كان له من هيبـة ودراية، فإذا عُرضت الصعوبـة الطارئة فهناك الحزم اللازم لمواجهتها، والحيلـة الصالحة لتدبيرها، كأنما كان لها على استعداد، وكأنما عاش حياته كلها يتمرس[1] بهذه الأمور.

وكان اضطلاعه[2] بتفريج الأزمات والكوارث كاضطلاعه بتدبير الحاجات إلى التعمـير والتنظيـم. ففي السنة الثامنة عشرة للهجـرة فاجأه قحط الرمادة المشهـور، وهـو القحـط الذي لا يقـال في وصفـه أوْجز مـن قولهم يومئـذ: إن الوحوش كانت تأوي فيه إلى الإنس، وإن الرجل المتضوّر من الجوع كان يذبح الشاه فيعافها لقبحها.

فنهض لهذه الكارثة نهوضه لكل خطْب، واستجلب القوت من كل مكان فيه مزيـد من قوت، وجعل يحمله على ظهره مـع الحاملين إلى حيث يعثر بالجياع والمهزولـين العاجزين عـن حمل أقواتهـم، وآلى[3] على نفسـه لا يأكلن طعاماً أنقـى من الطعام الذي يصيبه الفقير المحـروم من رعاياه، فمضت عليه شهور لا يـذوق غـير الخبـز والزيت، ونظـر في كل شيء حتى في تعليـم كل بيت كيف ينتفـع بالرزق الذي يرسله إليهم مع عماله. فقـال للزبير بن العوام:«اخرج في أول هـذه العير فاستقبـل بها نجداً، فاحْمل إلى أهل كل بيـت قدرت أن تحملهم إليّ، ومـن لم تستطـع حمله فمُر لكل أهل بيت ببعـير بما عليه، ومُرهم فليلبسوا كساءين، ولينحروا البعـير فليحملوا شحمه، وليقدّدوا لحمه، وليحتزوا[4] جلده، ثـم ليأخـذوا كبّة من قديد وكبّة من شحم، وحفنة مـن دقيق فليطبخوا ويأكلوا حتى يأتيهم اللـه برزق».

●●●

1- يتمرس: يتدرب ويتمرن ويعالج.

2- اضطلاعه: احتماله وقيامه

3- آلى: حلف.

4- حزّ الجلد واحتزه: قطّعه.

وهذه السهولة في مواجهة كل حالة بما يوائمها هي التي تبرز لنا «مؤسس الدولة الملهم» في هذا الرجل العظيم.

فكل عمل من هذه الأعمال سهل على القرطاس صعب عند تصورنا إياه، وإحاطتنا بما يستدعيه من تدبير وإنجاز وخلق وهيبة. فكم بين المدينة وتلك الأطراف في زمن أسرع وسائله بعير سريع! وكم عمل عمر لملاحقة كل جيش يسير، وكل بلد يفتح، وكل أمة تحكم، وكل عارض يطرأ على غير رقبة[1] ولا سابقة خبرة؟

تجنيد الجيوش لشتى الميادين وليس بسهل، واختيار القواد على حسب ما يندبون له وليس بسهل، والأمر بكل حركة على حسب كل ميدان وليس بسهل، والسؤال عن قادة الأعداء ومداوراتهم[2] ليستقصي خبرهم، ويعرف ما يقابلهم به من الكيد والعدة وليس بسهل، وإنشاء المدن والعمائر في مواضعها، وإقامة الدواوين عند الحاجة إليها، وإرضاء الأمم والجيوش بالإصغاء إلى شكاياتهم ولو جاءت في غير أوانها، والنهوض للكوارث والأزمات بما ينبغي لها، والمشاورة لمن تسمع منه المشورة بغير ما شكاة، وخدمة الناس في دينهم وخلقهم كخدمته إياهم في دنياهم ودولتهم، وتجدد هذه المتاعب يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام، وهي شاقة لا سهولة فيها على غير صاحبها القدير عليها ولو زاولها عرضاً إلى أيام.

وجليل بعض هذا غاية الجلال لو أن صاحبه قنع منه بالإشراف والمراجعة ولم يعمل بيده فيه كأنه خادم البيت المرهق، وأجير الديوان الصغير، لكنه كما تعلم كان يكدح بيده ويحمل على ظهره ويتعقب[3] بعينه، ولا يدع أحداً من خدّام الدولة الواسعة إلا وهو شريك له في مثل ما يتولاه.

وأكبر ما يستحق الإكبار في هذا الرجل الكبير؛ أنه كان قادراً على

1- رقبة: ترقب وانتظار.

2- المداورة: المحاربة والافتنان في أساليب القتال.

3- يتعقب: يتبع ويفحص.

تأسيس الدول وعلى فتح الأمصار، ولكنه راض[1] القدرتين فلم يقدم على فتح الأمصار إلا بمقدار.

فليس الفتح شهوة عنده ولا المجد الحربي لبانة[2] من لبناته، وهو على علمه بأن الله وعد المؤمنين أن يورثهم الأرض، لم يكن يرى في ذلك داعياً إلى العجلة بالفتح، كما كان يرى فيه دواعي للتبصر والأناة، حتى لا يسفك دم في غير موجب ولا تُعتَسف خطة بغير رويّة.

فكان همه الأكبر تأمين الجزيرة العربية من أطرافها، وحماية الإسلام في عقر داره. ولولا أن الدولة العظمى التي كانت تحدِق بجزيرة العرب تحفّزت[3] للبطش بها، وقمع دعوتها في مهدها، لكانت للدولة الإسلامية سياسة أخرى في مصاولة الأعداء.

فدولة الروم كانت ترسل البعوث إلى تخوم[4] الجزيرة. وتهيّج القبائل لحرب المسلمين منذ عهد النبي عليه السلام، وكان المسلمون يعيشون في فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها. يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبي حيث يقول:«وكنا تحدثنا أن غسان[5] تنتعل النعال لتغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته فرجع عشاء فضرب باباً ضرباً شديداً، وقال: أثمَّ هو؟ ففزعت فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، قلت ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا. بل أعظم وأطول، طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه!».

ومن هذا الحديث يتبين لنا مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار.

أما فارس؛ فقد بلغ بطغيانها أنّ عاهلها غضب من دعوته إلى الإسلام، فأوفد إلى الحجاز رسولاً مع نفر من الجند ليأتيه بالنبي العربي حياً أو ميتاً! ولولا أنه مات قبل إنجاز وعيده واشتعلت نيران الفتن في بلاده،

1- راض: روّض وذلل.

2- لبانة: حاجة ورغبة.

3- تحفّزت: استعدت وتوثبت.

4- تخوم: حدود.

5- غسان: عرب بالشام.

لوطئت الجيوش الفارسية أرض الجزيرة قبل أن ينهض العرب للدفاع. وما هو إلا أن حفظ العرب حدودهم من قبل العراق الفارسي حتى سكنوا إلى ذلك، وودّ عمر بن الخطاب«لو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم»، ولم تتغير خطته هذه إلا حين استوى يزدجرد على عرش فارس، وتأهّب للغارة على المسلمين وإخراجهم من حيث نزلوا، فتجدد القتال».

وقد طال تردد عمر في فتح مصر، ولم ينبعث إلى غزوها حباً ولهجاً[1] بالفتوح، ولولا أن علم أن أرطبون، قائد الروم، في بيت المقدس قد فرّ منها إلى مصر ليحشد فيها الجنود، ويتأهّب للكرِّ على الشام، لطال تردده في الزحف عليها. ومع هذا أوشك أن يسترجع عمرو بن العاص بعد إشخاصه إليها، ونهاه عن الإيغال في المغرب بعد فتحها، لأن السطوة – وهو مقتدر عليها – لم تكن تزدهيه[2] ولا تُغوِيه، ولأن الضن بالأرواح أغلب في طبعه من الشغف بالفتوح، و«أن رجلاً من المسلمين أحبّ إليَّ من مئة ألف دينار!».

فلا يخطئ القائل الذي يقول: إن الأناة في السطو أكبر ما يستحق الإكبار من هذا الخلق الرفيع، وإن دلالته الإنسانية أكبر دلالة يشتمل عليها هذا السجل الحافل بالمآثر.لأنه يرينا القوة كيف تكون نعمة إنسانية عالية ولا تكون لزاماً نقمة من نقم الأثرة والأنانية، ويرينا الرجل كيف يقوى فلا يخافه الضعيف، بل يخافه من يخيف الضعفاء.

وبحق يتزود بهذه القوة مؤسس دولة تقوم على دين، لأن الدولة قد تقيمها القوة الطاغية، أما الدين فلا يهدمه شيء كما تهدمه قوة الطغيان.

إن البأس الذي رُزِقته نفس عمر لحظ عظيم. ولكنه لو كان في يدي غيرها لقد يكون نصيبها منه أوْفى من نصيبها وهو في يدها، فلم يشحذه عمر قط لغرض يخصه دون غيره، ولم يضرب به قط بمعزل عن الإيمان حتى في أيام الجاهلية. فلو لم يقع في روْع[3] عمر أن محمداً أهان قريشاً،

1- لهجاً: اللهج بالشيء الولوع به.

2- تزدهيه: تستهويه وتستحقه.

3- الروع بالضم: القلب والعقل والبال.

وانتقص دينها لما تصدّى له بأذى، ولولا حرمة الإيمان الجاهلي عنده، لما ثار على إيمان محمد وصحْبه.

وغاية ما هنالك؛ أنه فرّق بين إيمان وإيمان، ففي الجاهلية كان إيمانه مضللاً فعقم ولم يأتِ بطائل، وفي الإسلام كان إيمانه رشيداً فأتى بأطيب الثمرات.

•••

قبل أن يقال إن عمر كان أكبر فاتح في صدر الإسلام، ينبغي أن يقال إنه كان يومئذ أكبر مؤسس لدولة الإسلام، وإنه أسسها على الإيمان ولم يؤسسها على الصوْلجان[1]، فكان مؤسساً لها قبل أن يليَ الخلافة، وينفرد بالكلمة العليا، وكان من يوم إسلامه آخذاً في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء.

إن تاريخ عمر وتاريخ الدولة الإسلامية لا يفترقان، فإذا بدأتَ بهذا فقد بدأتَ بفصل من تاريخ ذاك، ولن يطول بك الاستطراد، حتى تثوب إليه كرّة أخرى.

1- الصوْلجان: عصا الملك، فارسي معرب، إذ لا يجتمع في كلمة عربية صاد وجيم، الجمع الصوالجة، والمراد أنه لم يؤسسها على الطغيان والأبهة، وغطرسة الملوك.

عمر والحكومة العصرية

مـن الحقائـق التي لا يحسـن أن تغيب عنا ونحـن نقدّر الأبطـال من ولاة العصـور الغابرة؛ أنهم أبنـاء عصورهـم وليسوا أبنـاء عصورنـا، وأننـا مطالبون بـأن نفهمهـم في زمـانهم وليسوا هـم مطالبين بـأن يشبهونـا في زماننـا، وأن الرجـل الذي يصنع في عصره خير مـا يصنع فيـه هو؛ القدوة التي يقتدي بهـا أبنـاء كل جيـل، ولا حـاجة به إلى اقتداء بنـا، ولا أن يشق حجاب الغيب لينظر إلينـا ويعمل مـا يوافقنـا ويرضينـا.

ويحسن بنـا أن نذكر مع هذا أشكال الحكومات بمرتبة المبـادئ التي تقوم عليهـا، وأن المبـادئ التي تقوم عليها بمرتبة دون مرتبة الروح الإنساني الذي ينبغـي أن يعمّهـا ويتخللهـا، لأن المبـدأ يعيبـه أن يخلو من الـروْح الإنساني، ولا يعيـب الـروْح الإنســاني أن يخالـف المبـدأ في بعض الأحـايـين. فالملكية والجمهوريـة شـكلان من أشكال الحكومة قد يقومـان علـى مبدأ واحد هو مبدأ الحكومـة الشعبية أو الديموقراطية، ولكن العـدل والحرية همـا الروْح الإنساني المقـدم علـى المبدأ وعلـى الشكل معـاً، لأن فقْد المبـدأ والشـكل لا يضيرنـا إذا وجدنـا العدل والحرية. أمـا فقدان العـدل والحرية فهو الذي يضير ولو توافرت المبـادئ والأشكال.

فـإذا عرفنـا العدل بروحه ولبابـه فلا ضير عليه أن تنكـره مبادئ الثورة الفرنسيـة أو مبادئ الوثيقة الكبرى في البـلاد الإنجليزية، أو مبادئ الدستور الأميركـي في أيام آباء الدستور هنـاك، أو مبدأ من المبادئ التي لا تني تتجدد وتتغير كائناً ما كان.

ويحسـن بنـا أن نسـأل أنفسنا كلمـا أعجبنـا بعظيم من عظمـاء العصور الحديثـة: ماذا كان هذا العظيـم صانعاً لو نشأ في القرن الأول للهجرة مثلاً أو القـرن الأول للميلاد ؟ أكان يصنع فيه مـا هو«عصري» في زمـاننا، أم يصنع فيـه مـا هو عصـري في ذلك الزمـان؟ فممـا لا مراء فيه؛ أنـه يخالف عمله في زمـاننا ولا يخالف عمله في زمـانه الذي نشأ فيه، ولا ملامة عليه فيما خالف وفيما وافق، بل اللوم علينا نحن إذ ننتظر ما لا ينتظر، ونقيس على غير قياس.

وإلى جانـب هـذا كلـه، ينبغـي أن نذكر ولا ننسـى أن عصرنـا ليس بخير العصـور! وأننـا لـو ملكنا تبديلـه في كثير من الأمـور لبدلنـاه، وأننا لا نتفق علـى استحسان الحسـن ولا استقباح القبيح فيه، وأن الفـارق الأكبر بينه وبين العصـور الأخرى؛ إنما هو فرق الألفة والاستغراب، فعصرنا مألوف لنا وسائر العصـور مستغربـة في أنظارنا، وكثيراً مـا يكون الاستغـراب عريضاً سخيفاً متعلقاً بالمظاهر والأزياء دون الجواهر وحقائق الأشياء.

أذكـر مـن الصور التي رأيتها في الصحف الأوروبيـة ولا أنساهـا – صورة جامعـة لبعض المشهورين والمشهـورات في أزيـاء عصرنا وأزيـاء العصور السابقـة علـى اختلافهـا – عرضتهـا الصحيفـة وأحسبها كتبـت تحتها: هل تعرف هؤلاء لو مروا بك في الطريق؟

فإذا تأملت الصورة، رأيت فيها يوليوس قيصر في القبعة الطويلة وكسوة السهـرة السوداء، ورأيت كليوباتـرا في زيّ الباريسية العصرية، ثم رأيت أميراً مـن أمـراء هذا الزمـن وحكيماً مـن حكمائه على نمـط التماثيـل التي حفظت لقياصـرة الرومـان وحكمـاء اليونـان. فإذا بـك تستغرب ما تـألـف وتـألف ما تستغـرب، وكأنك على استعداد أن تحادث يوليوس قيصر حديثك للرجل الذي يفهمـك وتفهمـه من الكلمـة الأولى، وعلى حـذرٍ أن تقارب الرجـل الذي مثلته لـك الصـورة في زيّ الأقدمين المخالفين لك في العقيدة والشارة والذوق ونمط التفكير والنظر إلى الأشياء.

هذه صورة نشرت يومئذ للتسلية والفكاهة، ولكنها خليقة أن تعلِّمنا الكثير، وأن تصحح لنا مقاييس المقابلة والتقدير في كل عصر سابق وعصر أخير.

ونحن – إذ ننظر إلى أعمال عمر بن الخطاب نقيسها إلى نظام الحكم في زماننا – واجدون فيها كثيراً من المستغربات التي تحول بيننا وبين تقديرها الصحيح للوهلة الأولى. ولكننا لا نلبث أن نرفع القشرة وننفذ إلى اللباب حتى تزول الغرابة، ونرى في مكانها الحق الخالد الذي تتغير العصور ولا يتغير، بل نرى في مكانها أحياناً ما يصلح كل الصلاحية للتفسير حتى بمبادئ هذا العصر الأخير.

خذ مثلاً أنه – وهو أقدر المالكين في عصره – كان يقنع بالكفاف ويلبس الكساء الغليظ ويهنأ إبل الصدقة – أي يداويها بالقطران – ويراه رسل الملوك وهو نائم على الأرض نومة الفقير المدقع، وتعرض له المخاضة[1] وهو داخل إلى الشام فينزل عن بعيره ويخلع خفّيْه ويخوض الماء ومعه بعيره، ويسافر مع خادمه فيساوي بينهما في المأكل والمركب والكساء.

حاكم من حكام العصر الحديث لا يصنع هذا ولا يطالب بأن يصنعه، وهو وأبناء العصر الحديث على حق فيما ارتسموه من السمت[2] والشارة، لأن حاكم الأمة يحتاج إلى المهابة بين قومه وغيرهم من الأقوام، وهذا حسن مشكور.

ولكن هذه وجهتنا نحن في هذا، فما هي وجهة عمر فيه؟

وهذه حجتنا نحن فيما ارتسمنا، فما هي حجة عمر فيما ارتسم؟

إننا إذا عقدنا المقارنة بين الوجهتين والحجتين، ألفيناه في غنى عن وجهتنا وحجتنا، وأنه كان يصل إلى الغاية التي نرومها نحن من طريق أقوم وأنفذ من الطريق الذي توَخّيْناه، فكان يعيش عيشة الفقراء وأمته وأمم أعدائه أهْيَب له مما تُهاب التيجان في القصور.

وكان عمل الرجل تثبيت سلطان وتثبيت عقيدة هي أساس الحكم قبل كل أساس، فكانت عيشته الفقيرة أعوَن له على تثبيت العقيدة، ثم لا غضاضة فيها على السلطان.

1– المخاضة: موضع الماء بحوْرة الناس مشاة وركبانا.

2– السمت: الهيئة.

وكان يدين نفسه بهذه العيشة ولا يأبى على غيره أن يخالفها، ويقنع باليسير ويعطي الحق الكثير لمن يستحقه على تفاوت في المآثر والأعمال. فلما ندب أبا عبيدة لتوزيع الطعام في عام المجاعة، أعطاه ألف دينار وألحّ عليه في قبولها، ولما قسّم الولايات جعل كل والٍ كفاء[1] عمله من أجر وطعام مكفولاً له مع عطائه الذي يعطاه كسائر المسلمين. وهو الذي خالف أبا بكر في التسوية بين العطيّة لعلمه بتفاوت الحقوق، فقال له: أتسوِّي بين من هاجر الهجرتين، وصلى إلى القبلتين، وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف؟ أتجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه؟ ولقد ظل كلاهما على رأيه حتى قام عمر بالخلافة، فأخذ بمذهب التفضيل وتوفية العطاء حسب الحقوق. أمام المهابة، فمن افتقر من الولاة إلى المظهر فيها لم يمنعه عمر ولم يوجب عليه أن يقتدي به في خصاصته[2] وشظفه، فله من ذاك ما تقضي به مصلحة الدولة حيث كان.

وبهذا يكون الحاكم عمر بن الخطاب قد أدّى «الواجب الحكومي» على الوجه الأقوم، فلا سبيل لأحد إلى أن يؤاخذه فيه بقياس حديث أو بقياس قديم.

فإذا بقي أن نستدل بتشديده في المعيشة على تفكيره أو خلقه فما هي الدلالة التي تدل عليها؟ هل يدل هذا التشديد في محاسبة النفس على شيء يعاب؟ هل هو أدنى إلى النقص أو أدنى إلى الرجحان؟

إن أناساً يشددون على أنفسهم عن كزازة[3] في الطبع وضيق في الحظيرة[4] وعجز عن ملابسة الدنيا، وهذه نقائص تعاب في مقياس الفكر والأخلاق. ولكن هل كانت خليقة عمر بن الخطاب خليقة المرعب المتوجس العاجز الذي يرجع الشظف عنده إلى العجز عن ملابسة الدنيا؟

أعجل الناس بالاتهام لا يتهم عمر بهذا ولا بما يشبهه ويدانيه.

وإنما تدل جملة أخلاقه على أن الخلق الذي ألزمه حياة الشظف، إنما

1- كفاءة عمله: أي ما يكافئ عمله ويجازيه.

2- الخصاصة: الفقر.

3- الكزازة: الانقباض، والمراد التزمت والجمود.

4- ضيق الحظيرة: الحظيرة مأوى الماشية، والمراد «ضيق الأفق».

هـو خلـق قوي يروّض صاحبـه على ما يريد، وليس بخلـق ضعيف يجفُل من التصرف والتكليف إجفال العجز والرهبة والوسواس.

وفي «طبيعة الجندي» التـي قدمنا الكلام فيها التفسير لنظرته في حساب نفسه، وفي الموقف الذي اختار أن يقفه بين يدي الله. فهو يعلم أن اللـه شديد الحسـاب، وأن اللـه رحيم، ولكن الجندي القـوي إذا وقف بين يدي مولاه جعل تعويله على الوفاء بالأمر، وقضاء الواجب في أدق تفاصيله، ولم يجعل معوَله الوحيـد على طلـب الرحمة والصفح عن الخطيئة. فإن جاءه الصفح من مولاه، فليس هـذا بمُعفيه أمام نفسه مـن استقصاء الحساب ولو جـار عليها. فأكرم لطبيعتـه الحـادة القوية أن يجـور على نفسه من أن يترخّص في إعطائها ثم يتعرض للصفح والغفران.

وكان وفـاؤه لحق الصداقة كوفائه لحق اللـه سبباً من أسباب هذا الشظف الـذي عاش عليه بعد النبي وخليفته الأول، فقد أبـى له وفاؤه أن يعيش خيراً ممـا عاشا، وأن يستبيـح – وقد صار الأمر إليه – حظـاً لم يستبيحاه، وكثيراً مـا توسل إليه خاصتـه أن يشفق على نفسه، وأقنعوه بما علمـوا أنه أدنى إلى إقناعـه، وهو أن يتوسع في العيش ليكون ذلك أقوى له على الحق، فكان يقول لهـم: «قـد علمـت نصحكـم. ولكني تركـت صاحبيَّ علـى جادة[1] فـإن تركت جادتهمـا لم أدركهما في المنزل[2]، وكلما نصح له ذووه ومنهم ابنته حفصة، أن يستكثر من الطعام الطيب والنعمة السائغة سألها:

كم كان نصيب النبي من هذا أو من ذلك. وأنت تعرفين نصيبه؟

فيكون السؤال هو الجواب.

ثـم كانت رغبته في إقامة الحجة علـى ولاته وعمّاله سبباً آخر من أسباب شظفه وقناعته بالقليل. فقد يستحي أحدهم أن يخون ليغنىَ وخليفته قانع لا يطمع في أكثر من الكفاف.

وما كان عمر بالذي يجهل ما عرفه الناس من مروءة «الأبّهة والوجاهة» وهـو الذي يعلم مـا جهلوه، ولكنه كان غنياً عنها إيثـاراً لغيرها مما هو أرفع

1– الجادة: وسط الطريق والمقصود طريق الرسول صلى اللـه عليه وسلم وصاحبه أبو بكر.

2– المنزل: المنزلة ومكانة.

منهــا وأدل على المروءة في حقيقتهــا. فكان يقول: «المروءة مروءتان: مروءة ظاهرة ومروءة باطنة، فالمروءة الظاهرة الرياش، والمروءة الباطنة العفاف».

فهو في جملة أحواله يفرض الشظف على نفسه، لأن قوته الخلقية تستطيع أن تريد فتفعل، وتستسهل الجد الذي يصعُب على غيرها. ففيها رجحان يكبره العقل والخلق، وليس فيها نقص يعاب بمقياس التفكير أو مقياس الأخلاق.

إنمــا كان الرجـل يحاسـب غـيره فيعطيـه حقه في غـير بخْس ولا حرج، ويحاسـب نفسه فيؤثر الشدة ليقطع الشك ويـدرأ الشبهة[1] ويقتدي بصاحبيه، ويـترك القـدوة المُثْلى لمـن يليَه، فـلا سبيل عليـه لباحث في نظـم الحكم ولا لباحث في معاني الأخلاق. على أن عصورنا الحديثة تستغرب الشظف من عُمَر وهــي تهلل لملوكها وتكبر لهم حين يستنّون لأنفسهـم سنّته في بعض أوقات الضيـق والمحنة، وهي الأوقـات التي يتنبّه فيها شعور الرعيـة للفارق بينها وبـين راعيها في المعيشة والتكليف. وأكثر ما يكون ذلك في أوقات المجاعات والحروب وشح المئونة على الإجمال.

ففــي الحروب الأخيرة تجاوبت الصحف بالثنــاء على الملوك الذين راضوا أنفسهـم، وراضـوا أسرهم وحاشيتهـم معهم على جراية الحـرب التي توجبها ضـرورات التمويـن، وعـدُّوا من مفاخـر الملوك، أنهـم لا يأكلـون إلا ما تأكله شعوبهـم، وأنهـم لا يرون لهم عزة في الترف الذي يعز على رعيتهم[2]، فاقتدوا بعمـر فيمــا أوجَبَه على نفسه عام القحط[3]، وعلمتهـم الشدة كيف ينفذون إلى الواجب الإنساني من وراء زخارف الحضارة الحديثة.

وشيء آخر يستغربه العصريون في نظام حكومة عمر، وإن كانوا ليتمنون مثلــه لـو استطاعـوه، ونعني بــه طريقتــه في محاسبة الـولاة والعمــال سواء لتحقيق العدل أو لتحقيق الأمانة.

فـكان يجـزي الوالي جـزاء المثل عن كل مظلمــة وقعت على أحـد رعاياه،

1- يدرأ الشبهة: يدفعها ويبعدها.

2- يعز على رعيتهم: يصعب عليهم تحقيقه.

3- عام القحط أو عام المجاعة، وقد سبقت الإشارة إليه.

ويأخذ الوالي بسيئات أبنائه وذويه إن أساءوا وهم مستطيلون[1] بما للولاية من حوْلٍ وجاه.

وكان يحصي أموال الولاة ثم يستصفي ما زاد عليها كلما فشت[2] لهم الفاشية من النعمة لا يخبرونه بمصدرها.

وفي هذا وذاك ضمان للعدل والأمانة يستغربه العصريون، لأنهم لا يألفونه في طرائق الحكومات العصرية.

ولكن، أتراهم يستغربونه لأنه غير حسن أو لأنه غير مستطاع؟

بل لأنه غير مستطاع ولا ريب، أو لأن الحكومات العصرية لا تملك أن تتحرّاه وتنصف في تنفيذه[3].

أما أنه حسن فلا شك في حُسْنه، ولا في أنه أحسن من نظائره بين النظم العصرية، لأن حكومات العصر الحديث قد تحمي الوالي وإن ظلم واعتدى، فلا تسمح بمقاضاته إلا بإذن منها! وقد تحميه مرة أخرى بالإحالة إلى الثقة بالوزارة ومنْع المناقشة في عمله، لأنها هي المختصة بمناقشته فيه، وتعتذر في الحالتين بعذر المحافظة على نظام الدولة أن يهدده ما يهدد مراكز الحكام، ولم يكن عمر يخشى هذا الخطر لأنه أقوى منه، فله هو الحق وعلى النظم العصرية الملام.

أما الطريقة العصرية في ضمان أمانة الحكام فهي، أن تحرم عليهم الدساتير مباشرة الأعمال في الشركات وما إليها، ثم هي لا تأخذ منهم درهماً ولو دخلوا الخدمة صفر اليدين وخرجوا منها بالضياع والقصور والأموال. فمن استغرب الطرائق العمرية في هذا الباب فليستغربها ما شاء وهو يعلم أن الغرابة ليست بعيب، وأن المألوف هو المعيب إن قصّر عن الغرض المطلوب.

وما عدا هذا من اختلاف بين العهدين فقلّما يعدو اختلاف الأسماء وتغيير العناوين، وقلّ أن ينفذ إلى ما وراء القشور. وهذه بعض الشواهد التي تقرب

1- مستطيلون: أي معتزُّون بسلطانهم وجاههم.

2- فشت لهم الفاشية من النعمة: ذاعت وانتشرت، والفاشية كل شيء منتشر من المال كالغنم والإبل وغيرها.

3- تحاول الحكومات على عهدنا أن تتحراه بما تستطيع من وسائل. وقانون «الكسب غير المشروع» ضرب من هذا الصنيع.

أسباب النظر إلى حقيقة هذا الاختلاف.

مـرّ عمر في سوق المدينــة، فرأى إياس بن سلمــة معترضاً في طريق ضيق فخفقه بـالدِّرة وقـال لـه: «أمط عن الطريق يـا ابن سلمة!»[4].

ثــم دار الحوْل[5] ولقيه في السوق فسأله: أردت الحج هذا العام؟ قـال: نعم يـا أمــير المؤمنين، فـأخذ بيده حتى دخل البيت وأعطــاه ستمئة درهم وقـال لـه: يـا ابن سلمة! استعن بهذه، واعلم أنها الخفقة التي خفقتك بـها عـام أول! قـال إيـاس: يـا أمير المؤمنين مـا ذكرتها حتى ذكرتنيها. فـأجابه عمر: أنـا واللـه مـا نسيتها.

فـالنظـم العصرية تحـار في وضع هذه الحادثة في بـاب من أبوابها المرتبة حسب الوظائف والأوامر والمراجعات.

ولكـن مــاذا يصنع جندي المـرور في عصرنـا إذا شــاء أن يميط عن الطريق ويفضـ الزحــام؟ ومـاذا تصنــع المحـاكم في تعويض مـن أصابه الضرب بغير ضرورة؟

إن جندي المرور ليضرب بـالدِّرة وبمـا هو أقسى منهـا، وإن المحـاكم لتعوِّض المضــروب بشيء من مـال الدولـة عن خطأ الجندي والموظفين. وعمر قد عوّض الرجـل مـن مـالـه، كمـا يؤخذ من قول ابن سلمة أنه ذهــب إلى بيته، فـإن لم يكن هــذا المبلــغ من مـال عمر وكـان مـن خزانة الدولة، فقد غرم عمــر كل دين عليه قبـل موتــه، ولم يفـارق الدنيا إلا على ضمـان وثيـق أن يعـاد كل درهم من ديْنه إلى ذويه، وقد يكون الخطأ يومئذ في الحساب لا في تصرُّف عمر بن الخطاب.

ورأى عمــر امــرأة في زيّ استغربه، فســأل عنها فقيل له إنهــا الأَمَة فلانة! فضربها بـالدّرة ضربـات وهو يقول لهـا: يـا لُكعاء! أتتشبهين بـالحرائر[6]؟

وهنــا مجـال واســع للحذلقة العصرية في الكلام علــى «الحرية الشخصية» وعلى حق من يشاء أن يلبس مـا يشاء ويسير حيث يشاء.

ولكـن مـاذا تصنع الحضــارة العصريــة بـالنساء المريبــات اللاتي يتنكرن بـأزيــاء الحرائــر ويأوين إلى البيــوت في أحيـائهن يخرجن معهــن إلى الطريق؟

4- أمط عن الطريق: تنحّ وأفسح.

5- دار الحوْل: انقضى عـام.

6- الحرائر: الأَمَة ضد الحرة والجمع إمـاء، والحرائر جمع حرة، واللكعاء الحمقاء.

وبماذا يختلف شأن النساء المريبات عن شأن الإماء في زمن كن فيه متهمات الأعراض؟

ورأى عمر رجلاً يتبختر ويمشي مشية قبيحة لا تليق بالرجال، فأمره أن يتركها فأبى وزعم أنه لا يطيق ترْكها فجلده. وعاد بعد جلده إلى التبختر فجلده مرة أخرى ثم مضت أيام وجاءه الرجل وقد ترك تلك المشية القبيحة ودعا له: جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين. إن كان إلا شيطاناً[1] أذهبه الله بك.

الحرية الشخصية مرة أخرى!

غير أن عمر في عقوبته هذه إنما كان يعاقب على أمر نهى عنه القرآن وليس له أن يبيحه بحال، فهو قانون يعرفه من أوْقع العقاب ومن وقع عليه ومن شهدوه وأقروه، وكلهم يأبى أن يمشي في الأرض مرحاً ويعدّها من قبائح الآداب.

ولكننا في العصر الحديث نقسم النواهي والأوامر إلى قسم يحاسب عليه القانون، وقسم يحاسب عليه العُرف المأثور. وعقاب العرف حق الأمة وليس بحق الحكومة والقضاء.

وحجة العصر الحديث أن العقاب القانوني هنا غير منصوص عليه وليس النص عليه بمستطاع، وربما فتح الباب للأغراض والأهواء واستبداد الحاكمين إذا استُطيع.

وعندنا أن حجة العصر الحديث في هذا ناهضة لا شك في صدقها، ولكنها إن نهضت فإنما تنهض على العصر الحديث ولا تنهض على عمر ولا على من وثقوا بعدله وأسلموه زمام العرف والقضاء على السواء. فماذا لو استطاع العرف في عصرنا أن يحاسب الناس بالحبس والجلد والغرامة على رذائل الذوْق وقبائح الآداب دون أن تخطئ أو يجور؟ أيأبى الإصلاح وهو آمن عقباه؟ إن أباه فليس صوابه في إبائه بأكبر من صواب عمر في تقريره، وليس على عمر ولا على رعيته جناح أن يطمئنوا إلى عدل يعِيبنا أن نطمئن إلى مثله.

وقد تقدم أن عمر غضب على الحطيئة لهجائه الناس، ونهاه أن يهجو أحداً فضرع إليه الرجل وقال: إذن أموت ويموت عيالي من الجوع، فأنذره ليقطعن لسانه!

1- إن كان إلا شيطاناً: أي ما كان إلا شيطاناً.

ثـم عطف عليه فساومه على ترك الهجـاء بثلاثة آلاف درهم، فسَلِم الناس من لسانه واستغنى عن هذه الصناعة ما عاش عمر ثم عاد إليها بعد موته.

إن أمـين الحسـاب في خزائـن الدول الحديثـة يحار في أي بـاب من أبواب المصروفـات يضـع هذه الدراهـم التي اشترى بهـا هجاء الحطيئـة، ولكنه لا يحـار طويلاً حتى يذكر باب الدعوة وما تنفقه الدول من الملايين ثمناً للثناء والهجـاء، فيضعها هنالك وهو أهدأ ضميراً مما وضع في الباب كله، لأنه مال تنتفع به الرعية وتنتفع به الأخلاق، ولا نفع فيه لذوات الحاكمين.

ولنضـرب أمثلـة مـن طـراز آخر علـى الطريقـة العمريـة التـي يستغربها العصريـون، وهـم مخطئـون في استغرابها أو قـادرون على النظـر إليها كما ينظـرون إلى المألوفات لو أطلقوا عقولهم مـن عقال الصيغ والأشكال، ونفذوا من ورائها إلى الجواهر والأصول.

كان عمـر يعسُّ في المدينـة فسمـع صوت رجل وامـرأة في بيـت، فتسوّر الحائـط فـإذا رجل وامراة عندهم زقٌّ خمر[1] فقال: يا عـدو اللـه! أكنت ترى أن اللـه يسترك وأنت على معصية؟ فقال الرجل يا أمير المؤمنين: أنا عصيت اللـه في واحـدة وأنت في ثـلاث، فاللـه يقول: «ولا تجسسوا» وأنـت تجسست علينا، واللـه يقول «وأتوا البيـوت من أبوابها» وأنت صعدت مـن الجدار ونزلت منه، واللـه يقول «لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها» وأنـت لم تفعـل ذلـك. فقال عمر: هل عنـدك من خير إن عفوت عنـك؟ قال نعم، واللـه لا أعود. فقال: اذهب فقد عفوْت عنك.

مـا أسرع ما تقول الحذلقة العصرية وهي مستريحـة البال: هذه بدوات[2] البادية في حكمها. تجسس ثم محاجّة جدلية، ثم نزول عن عقاب. وهي «طريقة تعوزها الإجراءات الرسمية» التي نحن عليها حريصون وبها جدّ فخورين!

لكن ما القول في مطابقة هذه الطريقة كل المطابقة لما يجري عليه النظام الحديـث في إجراءاته الرسمية بغـير استثناء؟ فالدساتير الحـرة تمنع الرقابة وفض الرسائـل واستباحـة الأسـرار. والحكومات مع هـذا المنـع الدستوري

1- الزق: السقاء «الإناء».

2- البدوات: جمع بداة وهي الرأي الذي صح.

تضطر إلى استطلاع الأحوال واتقاء الجرائم بمراقبة المتهمين وذوي الشبهات. فإذا اتفق في حادث من الحوادث أن استباحت سراً يدل على جريمة محظورة، فماذا يكون من سيْر الإجراءات الرسمية؟ يكون ما كان من عمر في الحدث الذي رويْناه بغير اختلاف. فالقضاء لا يأخذ بدليل يمنعه الدستور، ولا تثبت عنده الجريمة إلا بدليل مشروع، والحكومة تضطر هنا إلى السكوت ومتابعة الحالة حتى تُسْفِر عن بيّنة يجوز لها أن تعتمد عليها أمام القضاء. وما هي فيما تصنع من هذا القبيل أعجز من عمر فيما صنع، لأنه جعل الاستطلاع سبيلاً إلى العِظة والتوبة، واستغنى عن الإجراءات الرسمية التي نحن عليها حريصون وبها جد فخورين!

ونقترب من حادث تطول فيه الألسنة العصرية أبعد مما طالت في شتى الحوادث التي قدمناها، ونعني به كتابه الذي خاطب به النِّيل يوم قيل إنه أمسك عن الفيضان.

فقد زعم المؤرخون أن أهل مصر ذهبوا إلى عمرو بن العاص في شهر بؤونة، فأخبروه أن للنيل عندهم سُنَّة قديمة لا يجري إلا بها، وهي «أنهم إذا كانت ليلة ثلاث عشرة من هذا الشهر، عمدوا إلى جارية بِكر بين أبويها فحملوا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقوا بها في النيل». فلم يُجِبْهم عمرو إلى ما سألوه وقال لهم: هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله. فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرِي لا يجري فيها النيل قليلاً ولا كثيراً، ثم رفع عمرو الخبر إلى عمر فاستصوب ما صنع وكتب له: إني بعثت إليك بورقة مع كتابي هذا فألقها في النيل. وفي الورقة كتاب يخاطب به النيل يقول فيه: «من عبد الله عمر إلى نيل مصر. أما بعد، فإن كنت تجري من قِبَلَك فلا تجرِ، وإن كنت تجري من قبل الله فنسأل الله أن يجريك».

وقال رواة هذه القصة: إن عمْراً ألقى بالورقة في النيل قبل يوم الصليب بشهر، وقد تهيّأ أهل مصر للجلاء والخروج، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً[1]، واستراحوا من ضحاياه في ذلك العام وفيما بعده من الأعوام.

والرواية على علاتها قابلة للشك في غير موضع عند مضاهاتها على

1- ذراع القياس تؤنث كثيراً وتذكر قليلاً.

التاريـخ. وقـد يكون الواقع منهـا إن وقعت دون ما رواه الـرواة بكثير. ولتكن علـى هذا صحيحـة بحذافيرهـا، فما الغضاضـة فيها على العلـم الحديث، ولا نقول على العقل «البدوي» قبل نيف وألف سنة؟

إن عمـر لم يجـد أهل مصـر مُعَوّلـين في فيضـانهم على القنـاطـر والسدود وفنـون الهندسـة، فـأبى عليهـم أن يعوّلوا عليها، ولكنـه وجدهم معولين على خرافـة يعافها العقـل والشعور فـأنكرهـا، وحُق لـه أن ينكرهـا، ولم يقل لهم إن ورقتـه الملقـاة في النيـل هـي التي تجريه، بـل قـال لهم إن النيـل ليجري بغير تلـك السُّنَّـة التي استنُّوهـا لـه، وبغير القربـان الـذي يتقربون به إليه، وليس في هـذه القصة كلها مـا يُستغرَب من حاكم عصري مؤمن بـاللـه مُنكر للخرافات. فورقـة عمـر أقرب إلى العقل في زمـاننا هذا مـن الكئوس والقوارير التي تكسر في الأنهـار عند فتح قناطرهـا وجسورهـا، وأقرب إلى العقـل من البخور الذي يحترق في البِيَع[1] والهياكل جلباً للفيضـان واستغاثة بـالسماء.

ونحـن لا نعرض لهـذه الأشتات من طريقة عمـر في حكومته لأنها هنـات تلجِئ المعجب به إلى دفـاع وتسويغ، وليس في كل هذه الأشتات وأشبـاهها ما يلجِئ عمر ولا المعجبين به إلى دفـاع أو تسويغ.

وإنمـا عرضنـا لهـا توسعة لأفق النظـر إلى العظمـة الإنسانية في مختلف أزمـانهـا، واستخفافـاً بـالغرائـب التي تخلقها العـادة العـارضـة لعبادهـا، ثم هـي لا تستحق من هوانها أن نخسر مـن أجلها شعورنـا بعظمة الإنسان وإنها لأنفس مـا نصونه ونعتز به في جميع الأزمـان.

عـدل عمر نخسـره لأنه كان يقضي فيـه بغير «استمـارة» مدموغة ينص عليهـا قـانون المرافعات! أو لأنه كان يقضـي فيه قضاء على غير «الإجراءات العصريـة» في مواجهـة الحقـوق الشخصيـة! أو لأنـه كان يقضـي فيه قضاء يختلف الفقهاء في عنوانه وفي الرفّ الذي يضعونه عليه بين رفوف الأضابير!

يـا لها من حماقة تخجل العصر الحديـث! تخجله وهو واقف بين العصور يتطاول عليها بتسخيف الحماقات وإدحاض الخرافات.

1– البِيَع: الكنـائس.

عمر والنبي

ينــدر أن يظفــر البـاحثون في طبائــع الإنسان بمغْنم نفسي هــو أوْفر ثمرة وأنفس محصــولاً مــن دراسة عمر بــن الخطــاب، لأن الظواهــر المختلفة التي تتجلّى في هذه النفس العظيمة ليست من ظواهر كل يوم ولا ظواهر كل دراسة، ولأن اتفاقهــا البسيــط مع تركيبها العجيــب مما يتعذر جــداً في النفوس التي نعهدهــا، مما يتعذر جداً حتى في نفوس الأفذاذ من العظمـاء.

بيد أن المغنم الأكبر في هذه الدراسة، إنمـا هو مغنم علم الأخلاق. لأن علم الأخــلاق أحوج إلى الاستقلال بـالظواهر الطبيعية، وأفقر إلى الإسنـاد والدعـائم التي تقيمها أمثـال هذه الدراسات.

فــكل نفــس – عظُمــت أو صغُرت – دراستهـا مغنم لعلــم النفس لا شك فيــه، كائنة مـا كانت النتيجة التي تتأدّى إليها من بحث خفـايـاهـا وتنظيم شواهدهـا.

لكن الوصول إلى نتائج علم الأخلاق هـو الصعب الجديد الذي لن يزال اليوم وبعد اليوم صعباً وجديداً إلى أمد بعيد.

فـالمفروض أن نتائج علم الأخلاق «فكرية تكليفية» يستنبطها الفكر الذي يختلــف في صوابــه كما يختلف في خطئــه، ويمليها التكليــف الذي يطاع ولا يطاع، ويراض عليه الإنسان رياضته على الأمر الغريب«الأجنبي» عن نوازع الطبـاع.

فـإذا اهتدينا إلى نفس تعـزز تلك النتائج الفكرية التكليفية التي هى أقرب إلى الآمال المنشودة منها إلى الوقائع الموجودة فقد ظفرنا بمغنم كبير.

وإذا ظفرنا بحقيقة نفسية هي في الوقت نفسه حقيقة فكرية وحقيقة خلقية، فذلك هو المغنم المضاعف الذي قلما يُنال.

ونفس عمر بن الخطاب هي تلك النفس التي تدعم علم الأخلاق من الأساس، وهي ذلك الصرح الشامخ الذي ننظر إلى أساسه، فكأننا تسلفنا النظر إلى ذروته العُليا لأنه قرّب بين الآمال والقواعد أوجز تقريب، إذن هو التقريب الملموس.

آمال كثيرة من آمال محبِّي الخير ودعاة الإصلاح هي في نفس عمر بن الخطاب وقائع مفروغ منها، كأنها وقائع المرئيات والمسموعات.

فمنها فيما أسلفناه، أن القوة لا تناقض العدل في طبيعة الإنسان بل يكون العدل هو القوة التي تخيف فيخافها الظالمون.

ومنها فيما نحن بصدده الآن، أن القوة لا تناقض الإعجاب على خلاف ما يتبادر إلى الأكثرين.

فإن الأكثرين يحسبون أن الرجل الذي يعجب به الناس لا يعجب هو بأحد، وأن البطل الذي يقدسه عشاق البطولة لا يعشق البطولة في غيره، وأن التطلع إلى الأعلى صفة ينطبع عليها الصغار ليرتفعوا بعض الارتفاع، ويحسِنوا الخدمة والعوْن للكبار، ولكنها صفة ينفر منها الكبير ويحس فيها الغضاضة أن يصغر إلى جانب المتفوقين عليه، ممن هم أكبر قدراً وأحق بالإعجاب.

لكن البطل الذي ندرسه هذه الدراسة ينقض ذلك الحسبان أقوى نقض مستطاع، لأنه بطل يروع ويعرف روْعة البطولة. ويستحق الإعجاب غاية استحقاقه، ثم يخيّل إليك من فرْط ولائه لمن يفوقونه أنه خلق للإعجاب بغيره، ولم يخلق ليكون هو موضع إعجاب.

فعمر كان يحب محمداً حب إعجاب، ويؤمن به إيمان إعجاب، ويستصغر نفسه إذا نظر إلى عظمة محمد، وما هو فيما خلا ذلك بصغير في نظر نفسه ولا في نظر الناس.

كان محمد عليه السلام كما نعلم قدوة في الدِّعة وحسن المعاملة لجميع صحبه وتابعيه، وكان يعاملهم جميعاً معاملة الإخوان والزملاء، فلا يغمرهم

برهبـة التفاوت الشاسـع والتفوق البعيد. فلـو جاز أن ينسى أحـد فارقاً بينه وبـين عظيم لنسي أصحاب النبي هذا الفارق بمـا يلقوْنه من مساواته وحُسن معاملته، ولو نسياناً إلى حين.

إلا أن عمـر «العظيـم» سمع مرة مـن صديقه محمد عليـه السلام كلمة «يا أخي» فظل يذكرها مدى الحياة.

استأذنـه في العمـرة فأذن له، وقـال: «يا أخي لا تنسَنا مـن دعائك». فما زال عمر يقول بعدها كلما ذكرها: «ما أحب أن لي بها ما طلعت عليه الشمس، لقوله يا أخي!».

شهـادة لعظمة محمد أن يؤاخـي النـاس كباراً وصغـاراً، وأن النـاس كباراً وصغاراً لا ينسوْن ما في مؤاخاته من فخر وغبطة، وما بينهم وبينه من فارق بعيد.

وشهـادة لعظمـة عمر أنه أهل لذلـك الإخاء، لأنه يدرك مـا فيه من عظمة، ويشعر بما فيه من رضوان.

وما يدريك ما عمر الذي يشيع في قلبه الفرح بهذا الإخاء؟

ليس بالرجـل الذي يحب تواضـع المرائين، وليس بالرجل الـذي يجهل مقداره أو يهاب مخلوقاً بغير الحق، وبغير الإعجاب.

عمـر هـذا هو الـذي تـولّى الخلافـة وحجتـه الأولى في ولايتها، أنـه أكفأ المسلمين لها غير مدافع، وأنه كما قال: «لو علمت أن أحداً أقوى مني على هذا الأمر لكان أن أُقدم فتُضرب عنقي[1] أحبَّ إليَّ من أَلِيَه»[2].

نعم هو عمر أقدر المسلمين كما يعلم، وهو عمر الذي يستصغر نفسه إذا نظر إلى المثل الأعلى والقدوة الفُضلَى، وهو إذن أكبر ما يكون بهذا الاستصغار.

لقـد كان يسمع وهو خليفـة يقول كالساخر وما هو بساخـر: «بَخٍ بَخٍ[3] يا ابن الخطاب. أصبحت أمير المؤمنين!».

أكان يقولهـا لأنه كان يجهل أنه أكفأ العـرب للخلافة بعد صاحبيه؟ كلا.

1- العنق: يُذكّر ويؤنث.

2- أَلِيَه: مضارع من وَلِيَ الأمر فهو يليه وأنا أَلِيَه.

3- بخٍ: كلمة تقال عند الرضا بالشيء.

بـل كان يقولهـا لأنه يعرف النظر إلى المثل الأعلى. يعرف الإعجاب بما فوقه، يعرف محمداً ويعرف أن اللحاق به أمل لا يُطال، يعرف الإعجاب بطلاً معجباً ببطل، ويشاء فضله أن تُحصَى له هذه بين أصدق شواهد البطولة.

ومـن الخطأ أن يتوهم المتوهـم أن عمر كان يتصاغر لأنـه يشعر بصغره، ويتواضع لأنه يشعر بضِعَةٍ فيه.

إن الصغـير لا حاجـة بـه إلى تصاغـر لأنـه صغـير، وربما كانـت حاجته الكـبرى إلى مداراة شعوره الداخلي بتفخيم الـرواء، وتزويق الطلاء، والتخايل بـالمسكن والكساء.

وإنمـا كان عمر يتصاغر لأنـه يشعر بعظمته ويكبح ما يخامره من اعتداد بنفسـه، ومحـال أن تمتلـئ نفس بمثـل هذه القوة ثـم تخلو من شعـور بقوتها واعتداد بقيمتها. فليس ذلك من معهود الطباع في حيٍّ من الأحياء، ولا نقصر القول على الإنسان.

ولهـذا كان عمر يتصاغر على قدْر ما يراه من بواعث الكبرياء، لا على قدْر مـا يراه من بواعث الصغـر، فأبى أن يركب البرذون[1] وهـو يغالب عِزّة الفتح داخـلاً إلى الشـام دخـول المنتصر، وقيل لـه في ذلك فصاح بهـم: خلوا سبيل جملي! إنما المرء من هـا هنـا، وأشار إلى السماء!

وكلمـا اعتـز مَن حوله مـن خاصة أهلـه وخلصاء رعاياه بمـا يرونه فيه مـن بسطـة السلطان وعلـوّ الكلمة، غض مـن اعتزازهم وأحضـر في أذهـانهم مـا يُنْسيهم السلطـان المبسوط والكلمة العالية، فقـال لأصحابه يوماً وقد مر ببعض الشعاب[2] على مقربة من مكة: «لقد رأيتني في هذه الشعاب أرعى إبل الخطاب، وكان غليظاً يتعبني، ثم أصبحت وليس فوقي أحد!».

وضايقـت هـذه الكلمـة ابنـه فقال لـه: «مـا حملك على مـا قلت يـا أمير المؤمنين؟» قـال: «إن أباك أعجبته نفسه فأحبّ أن يضعها»[3].

وانظـر هنـا إلى كلمـة «أمير المؤمـنـين» يقولها الابـن، ثم انظـر إلى كلمة

1- البرذون: ضرْب من الدواب يخالف خيل العراب، عظيم الخلقة غليظ الأعضاء.

2- الشعاب: جمع شِعب «بكسر الشين» وهو انفراج بين الجبلين أو هو الطريق.

3- أن يضعها: أن يقلل من شأنها.

«أباك» يقولها أمير المؤمنين.

ومن قبيل هذا، ركوعه لله ذليلاً خاشعاً يوم أمر أبا سفيان أن ينقل الحجر من مكانه فنقله، فخشع لله الذى جعله يأمر أبا سفيان في شعاب مكة فيستمع لما أمر.

وليس هذا وأشباهه تصاغراً يكشف الصغر، إنما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها، ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد.

•••

بل يشاء بأس هذا البطل أن تتمادى فيه الصفات إلى غايتها وهي متناقضة في النظرة الأولى، فإذا بهذا التمادي يردها إلى الوفاق والتكافؤ ولا يوسّع ما بينها من ظواهر الاختلاف.

فمما رأيناه، أنه عادل يفوق العدول، وقويٌّ يفوق الأقوياء، فإذا العدل والقوة فيه وفقان متساندان لا يختصمان ولا يتناقضان.

ومما رأيناه أنه بطل تعجب بطولته الأصدقاء والخصوم، ثم هو في إعجابه بالبطولة كأنه خلوٌّ من دواعي الإعجاب.

وبقي من موافقاته النادرة، أن الإعجاب عنده لا ينقض الاستقلال، ولا يهدد «الشخصية» بالفناء والزوال، فيعجب بمن يفوقه غاية الإعجاب، ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ، ولا يتناقض الأمران.

فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر. ولم يكن أحد مستقلاً برأيه في مشورة محمد أكبر من استقلال عمر. فهو آية الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأي عند ذي الرأي الصريح.

فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبي عليه السلام برأيٍ يراه، ولو كان ذلك الرأي من أخص الخصائص التي يقف عندها الاستقلال.

فمحمد في بيته وهو صاحبه، ومحمد في شريعته وهو صاحبها، كان يستمع إلى عمر حين يقترح وحين يستنزل الأحكام، وحين يستدعي الوحي في أمر من الأمور.

فكان يشير على النبي عليه السلام أن يحجّب نساءه، ويبلغ ذلك إحدى أمهات المسلمين زينب فتقول له: إنك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل علينا في بيوتنا! وتخرج إحداهن سوْدة، وهي تحسب أن أحداً لا يعرفها لاستتارها

بـالظـلام، فيعرفها بطول قـامتها ويناديهـا «عرفتك يا سوْدة!» ليؤكد ضرورة الحجاب، فيؤمر المسلمون بعد ذلك ألا يسألوهن إلا من وراء حجاب.

ولما همَّ النبى عليه السلام بـالصلاة على عبد اللـه بن أُبَيّ، كبير المنـافقين يـوم وفـاتــه، تحوّل عمر حتــى قـام في صــدره، وأخذ يذكّره مســاوئ عبد اللـه وأقـاويلـه في النكايــة بـالإسـلام، وحُكم القرآن فيــه وفي أمثـالــه أن «استغفر لهـم أو لا تستغفـر لهم إن تستغفر لهم سبعـين مرة فلن يغفر الله لهم» وألحّ في التذكـير حتى أكثر على النبي عليه السلام وهو يبتسم ويقول له: «أخّر عني يا عمـر، لـو أعلم أني إن زدت علــى السبعين غُفِر له زدت»، ثــم صلى عليه ومشى معه حتى فرغ من دفنه. ثم ما كان إلا يسيراً كما قال عمر، حتى نزلت هـاتـان الآيتـان «ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره».

وروى أبو هريرة عن النبي عليه السلام، أنه أنفذه رهط المسلمين فقال له: اذهــب إليهــم «فمن لقيت من وراء هذا الحـائط يشهـد أن لا إلـه إلا اللـه مستيقنـاً بهــا قلبه فبشّره بـالجنــة»، فكان أول من لقِيَ عمر، فصــدّه وعـاد به إلى النبي يسأله: «يـا رسول الله بـأبي أنت وأمي، أبعثت أبـا هريرة من لقي يشهد أن لا إله إلا اللـــه مستيقنــاً بها قلبه بشّره بـالجنة؟». قــال النبي: «نعم» فلم يتريّث عمر أن قــال: «فلا تفعل يــا رسول اللـه! فإني أخشى أن يتّـكل النـاس عليها. فخلّهم يعملون»، فوافقه عليه السلام وقـال: «فخلّهم».

وفي التشريــع أو التحليـل والتحريم كان عمر لا يقنع حتى يصل إلى القول الفصـل فيمــا يستفسر عنه ويــتردد في حكمه، فما زال يســأل عن الخمر حتى حُرِّمــت وبَطُـل فيهــا الخلاف. وهــو الذي كانت الخمــر شهوة لــه في الجـاهلية يحبهــا ويكثر منهـا، ولو شاء لالتمس الرخصة فيهــا، ولم يكثر من السؤال عن تحريمها، ففي سؤاله عنها وحذره منها فضل أكبر من فضل الاستقلال بـالرأي والإخلاص في المراجعة، وهو فضل الغلبة على النفس والتحصُّن من الغواية بـالأمر الذي لا هوادة فيه.

وجـرى صلح الحديبية الذي كان ظاهر الغُـبْن فيه على المسلمين، وظاهر الفوز فيه للمشركين. فيستطيع قـارئ التـاريخ قبل أن يحصيَ أسمـاء المعـارضين للصلــح والصـابريــن عليه، أن يعلـم أين كـان عمر بين الفريقــين، فقد غمّه هذا الصلح غماً شديداً، وذهب إلى أبي بكر يراجعه ويـنـاجيه: علام نعطي الدنيّة في

ديننــا؟ فـأجابـه أبو بكر: يـا عمر الْزم غـرْزك، أي رحلك[1]، فـإني أشهد أنه رسول اللـه. ورد عمر أنه ليشهد أنه رسول اللـه، ثم ذهب في بعض الروايات إليه عليه السـلام فسألـه: ألسنا يـا رسول اللـه على حق وهم على بـاطل؟ أليس قتلانـا في الجنــة وقتلاهــم في النـار؟ ورسول اللـه يجيبه: بلــى! بلى! فيعود ويسأل: علام نعطي الدنيّة في ديننا ونرجع ولمّا يحكم اللـه بيننا وبينهم؟

فلمــا نــاداه: ابن الخطاب! إني رســول اللـه! ولن يُضَيّعني اللـــه أبداً، ثم علم بـأنه الفتح المنتظر، ثـاب إلى الرضى وكفّ عن السؤال.

والمحنة على مـا هـي عليه أعظم ممـا يطيقه صبر عمر، وتسكُن إليه سوْرة[2] طبعــه. فمن شروط الصلح أن يرجع المسلمون عـامهم ذاك، ويردوا مَن جاءهم من قريش ولا ترد إليهم قريش أحداً ممَّن يجيئون إليها، وأن يكتب النبي اسمه في عقد الصلح، فلا يكتب فيه أنه رسول اللـه، وهذه محنة وردت على حميّة[3] عمـر بـالـوارد الجلل الذي ليسـ أقسى منه ولا أمْكر على هـذه الحمية العَزوف. ولكـن الصلح لم ينته حتـى تفاقمت المحنة وادلهَمَّت الغـاشيــة كأن مـا ابتلاه منها لا يكفيه. فبينما يكتبون إذ جـاء أبو جندل بن سهيل، يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول اللـه. فقـام إليه سهيل[4] وكـان وكيل المشركين في عقد الصلح فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ليدفع به إلى قريش، وأبو جندل يصيح: يـا معشر المسلمـين، أأُردّ إلى المشركـين يفتنوننــي في ديني؟ فواســاه النبي ودعـاه إلى الصبر والاحتساب[5]، ووثب عمر إليه يمشي إلى جنبه ويدني منه قـائم السيف، ويقــول لـه: اصبر يـا أبـا جندل فـإنمـا هم المشركـون، وإنمـا دم أحدهم دم كلب. ورجــا كمـا قـال بعد ذلـك أن يـأخذ أبو جندل سيفه فيضرب بـه أبـاه. قـال: ولكن الرجل ضنّ بـأبيه ونفذت القضية.

فـالمحنــة أعظـم ممـا تطيقــه الحمية العمريــة بغير وازع مــن هداية نبوية.

1- الرّحْل: كل شيء يُعد للرحيل من متـاع ومركب..إلخ.

2- سوْرة الغضب: وثوبه، وسورة السلطان سطوته واعتداؤه.

3- الحمية: الأنفة، والمراد أنها نزلت على أنفة عمر وكبريـائه نزولاً عظيماً.

4- سُهيْل: هو أبوه.

5- الاحتساب: الصبر وادخار الأجر عند اللـه على هذا الصبر.

ولأْيامـا[1] سكنت نفسه واطمأنت إلى حكمة سيـده ومعلمه وهـاديه. ولا سيما حين نـاداه: ابن الخطاب! إني رسول اللـه ولن يضيعني اللـه أبداً.

هـذه المراجعة كانت من خلائق عمر التـي لا يحيد عنها ولا يأباها النبي عليـه السـلام، وكثيراً ما جـاراه واستحب ما أشار به وعارضـ فيه. فلا جرم يراجـع النبي في كل عمل أو رأي لم يفهم مأتـاه ومرماه ما أمكنته المراجعة، وما قلقت خواطره حتى تثوب إلى قرار.

اللهـم إلا أن تستعصي المراجعـة ويعظم الخطر فهنا تأتي الخليقة العمرية بآية الآيات من الاستقلال والحب والحزم الذي يضطلع بجلائل المهمات. فلما دخـل النبي عليه السلام في غمرة المـوت، ودعا بطُرْس[2] يملي على المسلمين كتابـاً يسترشـدون به بعـده، أشفق عمر مـن مراجعته فيمـا سيكتب، وهو جد خطـير، وقال: إن النبي صلى اللـه عليـه وسلم غلبه الوجع، وعندنا كتاب اللـه حسبنا[3]. ومال النبي إلى رأيه فلم يعد إلى طلب الطرس وإملاء الكتاب. ولو قد علم النبي أن الكتاب ضرورة لا محيص عنها لكان عمر يومئذ أول المجيبين.

وكانـت هذه سنته في حيـاة النبي وبعد موته في كل عمل لا يستريح إليه، فلـم يُحجـم عن مراجعة أمره حيـاً وميتاً في مسألة ليست مـن مسائل الوحي الـذي فيه فصل الخطاب، وما كانت المسألة مسألة رأي فهو ناهض لها برأيه حتى يؤمن بخطئه أو يرده عن المعارضة أمر مطاع.

كذلـك صنع في قيادة أسامـة بن زيد، قائد الجيش إلى البلقاء، وفيه جُلّة الصحابـة مـن كبار السن والمقام. فقد ولاه النبـي القيادة ومات عليه السلام وهـو في الطريق، فقـال أسامة لعمر: «ارجع إلى خليفة رسـول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فاستأذنه يأذن إليّ أن أرجع بالناس، فإن معي وجوه النـاس[4]، ولا آمـن على خليفة رسـول اللـه، وثقل[5] رسول اللـه، وثقل المسلمين أن يتخَطّفهم

1– لأياما: اللآي الشدة والمشقة، يقال فعل ذلك بعد لأي، ولأياً عرفت الشيء، أو لأياما.

2– الطرس: الصحيفة.

3– حسبنا: يكفينا.

4– وجوه الناس: أكابرهم.

5– الثقل: الحشم والمتاع.

المشركـون»»، وقـالت الأنصـار: «فـإن أبـى إلا أن نمضي فـأبلغه عنّـا واطلب إليه أن يولّي أمرنـا رجلاً أقدم سنًّـا من أسـامة».

وغضب أبو بكر وكان جالساً فوثب وأخذ بلحية عمر وهو يهتف بـه: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول اللـه وتـأمرني أن أنزعه؟

فوجبت الطاعة، لأنه أبرأ ذمته بـالمراجعة، وسمع أمر الرئيس الذي لا رجعة فيه، وعمر جندي متى صرح[1] له الأمر من صاحب الأمر لم يبق إلا أن يطيع.

وخُتِمَـتْ سنـة النبي بوفـاته فلم يكن بين الصحـابـة أحد أحرص على هذه السنـة وألزم لهـا وأكـثر رجوعاً إليهـا من عمر. ولم تكن لـه وصية مقدمة على الأخذ بكتـاب اللـه وسنة رسوله. إلا أنه مع هذا لم يكن يغفل عن العلل إذا وجب البحـث عـن العلة التي وراء السنة النبوية، فخالـف أبا بكر رضي اللـه عنه في إقطاعـه الأرض لعيينة بن حصن والأقـرع بن جابس وقال لهمـا: إن رسول اللـه كان يتـألفكمـا[2] على الإسلام، وهو يومئذ ذليل، وإن اللـه قد أعز الإسلام «فـاذهبا اجْهدا جهْدكما».

فقـد علم سنة النبي مـع «المؤلفة قلوبهم» ولم يغفل عـن سببها ومؤقتها، فهـي سنـة تُطاع لحمتها ولا توضـع في غير موضعها، وليس على المسلمين حرج أن يختاروا للمؤلفة قلوبهم معاملة غير التي ألفوهـا من صاحب الرسالة، إذا تغـيّرت الحكمـة واختفـت العلة، واستغنـى الإسلام عن نـاصريـن تتألفهم العطايا والأنفـال[3].

ولمثل هذا السبب ولا شك نهى عن زواج المتعة ونهى عن التحلل من بعض مناسـك الحج ولم يكـن منهياً عنهمـا كل النهي في حياة النبـي عليه السلام. فـكان الرجـل يتزوج بـالمـرأة لأجل معلوم ثـم يتركهـا. وكان منهم من ينوي الحج ثم يتحلل من بعض مناسكه، فنهى عمر في أيام خلافته وقال: «متعتان كانتـا على عهـد رسول اللـه صلى اللـــه عليه وسلم، أنا أنهـى عنهما وأضرب عليهما».

1– صرح الأمر: وضح.

2– يتألفكما: يعطيكما ليستميل قلوبكما.

3– الأنفال: جمع نفل وهو الغنيمة.

وموافقــات عمر للقرآن وللسنة كثـيرة لا يدعونـا المقام هنـا إلى إحصـائهـا واستيفـائهـا، وكذلك مراجعاته ومنـاقشاته فيمـا يرد عليه من أحكام لا تنجلي مـآثرهـا ومراميهـا، فحسبنـا منهـا دلائل استقلالـه وصراحة عقلـه فيمـا سردنـاه، وحسب الإسلام فخراً أن يؤمن بـه الإنسان إيمـان عمر، ثم يستقل برأيه وطبعه استقــلال عمر. فـالإيمـــان في أقصاه لا يعطل الــرأي المستقل في أقصـاه، وكل صفة في عمر فهي صفة مستقصيَة لا وسط فيهـا. إذا آمن فذلك غـاية الإيمـان، وإذا استقل فذلك غـاية الاستقلال، وإذا أعجب فذلك غـاية الإعجـاب. وإن الظفر الــذي يظفره علم الأخلاق مــن دراسته لمبعثه هذا الشاهد مــن الصفات التي تتنـاقضـ في ظاهرهـــا وهي على عهدنـا بهـــا في عمر متفقـــات متسـاندات لا تستغني واحدة منهـا عن سائرهـا.

فـــإن لم يكــن في دراسة عمر إلا أن نرى رجلاً عـــادلاً بـالغاً في عدلـه، قويـاً بـالغـــاً في قوتـه، معجبـاً بـالبطولـــة بـالغـاً في إعجـابه، مستقلاً بـالرأي بـالغـاً في استقلالـه، لكفى بذلك ظفراً لعلم الأخلاق، وكفى بسيرة واحدة أن تقرر لنـا هذه الحقـائق التـي تستكثر على عشرات السير، وهـي أن القوة لا تنـاقض الاستقلال، وتلك الحقـائق أَثبتُ في عمر من معارف بدنه وملامح سيمـاه.

وكـانت مودة النبي لعمر كمودة عمر للنبي شرفـاً لـه من جـانبيه، وشهـادة لعظمته وعظمة معلمه ومؤدبه وهـاديه.

كـانــت نظــرة محمد إليه نظــرة عـالية لا تعلوهـــا نظرة أحد مــن أصحـابه، فلــم يكن أحد يكبُر عمر كمــا كـان يكبر عـارفيه، ولم يكن رضـاه عن مخـالفـاته ومراجعـاته بـأقل من رضـاه عن موافقـاته وتسليمه. لأنـه كـان ينظر إلى بواعث هذه وتلك فيحمدهـا ويرجو للإسلام خيراً منهـا، بل يدّخر للإسلام سوْرته كمـا يدّخــر لـه تسليمه وطاعتـــه، ويسوسه في رفق وكرامة سيـاســة المعلم لتلميذه الــذي يعينه ويستعــين بعيرتـه، ويروّضـــه ريـاضة الإمـام لمريــده الذي يهيئـه للإمـامـــة بعــد حين، ويشجعـــه بقبول الحسن مــن رأيه تشجيع مــن يثبت فيه حسن الرأي ويستزيده منـه.

ولا يتـأتَّى أن ينظر النبي الملهم إلى عمر دون أن يرى فيه أولى مشابهـاته للطبـائـــع النبوية، وهـي الإلهـام الديني والبصيرة الروحية، فكـان عليه السلام يقــول فيـــه: «قد كـان قبلكم من بني إسرائيل رجـال يكلمون من غير أن يكونوا

أنبياء، فإن يكن في أمتي أحد فعمر».

ومثله قوله في بعض ما نقل عنه عليه السلام: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب» وقوله: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه». وقوله: «عمر بن الخطاب معي حيث أحب، وأنا معه حيث يحب، والحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان».

وتلك لمحات نبي مُلهم إلى بصيرة ملهمة تقارب بصيرة الأنبياء. وإن في هذه اللمحات لمعرفة بالنفس ونفاذاً إلى الضمير، ومن أجلها كان محمد مصلح نفوس وهادي ضمائر، وفاتح عهد روحي في تاريخ الإنسان.

ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن محمداً قد أحاط بكل فضيلة من فضائل عمر وكل خليقة من خلائق طباعه. وراقبه قبل إسلامه وبعد إسلامه فلم تفُتْه كبيرة ولا صغيرة من مواطن العظمة فيه، إلا أنه لم يحمد منه شيئاً كما حمد حبه للحق وكراهته للباطل، فهي الخصلة التي تلاقيا فيها وتقاربا من قبلها، وإن كان محمد لأرحب صدراً وأعلم بالناس من أن يكلف صاحبه أن يشبهه كل الشبه في علاج الحق والباطل، فلابد من فارق بين الرجلين هو الفارق الذي لابد منه بين المعلم والمريد وبين الإمام والمأموم.

ولا نخالنا نلمس هذا الفارق كما نلمسه من قصة الأسود بن شريع، ذلك الشاعر الذي كان ينشد النبي بعض الأماديح فاستنصته[1] مرتين، إذ دخل عليهما عمر والشاعر لا يعرفه. فصاح: وا ثكلاه[2]! مَن هذا الذي أسكت له عند النبي؟ فقال النبي: هذا عمر. هذا رجل لا يحب الباطل!».

وتلك قصة تكبر عمر مرة وتكبر النبي مرات، فلا يسمعها السامع فيخطر له أن محمداً كان يقبل الباطل الذي يأباه عمر. أو كان يهوى اللغو الذي يعرض عمر عن سماعه. وإنما يسمعها فيعلم أي الرجلين يهدي صاحبه في مناهج الحق ويدربه على كراهة الباطل، ويعلم أن الإمام يطيق ما لا يطيقه المريد، ويتسع صدره لما تضيق به صدور تابعيه، وأن محمداً أراد أن يعوّد الناس مهابة عمر، وأن يستبقي لعمر سوْرته في محاربة الضلال، والأيام

1- استنصته: طلب منه السكون والإنصات.

2- الثكل: فقْد الحبيب، وكلمة وا ثكلاه: صيغة من صيغ الندبة يراد بها التحسُّر وإبداء الدهشة هنا.

كفيلة بترويض تلك السوْرة فيما ينبغي أن تراض عليه.

وهنـا يتجلى مذهبان في كراهة الباطل، ويتجلّى فارق واضح بين مذهب المعلم ومذهب المريد.

فعمر كان ينكر الباطل إنكار المحارب، ويرفع لـه سلاحه حيثما رآه، ومحمد كان ينكره ولا يرفع له سلاحه حيثما رآه. لأنه يعلم ضروباً من الباطل وضروباً من الإنكار.

ومن الإنكار أحياناً أن يتجاوز عنه، وأن يشفق عليه إشفاق الرجل على سخف الطفل الصغير، وأن يتربص به الأيام حيث يزول، وأن يعالجه بسلاح المحارب وبغير سلاح المحارب، وهو بذلك قد أَعَدَّ له ضروباً من الإنكار، وكان أكمل عدة له من الراصدين له في ميدان واحد.

أنقول إن الفارق بين محمد وعمر في هذا هو الفارق بين نبي وخليفة؟

إن قلنا ذلك، فقد قلنا حقاً جامعاً لا شبهة فيه، ولكنا لا نعدو به تحصيل الحاصل وتكرير الأسماء. فمحمد نبي وعمر خليفة ما في ذلك خلاف. ولابد بينهما من فارق ما في ذلك خبر جديد، فما هو الفارق الذي يعدو تكرير الأسماء أو تكرير الصفات؟

الفارق فيما نرى هو، الفارق بين إنسان عظيم ورجل عظيم.

فالنبي هنا لا يكون رجلاً عظيماً وكفى، بل لابد أن يكون إنساناً عظيماً فيه كل خصائص الإنسانية الشاملة التي تعم الرجولة والأنوثة والأقوياء والضعفاء، وتهيِّئه للفهم عن كل جانب من جوانب بني آدم. فيكون عارفاً بها وإن لم يكن متصفاً بها، قادراً على علاجها، وإن لم يكن معرضاً لأدوائها، شاملاً لها بعطفه، وإن كان ينكرها بفكره وروحه، لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد[1]، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة، وأخبر[2] بسعة آفاق الدنيا التي تتسع لكل شيء بين الأرض والسماء، لأنه يملك مثلها كآفاقها هي آفاق الروح.

ومن الصغائر الآدمية التي كثيراً ما يطيقها الإنسان العظيم، ويبرم بها

1- الأنداد: جمع ندّ وهو النظير الكفء.

2- أخبر: أكثر خبره.

الرجـل العظيـم كل غرور صبياني يحيـك بنفوس النـاس، وهــي ضروب ليست لهــا نهـايــة: غرور الشاعـر بأماديحه، وغـرور الفنـان بصنعته، وغـرور المرأة بجمـالها، وغرور الشيخ بثرائه، وغرور الأحمق بخيلائه، وغرور الجاهل بعلمه. وفي كل ضــرب مــن هذه الضروب كان بين محمد وعمـر فرق واضح وتفاوت محسوس، وكانت بينهما دروس تجري بها الحوادث تعليماً وهدى كما تجرى عرضاً غير ظاهر فيه قصد التعليم والتلقين.

وعمـر –رضــي اللـه عنه– قد استفــاد من دروس معلمــه وهـاديه في هذه الضـروب شتــى الفوائد، كما ظهر من سياسته في أيــام خلافته، ومن مراجعة نفسه والنبي –عليه السلام– بقيد الحياة.

فقـد أشـار على النبي بقتل عبد اللـه بن أبيّ بــن سلول، حين مشى بالفتنة بــين المسلمين فأبى النبي وتــرك عبد اللـه يمضي في شططه حتى أنكره قومه وعنّفـوه، وتصـدى له من صُلبه من يريـد له الموت[1]، فقــال النبي لعمر حين بلغــه ذلــك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما واللـه لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأُرْعِدت له ألف ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته، فقال عمر: قد واللـه علمت لأمر رسول اللـه –صلى اللـه عليه وسلم– أعظم بركة من أمري.

وكان عمـر يستكثر صـلاة النبي على عبد اللـه بن أبيّ بعد موته ويستعظم أن يهـب له قميصــه وأن يكفنه أهله في ذلك القميصــ، وكان النبي يرعى في ذلك حق ابنه الذي أخلص في إسلامه، وبلغ من إخلاصه أنه اقترح على النبي قتــل أبيه، وسئـل النبي كما جاء في بعض الروايــات: لمَ وجّهت إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال: إن قميصي لن يغني عنه من اللـه شيئاً، وإنني أؤمِّل من اللـه أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب! فقيل إن ألفاً من الخزرج أسلموا لما رأوا زعيمهم يطلب الاستشفاء بثوب الرسول، وخرجت الصحابة وعمر في طليعتها بعبرة باقية من هذا الدرس النبوي الحكيم.

وشبيه بدرس عبد اللـه بن أبيّ، درس الخطيب المفوّه سُهيْل بن عمرو، الذي أُسِرَ في بدر، فأشار عمر على النبي بكسر ثنيَتيْه السفليين ليعجز عن الكلام إذ كان مشقــوق الشفة السفلى. فأبى النبي «عســى أن يقوم مقاماً لا تذمُّه»، فما

1– كان من المنافقين وهو الذي قال في غزوة بني المصطلق: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» فغضب الرسول والصحابة لقوْلته.

زال ومـا زال عمـر حتى رآه في حروب الردة يقطع بلسانـه كما يقطع السيف، فحمد له ذلك المقام.

وجـاء الفتح بعد صُلْح الحديبية، فـرأى عمر كما رأى المعارضون معه، أن قريشـاً خسـرت ولم تربـح بـالصلح الـذي عـارضوه، وأن المسلمـين ربحوا ولم يخسـروا بقبوله، وأنهم زادوا عدداً وزادوا حلفـاء من غير المسلمين، وأن الذين رفضهـم النبي مـن تـابعيه عملاً بـالصلح لم ينفعوا قريشاً بل كـانوا بلاء عليها أشـد من بـلاء القتـال. وبدا ذلك من مبدأ الأمر لعمـر فـاعتبر بـه وقـال: «ما زلت أتصـدق وأصـوم وأصلي وأعتق مـن الذي صنعت يومئـذ مخـافة كلامي الذي تلكمت بـه حتى رجوت أن يكون خيراً».

وتجتمـع خلاصـة هـذه الدروس كلها في خبر واحـد من أخبـار عمر بعد ولايتـه الخلافـة، وذلك حين بلغوه فتـح «تستر» وذكروا لـه أن رجلاً ارتد عن الإسلام فقتلوه: فلامهم على قتله وقـال لهم: «هلا أدخلتموه بيتـاً وأغلقتم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفاً فـاستتبتموه[1]؟ اللهم إني لم أشهد ولم آمر ولم أرض إذ بلغني».

فهـذا عمر تلميذ محمد في الإسلام، وهذا عمر شاهد دروس ابن سلول ومَنْ علـى شاكلته من المنـافقين والمشركـين، وهذا عمر المستفيد بمـا وعى من تلك الدروس، ومعنى ذلك جميعه أن محمداً أعظم من عمر، وليس معنـاه أن عمر لم يكن بعظيم.

ومـن تحصيـل الحـاصـل أن نقـول: إن النبـي عليـه السـلام كـان يعلـم مـا يحتـاج إليه صـاحبه، ومـا يستغني عنه من الدروس، فعمر لم يعوزه قط درس قـوي يعلمـه حب الحق وكراهة البـاطـل، لأنهـا خليقة متمكنة منـه أصيلة فيه مؤْشوجة[2] بطبعه، ولكنه قد يعوزه حينـاً بعد حين أن يتعلم الصبر على البـاطل ولاسيمـا في فوْعـة الشبـاب[3] وألا يـأسى على الحـق أن تفوتـه معركة زائلة في صراعه الدائم، فهي معركة لا تضيع بصدمة ولا تؤخذ بهجمة، ولا تزال سجالاً

1- استتبتموه: رجوتم توبته.

2- مؤْشوجة بطبعه: أي موصولة به مرتبطة.

3- فوْعة الشباب: حدته.

منظورة العواقب في ساعة النصر وساعة الهزيمة على السواء.

وربما أعْوزه ما يعوز الأقوياء في معظم الأحايين، وهو أن يذكروا أن الناس جميعاً ليسوا بأقوياء، وأن الناس جميعاً ليسوا بعمر بن الخطاب، فإذا استطاع عمر أن يمنع الخمر مرة واحدة فقد يشق ذلك على آخرين، وإذا استطاع أن يتصدى للموت في كل لحظة، فليس ذلك في وسْع كل مسلم، وقلما يستحضر الأقوياء هذه الحقيقة إلا بعد تذكير ورويّة. أما على البداهة فهم يقيسون الناس على أنفسهم ويحسبونهم أهلاً لما هم أهل له وكفئاً لما هم قادرون عليه، ولهم من الشرف في نسيان هذه الحقيقة فوق ما لهم من الشرف في تذكارها ودوام استحضارها.

وقد كان تفكير عمر كله على البداهة في عهد النبي عليه السلام، فكان يفضي إليه بما يوحيه عفو خاطره وتمليه بادرة فكره[1]، مطمئناً إلى مرجع الرأي ومقطع القول بين يديه، شاعراً بواجبه الأول أحسن شعور في هذا المقام، لأنه شعور الرجل الكريم الذي لا يضن بشيء من عونه، فهو يعرض أقصى ما عنده من البأس ويدع لصاحب الأمر أن يكتفي باليسير منه إذا شاء، ولكن ليس عليه هو أن يعرض اليسير منه إذا شاء، ويترك لصاحب الأمر أن يطلب الكثير.

مثل عمر في هذه المواقف مثل صاحب المال تنزل الضائقة الحازبة[2] فيبسط ما عنده من المال جميعاً ويدع للوالي القائم بالتدبير أن يختار من ماله مقدار ما يريد، وذلك أفضل الحسنيين وأكرم الواجبين، وهو الواجب الذي يليق بعمر في صحبة الرسول.

ولا يحسبن قارئ أننا نعتسف[3] التأويل والتخريج لننظر إلى عمر في أجمل الصور، ونوجّه أعماله أحسن توجيه، فما نقوله هنا لا يعدو تفسير عمر نفسه لما اتصف به من الشدة في عهد رسول الله، وتفسيره كما قال غير مرة إنه كان سيفاً للرسول إن شاء ضرب به وإن شاء أغمده في قرابه، وأنه كان

1- تمليه بادرة فكرة: أي بما يتأتى له من الرأي السريع.

2- الحازبة: الشديدة.

3- الاعتساف: الأخذ على غير الطريق، يعني أننا نُحمّل المعنى فوق ما يطيق.

جلـوازه[1] القـائم بين يديه، وليس من شأن الجلواز أن يمسك كثيراً أو قليلا من بـأسه حيث يؤمر بـإمساكه، ويرد إلى الهوادة واللين.

بـل هـذا الذي نقوله هو الذي قاله أبو بكـر رضي اللـه عنه في شدة عمر ولينـه، فكلما تحدثوا إليه بغلظتـه قال: إنما يشتد لأنه يراني ليناً، ولا غلظة على الضعفاء فيه.

فكان جميلاً بعمر أن يسهو عن تلك الحقيقة، وأن يحتاج فيها إلى تذكير واستحضـار وكان أفضل واجبيه لا مـراء أن يعرض البأس حتى يؤتى، ثم يثوب إلى اللين ولا جناح عليه.

وهـو اليقـين الـذي لا يخامرنا الشك فيـه، أن عمر كان خليقـاً أن يفهم تلـك الحقيقـة بتفصيلاتها لو جعل باله إليها ولم يجعـل بـاله إلى تقديم ما عنده «والجود بـأقصى جوده» في انتظار القول الفاصل من رأي النبي عليه السـلام، ولولا استعـداده لفهْم تلك الحقيقة وما شابـههـا لما انتفع بـالقدوة ولا أغنت معه المُثُل والتجاريب.

ومهمـا يكن مـن حاجته إلى دروس مُعلّمه وهـاديه فـالـذي نعتقده أن مكانـه من الخلافة لم تقرره الحاجة إلى تلـك الدروس، لأن الصحابة كلهم على حكم واحد في هذا الاعتبـار سواء منهم الخلفاء الراشدون وغير الخلفاء الراشديـن. فمـا مـن رجـل كان بـين أصحاب محمـد عليه السـلام إلا كان مفتقـراً إلى جانب مـن جوانب هدْيه وتهذيبه وتقويمـه، وما كان عمر على التخصيص بـأشد افتقاراً إلى ذلك من رفاقه وتابعيه، وإن اختلف ما يعوزه وما يعوزهم من مواضع الهدْي، والتهذيب، والتقويم.

وواضح من هذا أن دعوة النبي عليه السلام أبا بكر للصلاة بالناس في مرضـ وفاته لم تكن بـالمصادفـة ولا بـالاختبار الذي يتساوى فيه أبو بكر وعمر في ذلك المقام. فقد دعاه حتى وصل الأمر إليه رضي اللـه عنه فلبّاه. وتفصيـل ذلـك كما جـاء في رواية البخـاري، أن النبي اشتـد عليه المرض فقـال: مُـرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالنـاس، قالت عـائشـة رضي اللـه عنها: إن أبا بكـر رجل رقيق القلـب إذا قـام في مقامك لا يكاد يُسمِـع النـاس من البكـاء.

1- الجلواز: الشرطي.

فلو أمرت عمر؟ فعاد النبي يقول: مُرُوا أبا بكر فليصلِّ، فعاودته، فقال مرة أخرى: مُرُوه فليصلِّ، إنكن صواحب يوسف[1].

وحدث عبد الله بن أبي زمعة أن بلالاً دعا النبي إلى الصلاة فقال: مُرُوا من يصلي بالناس، «فخرجت فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً، فقلت: قم يا عمر فصلِّ بالناس. فقام، فلما كبّر سمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم – صوته، وكان عمر رجلاً مجهراً[2]. فقال: فأين أبو بكر ؟يأبى الله ذلك والمسلمون. فبعث إلى أبي بكر فجاء بعد أن صلّى عمر تلك الصلاة فصلّى بالناس».

قال عبد الله بن أبي زمعة إن عمر لقيني فقال لي: ويحك! ماذا صنعت بي يا ابن أبي زمعة؟ والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك. ولولا ذلك ما صليت بالناس. قلت: والله ما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك! ولكن حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق مَن حضر بالصلاة.

والواضح من كلتا الروايتين، أن النبي عليه السلام قصد إلى اختيار أبي بكر للقيام في مقامه من إمامة المسلمين، وضَمَّن ذلك ما ضَمَّنَه من معنى الاستخلاف والتقديم.

فعلى أي وجه نفهم هذا الاختيار الذي صدر عن قصد ورويّة ولم يصدر عن مصادفة واتفاق؟ وعلى أي وجه تساءل النبي – عليه السلام– حين سمع صوت عمر ولم يسمع صوت أبي بكر فقال: «يأبَى الله ذلك والمسلمون»؟

إننا لا نفهم ذلك إلا على وجه واحد يجمُل بمحمد ويجمُل بأبي بكر ويجمُل بعمر كما يجمُل بالمسلمين.

فمن البديه أن ينظر النبي في اختيار خليفته إلى جميع الاعتبارات التي تدخل في الحسبان ولا يقنع بالنظر إلى اعتبار واحد.

فإذا نظر النبي إلى جميع الاعتبارات فأي غضاضة على عمر أن يقع الاختيار على أبي بكر ولا يقع عليه؟

1– العبارة تحمل معنى اللوم والعتب على النساء، والإشارة إلى موقف النساء في قصة يوسف عليه السلام.

2– مجهراً: مرتفع الصوت.

إن اختيـار أبـي بكـر يجمع للإسـلام فضائـل الرجلـين ولا غضاضة فيه علـى أحدهما ولا على المسلمين. ولكن الغضاضة أن يتأخر أبو بكر، وهو أسَنّ وأسبـق إلى الإسـلام وثاني اثنين في الغـار، وأقْمن[1] أن تبطـل حوله منافسة الأنـداد، وله الـرأي الصائب والشجاعـة المأثورة والإيمـان الثابت والمسالمة المرضية والحق والظاهر في الإيثار كلما قوبل بغيره من الحقوق.

ومع هذا الرجحان الذي انفرد به أبو بكر ترجيح آخر لاستخلافه في الموقف الذي كان منظوراً بعد موت النبي عليه السلام، وهو موقف رضا ومسالمة بين المسلمـين يغنيـان إذا جرت الأمور في مجراهـا الطيب المأمون. فـإذا تأزّمت واضطربـت ونفدت حيلة اللين حتى نبذه أبو بكر في رفقه وهوادته، فذلك إذن موطـن الإجماع، وإذا صلب غيره واجتمعت كلمتهم على الصلابة ولم يبق من يلـين في الأمر سواه فصلابتهم أقمـن إذن أن تنعطف بلينه إلى الإجماع الذي لا شذوذ فيه.

فالنبي عليـه السلام قد حسب للعواقب كل حساب، وقد نظر في استخلافه إلى كل اعتبار، وقد وازن بين أمور كثيرة ولم يوازن بين صاحبين ليس بينهما محل للتنافس والملاحاة.

وممـا نظر إليـه عليه السلام، أن عمـر أصغر من أبي بكر بعشـر سنوات أو نحـو ذلـك. فدوْر أبي بكـر لا يحجب دور عمـر، وإذا انتفع الإسـلام بمزايا أبي بكـر في حينها الذي هـو أحوج إليها، فسينتفع الإسـلام بمزايا عمر في الحين الـذي يتولاه فيـه، يوم تغني الصلابـة في مدافعة الأعداء مـا أغناه الرفق في تأليـف الأوداء[2]، ولا يحسـبن قـارئ هنـا أيضاً أننـا نستخلص النتائج من التاريـخ وندرك ما كان بعد أن كان، فالواقع المنصوص عليه أن الذي رأيناه بعـد وقوعـه قد كان منظـوراً إليه قبـل أن ينكشف عنـه الغيب، وقـد نظر إليه النبـي عليـه السلام فقال: «أرأيـت في المنام أني أنزع بدلوٍ بكـرة على قُلَيْب[3] فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، واللـه يغفر له، ثم جاء عمر

1- أقمن: أجدر وأوْلى.

2- الأوْداء: جمع وديد وهو صاحب المودة.

3- القُليب: البئر. الذَّنُوب: الدلو المملوءة.

بـن الخطـاب فـاستحـالت غربـاً، فلم أر عبقريـاً يفري فريه، حتـى رَوِي النـاس وضربـوا بعطـن[1]. ولم يخف معنـى الرؤيا على معبّريهـا لأنهـا لا تحتمل غير تعبـير واحد، وهو الـذي أشار إليه الشافعـي، رحمه اللـه، ففسـر ضعف النزْع بقصر المدة وعجلة الموت الاشتغال بحرب أهل الردة عن «الافتتـاح والازديـاد اللذين بلغهما عمر في طول مدته».

ويجـوز أن النبي عليه السلام، قد أدخل في حسابه تقديرات أخرى من هذا القبيـل لا يحيط بهـا أبنـاء عصره ولا نراهـا نحن في عصرنـا. فلهذه المسائل في جميـع العصـور نواحيها الموضوعيـة ونواحيها الخاصـة التي لا يدركها كل مـن عاش بينها ولا يتـأتى نقلها بـالكتابة والتدوين. ومتى كـانت هذه هي التقديـرات التـي فصّلت في مسألة الترشيح للخلافة فـأي غضاضة فيها على عمـر؟ إنهـا شـيء لا يتنـاوله وحـده، وليست لكفـاءة أبي بكـر ولا لكفاءته هو كل اليـد فيـه، وإن الذي حدث لا يعدو أن يكـون موازنة بين أحوال ثم تقديمها للصالـح في تلـك الأحوال، أو هـو تـأخير موعـد ومنـاسبة وليس بتـأخير حق وكفـاءة، فأبـو بكر كفء للخلافـة، وعمر كفء للخلافة، ولكـن تقديم أبي بكر أصلح وأوْلى وأوْفق لأحوال الزمن ولكرامة الصحابة والمسلمين أجمعين.

وإنـك لتكونن على ثقة مـن حقيقة واحدة في رهط محمـد تجزم بها وأنت آمـن أن تخالف التـاريخ فيما بطن وفيما ظهـر، وذلك أنه عليه السلام لم يبرم قـط أمراً فيه غضاضة على أحد من أصحابه، ولا سيما في مسألة الاستخلاف أو التقـديم للإمـامـة والصلاة بـالنـاس فكل الذي حدث فيها فهـو الذي يجمل بـالنبي من تقدير وتدبير، ويجمل بصاحبيه من إيثار وتوقير، ويجمل بـالإسلام من تمكين وتعمير، وانتفـاع بعمل كل عـامل، واقتدار كل قدير.

•••

بقي جانب من جوانب العلاقة بين النبي وعمر لا يسكت عنه لكثرة ما قيل فيـه، فضـلاً عن وجوب النظر فيه لأنه يتمم العلم بتلـك العلاقة ويزيدنا فهماً لهـا واستقصاء لمداها واطلاعـاً على طريقة عمر في الموازنـة بين الواجبات والشئـون حيثمـا اشتجرت بـين يديه، ونريد بـه جانب العلاقة بـين عمر وآل

1– العطن: مبرك الإبل حول الماء، والغرب : الدلو العظيمة.

البيت، وبين عمر وابني عم النبي الكبيرين عليٍّ وابن عباس بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى.

فالذين أُولِعوا في التاريخ بخلق القضايا والمخاصمات يقولون كثيراً في هذه العلاقة، ويمثلون عمر على صورة الرجل الذي كان يتحدّى بني هاشم ويناجزهم مناجزة لعصبية فيه عليهم، ولكنهم لا يذكرون من الوقائع ما يعزز شبهة أو يرجح بظن في هذه الوجهة. وكل ما حفظته لنا أنباء العصر فإنما تخلص بنا إلى الخلاصة التي تجمُل بعمر وتحمد منه. وهي الوفاء المحض لذكرى النبي عليه السلام في آله وخاصة بيته، والأمانة المحض لمصلحة العرب والإسلام مقدّمة على كل مصلحة خاصة أو عامة، وكل ما عدا ذلك لغو باطل.

فعند تقسيم الأعطية كان لآل النبي النصيب الأوْفى والمكان المقدم بين الصحابة، وكان لهم التفضيل في كل حق من حقوق المسلمين حسبما كان بينهم وبينه عليه السلام من رحم وقرابة، وفضلهم عمر على أقرب الناس إليه في اللقاء والحفاوة، فكان في بعض الأيام ينتظر الحسين بن عليٍّ رضي الله عنه فذهب إليه الحسين فلقي عبد الله بن عمر في الطريق فسأله: من أين جئت؟ قال: استأذنت على عمر فلم يأذن لي. فرجع الحسين ولم يذهب إليه. ثم لقيه عمر معاتباً وسأله: ما منعك يا حُسيْن أن تأتيني؟ قال: قد أتيتك ولكن أخبرني عبد الله بن عمر، أنه لم يؤذن له عليك فرجعت. فعزّ ذلك على عمر وقال له: وأنت عندي مثله! وأنت عندي مثله؟ وهل أنبتَ الشعر على الرأس غيركم؟

وكسا عمر أصحاب النبي فلم يكن في الأكسية ما يصلح للحسن والحسين رضي الله عنهما، فبعث إلى اليمن فأتى لهما بكسوة تصلح لهما وقال حين رآها: الآن طابت نفسي!

وسافر إلى الشام فاستخلف علياً رضي الله عنه على المدينة. وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع إليه في قضائه متحرّجاً من دعوته إليه حين يحتاج إلى سؤاله. استفتاه بعضهم في مجلسه فقال: اتبعوني، وأخذهم إلى عليٍّ فذكر له المسألة فقال عليٌّ: ألا أرسلت إليّ؟ قال عمر: أنا أحق بإتيانك.

وكذلك كان يستفتي ابن عباس في الدين والأدب ولا يلقاه باحثاً مسترسلاً

في الحديث إلا قال معجباً منبسطاً: غص غواص![1] وقلّما سُئِل في أمر وابن عباس حاضر إلا قال يشير إليه: عليكم بالخبير بها.

ولم يحجم عن توْليتهم الولايات إلا كما أحجم عن تولية الجُّلة من الصحابة ورءوس قريش الذين أبقاهم عنده للمشورة وصانهم عن محاسبته وعتابه. وفي ذلك يقول لابن عباس: إني رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– استعمل الناس وترككم، والله ما أدري أصَرَفكم عن العمل أو رفعكم عنه وأنتم أهل ذلك؟ أم خشي أن تعاونوا لمكانكم منه فيقع العتاب، ولا بد من عتاب؟

أما مسألة الخلافة، فالذي يزعمه فيها الذين يخوضون في القضايا والمخاصمات، أن عمر– رضي الله عنه– تعمّد أن يحول بين عليٍّ والخلافة بصرفه النبي عن كتابة الكتاب الذي أراد أن يبسط فيه وصاياه فلا يضل المسلمون بعده، ويزعمون أنه هو قد حال بين عليٍّ والخلافة مرة أخرى يوم تركها للشورى ولم يستخلفه باسمه لولايتها.

واستكثروا من عمر صرامته في دعوة عليٍّ إلى مبايعة أبي بكر، كما جاء في بعض الروايات التي ترجح صحتها، وخلاصتها «أن عمر أتى منزل عليٍّ وبه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: والله لأحرقن عليكم الدار أو لتخرجن إلى البيْعة، فخرج الزبير مصلتاً بالسيف فسقط السيف من يده فوثبوا عليه[2] فأخذوه» أو قال لهما في رواية أخرى: «والله لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان».

فاستكثر المستكثرون هذه الصرامة، وعدُّوها من إصرار عمر على الإجحاف بعليٍّ وإقصاء بني هاشم عن الخلافة.

أما القول بأن عمر هو الذي حال بين النبي عليه السلام والتوصية باختيار عليٍّ للخلافة بعده، فهو قول من السخف بحيث يسيء إلى كل ذي شأن في هذه المسألة، ولا تقتصر مساءته على عمر ومَن رأى في المسألة مثل رأيه.

فالنبي عليه السلام لم يدع بالكتاب الذي طلبه ليوصي بخلافة عليٍّ أو خلافة غيره، لأن الوصية بالخلافة لا تحتاج إلى أكثر من كلمة تقال، أو إشارة

1- الغوص: النزول تحت الماء، يقال: فلان يغوص على حقائق العلم، إذا كان كثير البحث فيه.

2- مصلتاً بالسيف: مُجَرِّداً السيف من غُمده.

كالإشــارة التي فهم المسلمون منها إيثار أبي بكر بـالتقديم، وهـي إشارتـه إليـه أن يصلي بـالنـاس.

وقـد عـاش النبي بعد طلب الكتاب فلم يكرر طلبــه ولم يكن بين عليٍّ وبين لقائــه حـائـل، وكـانــت السيدة فـاطمــة، زوج علــيٍّ، عنـده إلى أن فـاضت نفسه الشريفة، فلو شاء لدعى به وعهد إليه.

وفضــلاً عن هذا السكوت الذي لا إكراه فيــه، نرجع إلى كل سابقة من سنن النبــي في تولية الولاة، فنرى أنه كـان يجنب آله الولاية ويمنـع وراثة الأنبياء، وهذه السنة مع هذا السكوت لا يدلان على أن محمداً – صلوات اللـه عليه– أراد خلافة عليٍّ فحيل بينه وبين الجهر بما أراد.

ولم يعتمـد عمر على الشورى في اختيار الخليفــة بعده وله مندوحة عنها. فقد رأى من أصحابـه – كما قـال – حرصاً سيئاً وخلافاً لا يحسمه رأيٌ واحد، وكـانــت حيرته عظيمة بــين الاستخلاف وترك الاستخــلاف، فلما قيل لـه وهو طعين يودّ ع الحياة:

مــاذا تقول للـه عز وجل إذا لقيتــه ولم تستخلف على عباده؟ أصابته كآبة ثــم نكّـس رأسه طويلاً ثم رفع رأســه وقـال: «إن اللـه تعــالى حـافظ الدين، وأي ذلك أفعل فقد سُنَّ لي. إن لم أستخلف فإن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم لم يستخلف، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكر».

واختــار للشــورى في أمــر الخلافــة أنـاساً ليس بــين المسلمــين أوْلى منهم بـالاختيــار، وكـأنهم كـانــوا مسمّين بـأسمـائهم لهذه المهمــة لو لم يرشحهم هو لرشحـهم لها كل مختـار.

ولم يكــن الفــكـاك مــن التبعة هــو الذي أوحى إليــه أن ينفضــ يديه ويلقي بـالعبء على عواتق غيره. فعمر لا ينجو بنفسه ليوقـع أحداً فيما يحـاول النجاة منه، ولكنه قَدَّر أن الرجل الذي تختـاره كثرة المحكمين هو أولى أن ينعقد عليه الإجمــاع، وينحســم بترجيحه النزاع. فمن خرج عليه فهــو بـاغي فتنة يتبعها الأقلون ويردعها الأكثرون.

وكـان مــع هذا يــود لو اجتمع الرأي على اختيـار علــيٍّ بعد المشاورة، فقـال لابنــه: لو ولُّوهــا الأجلح «أي المنحسر الشعر» لسلك بهــم الطريق، فسأله ابنه: فمـا يمنعك أمير المؤمنين أن تقدم عليًّا؟ قـال: أكره أن أحملها حياً وميتاً.

وفيما عـدا الاستخلاف بعد النبي والاستخلاف بعد عمـر، فـالسياسة التي جـرى عليهـا عمر، كانت كلها سياسـة عـامة قـائمة على أسـاس عـام لا تفرقة فيها بين بنـي هـاشم وغيرهم ولا بين علي وغيره.

فـكـان يكره أن تستأثر بـالأمـر عُصبة دون غيرهـا بـالغة ما بلغت منزلتهـا، ولم يكره ذلك من بيت هـاشم دون سائر البيوت.

كـان يحْجـر علـى وجوه قريش أن يخرجوا إلى البلـدان إلا بـإذن وإلى أجل، وبلَغَـه أنهـم يشكونـه فـأعلن في النـاس «إن قريشـاً يريـدون أن يتخذوا مال اللــه معونــة على مــا في أنفسهـم. ألا إن في قريشـ مَن يضمـر الفُرقة ويروم خلـع الربقة[1]، أما وابن الخطاب حيٌّ فـلا. إن أخوَف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد».

وكـان يزجر قومه بني عدي كلما أحس منهم الطمع في خلافته، لأنه واحد منهم، فيصارحهم قـائلا: «بخ بخ بني عدي. أردتم الأكل على ظهري، وأن أهب حسنـاتـي لكم، ولا واللـه حتى تأتيكم الدعوة، وإن أطبق عليكم الدفتر» أي وإن كنتـم في الأعطيـة آخـر النـاس. وهو الـذي أبَى أن يختار ابنــه للخلافة، وقـال للمغـيرة بن شعبة الذي زيّن له استخلافــه: لا أرب[2] لنا في أموركم، وما فيها لأحـد مـن بيتي. إن كـان خيراً فقد أصبنـا منه، وإن كـان شراً فحسب آل عمر أن يحـاسب منهم رجل واحد».

وجمـع علياً وعثمـان في مجلس الشورى لاختيـار الخليفـة، فـالتفت إلى علـيٍّ فقـال: «اتق اللـه يا عليّ إن وُلِّيت شيئـاً، فلا تحملن بني هـاشم على رقـاب المسلمين».

والتفـت إلى عثمان فقــال: «اتق اللـه إن وُلِّيت شيئــاً فلا تحملن بني معيط على رقاب المسلمين، أو قـال بني أميّة».

وكـان أكـبر همــه، أن يعصـم الإسـلام من الملك الـذي يستـأثر بــه مستـأثر لأنـاس دون أنـاس، وكثيراً مـا سأل: واللــه مـا أدري أخليفة أنا أم ملك؟ مستعيذاً بـاللـــه من كل سلطان لا يعم جميع رعـايـاه بـالخـير. وكلمته لابن عباس حيث

1- الربْقة: حبل تشد به البهيمة، وفي الحديث «خلع ربقة الإسلام من عنقه».

2- الأرب: الغرض والغاية.

قــال: «إن النـاس كرهــوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافــة، وإن قريشاً اختـارت لأنفسهــا فـأصابــت» هى كلمته حيثما تكلم في هذا الصــدد لا يخص بها بيتاً دون بيــت، ولا معشــراً دون معشر، ولا قبيلة دون قبيلــة، إلا الأمانة لمصلحة المسلمين جميعاً حيثما اتفقوا عليها أو كان لهم رجاء في الاتفاق.

ومــا كانت لعمــر صرامة مع عليٍّ لم تكن له مع غيره في مأزق الخوف من الفتنــة، والذود مــن الوحدة، فقبــل أن يُسْلِم الروْح كانت وصيتــه وهو لا يعلم مَــن الخليفة بعده: «إن اجتمع خمسة ورضــوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ[1] رأسه بالسيــف، وإن اتفــق أربعة فرضوْا رجــلاً وأبى اثنان فاضــرب رأسيهما. فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً فحكّموا عبد اللـه بن عمر، فأي الفريقين حكـم له فليختاروا رجلاً منهــم، فإن لم يرضوا بحكم عبد اللـه بن عمر فكونوا مــع الذيــن فيهم عبد الرحمن بن عــوف، واقتلوا البـاقــين إن رغبوا عما اجتمع عليه النـاس».

ومــا اختار ابنه عبد اللـــه للفصل بين الفئتين المتساويتين، إلا لأنه خارج الاختيــار، ثم لم يجعل له القول الفصل حتــى يفتح للناس مخرجاً من رأيه إن شاءوا ألا يتبعوه.

ولــن يقضــي بأمثل من هذا القضــاء في مأزق الفتنة أحــد له قضاء عادل منزه عن خبايا القلوب.

فلمــا اتخذ عمر من حكم بين النـاس فهو الحكم الذي يجمُل به ويُحمد منه، ولا ينتفع به قبل أن ينتفع سائر النـاس. هو الحكم الذي يعم ويعدل ولا يخص ويتحيــز وهــو الحكم الذي لــو سئل فيه النبي سيد بني هـاشـم لأعاد فيه قوله: «عمــر بن الخطاب معي حيث أحب، وأنا معه حيث يحب، والحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان».

1- الشدخ: كسر الشيء الأجوف.

عمر والصحابة

بايع عمر فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه.

وبويع عمر فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه.

وقد تواترت أقوال الصحابة في عمر بما يشيد بفضله ويشهد بقدره، ويكبُر في أعين الناس أكبر من تقال فيه. لأن الذين قالوها أناس لهم حلوم راجحة، وألسنة صادقة، وعقيدة راسخة، وقلوب لا تهاب أن تقول الحق في إنسان. ولكن الشهادتين اللتين شهد بهما الواقع أدل على قدْر عمر بين الصحابة من كل ما قيل، لأن شهادة الواقع هي الشهادة التي يقولها الصادق باختياره، ويحاول الكاذب أن يكذب فيها فلا يستطيع. وإنما يجوز الصدق والكذب فيما يملكه اللسان أو يملكه الشعور. أما الشهادة التي تعبر عن نفسها بلغة الواقع، فهي قائمة من وراء كلام الألسنة ومن وراء هوى النفوس: إنكارها كإنكار المحسوس الذي تقع عليه الأيدي ولا تغمض عنه العيون.

وقد انتهت مسألة الخلافة بعد النبي بسلام.

ولكن انتهاءها بسلام لا يعني أنها كانت ستنتهي وحدها بسلام على أية حال، ولا يعني أنها انتهت لأنها من المسائل التي يؤمن فيها الخطر وتمتنع فيها الفتنة. إذ الحقيقة أن انتهاءها على هذا النحو قد كان أعجوبة من أعاجيب التاريخ، مع ما يحيط بها من دواعي النزاع ومن كوامن القلق

والخوف على غير سابقة يستقيم بها العرف وتتضح بها معالم الطريق.

فما هو إلا أن لَحِق النبي بالرفيق الأعلى، حتى تحفّزت دواعي النزاع من كل فج، وتكشفت كوامن القلق والخوف من كل مكمن، وجهل أعلم الناس كيف تتجلّى الغاشية ويستقر القرار.

فالأنصار يقولون إنهم أحق بالخلافة من المهاجرين لأنهم كثرة والمهاجرون قلة، ولأنهم في ديارهم والمهاجرون طارئون عليهم، ولأنهم جميعاً عرب مسلمون ولهم فضل التأييد والإيواء.

والمهاجرون، على قِلّتهم، غير متفقين على اتفاق ينعقد به الإجماع، وحجتهم الغالبة أنهم السابقون إلى الإسلام ومنهم جُلة الصحابة الأوّلين.

وتسايرت الأحاديث بحق آل البيت النبوي في الخلافة النبوية، وبين آله رجلان قويان هما عليٌّ والعباس، لو أصغيا إلى هذه الدعوة ومضيا فيها لتمخضت عن خطْب عظيم.

ولكن هذه العصبيات لم تكف دعاة الخلاف حتى جاء أبو سفيان يزيدها عصبية أخرى بالمفاخرة بين أكبر القبائل وأصغرها في قريش، فدخل على عليٍّ والعباس يثيرهما ويعرض عليهما النجدة والمعونة، ويهيب بعليٍّ باسمه، ثم بالعباس باسمه «يا عليّ! وأنت يا عباس! ما بال هذا الأمر في أذِلّة قبيلة من قريش وأقلّها؟ والله لو شئت لأملأنها عليه يعني أبا بكر خيلاً ورجلاً وآخذنها عليه من أقطارها»[1]، فيجيبه عليٌّ بما هو أهله: «لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيْلاً ورجلاً: ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهله ما خليناه وإياها»، ثم يبلغ من كرم النحيزة أن يؤنّب أبا سفيان من طرف خفي على سعيه في هذه العصبية فيقول: يا أبا سفيان! إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض، وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض، متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم!».

ولم تكن هذه العصبيات كل ما هنالك من دواعي النزاع وكوامن القلق والخوف، فقد كان هنالك منافقون أسلموا وهم راغمون، وكان هنالك ضعفاء

1- الرّجْل جمع راجل، وقوله لآخذنها عليه من أقطارها: تهديد بأنه سينازله من كل ناحية وصوب.

من المسلمين يقفون على شفير[1] من الفتنة لا يلبث أن يضطرب تحت أقدامهم حتى ينهار، وكان هنالك أناس لا ينصرون ولا يخذلون، فهم إن لم يفسدوا في الأرض لا يصلحون.

وبين هذه المخاوف والنوازع تنتهي مسألة الخلافة بسلام، فيكون انتهاؤها بسلام أعجوبة الأعاجيب. وتبحث عن سر هذه الأعجوبة أو عن سرها الأكبر فيغنيك فيها أن تذكر اسماً واحداً هو اسم عمر بن الخطاب. إلى أين كانت تلك الفتنة ذاهبة لو لم يقف في وجهها عمر وقفته المرهوبة يوم السقيفة؟

سؤال يدلُّك على سر تلك العجيبة قبل كل جواب. فما عرف رأي عمر في البيعة حتى بطل الخلاف إلا ما لا خطر له. واطمأن مَن يوافق، وعلم مَن يخالف أن خلافه لا ينفعه، واجتمعت كلمة على مبايعة أبي بكر أوشكت أن تكون كلمات.

قال أبو بكر لعمر: ابسط يدك نبايع لك.

قال عمر: أنت أفضل مني. قال أبو بكر: أنت أقوى مني.

قال عمر: إن قوتي لك مع فضلك. لا ينبغي لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فوقك يا أبا بكر. أنت صاحب الغار مع رسول الله، وثاني اثنين، وأمرك رسول الله حين اشتكى فصليت بالناس، فأنت أحق بالناس بهذا الأمر.

ووثب عمر فأخذ بيد أبي بكر، فتواثب الجميع من عِلية الصحابة يبتدرون البيعة، ثم كان الغد فجلس أبو بكر على المنبر وتكلم عمر بين يديه يقول للناس: «إن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وأوْلى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوا».

فكانت البيعة العامة، وتركت شجرة الخلاف لجفاف، فإن لم تذبل لساعتها فهي وشيكة ذبول.

بايع عمر فقطعت جهيزة قول كل خطيب.

وذلك قدر عمر عند الصحابة، وقدره عند أبي بكر، وقدره عند الله، تعني

1- شفير كل شيء: حرفه.

شهادة السرائر فيه عن شهادة كل كلام: وفي تلك الكلمات الموجزات التي تبادلها الصديقان العظيمان، خلاصة نقد الناقدين وبحث الباحثين، وحكم التاريخ في أبي بكر وعمر، وفي موقف الخلافة من بدايته إلى منتهاه.

قال عمر: إنك أفضل مني. وقال أبو بكر: إنك أقوى مني.

وقال عمر: إن قوتي لك مع فضلك.

صدقا غاية الصدق، وجاملا غاية المجاملة، وقضيا بالعدل والحكمة والإخاء، وتركا التاريخ يقول ما يقول ويسهب ما يسهب، ثم لا يزيد في فحواه كلمة على ما ضمنته تلك الكلمات الموجزات.

ولقد كانت من قوة عمر، أنه كان يراجع أبا بكر في خلافته حتى يرجع عن رأيه، وكان من فضل أبي بكر أنهم يسألونه مستثيرين: والله ما ندري أأنت الخليفة أم عمر؟ فيقول: هو لو كان شاء!

وكان فضل أبي بكر وقوة عمر جمعاً لا يشذ عنه مكابر، ومن شذ عنه فما له من فضل ولا من قوة ينفعانه.

بل كان الرجلان، على اختلافهما في المزاج، كأنهما رجل واحد يراجع نفسه بين الرأيين المختلفين، حتى يستقر على أحدهما فإذا هو رأي جميع لا خلاف فيه، لأنهما يصدران عن عقيدة واحدة، ويتجهان إلى غرض واحد، فهما غير مفترقين إلى أمد طويل.

وأعجوبة الأعاجيب في هذا الأمر، موقف الرجلين من المشكلة الكبرى التي واجهتهما معاً بعد موت النبي بأيام قلائل، وهي مشكلة الردة ونكوص العرب عن أحكام الدين، وحيرة الصحابة الكبار فيما يعامَل به المرتدون.

وليس العجب أن يختلف أبو بكر وعمر في مشكلة كبيرة أو صغيرة، وإنما العجب هو نوع الخلاف الذي لم يتوقعه أحد. فيخالف أبو بكر لأنه يجنح إلى الشدة والصلابة، ويخالف عمر لأنه يجنح إلى اللين والهوادة، ثم يلتقيان ولا يتعارضان.

فأبو بكر يأبى إلا أن يحارب الذين منعوا الزكاة، ويقول مصراً على قوله: «والله لو منعوني عناقاً[1] لقاتلتهم على منعها».

وعمر يقول له: «كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

1- عناق: معزة.

أمـرت أن أقاتـل النـاس حتى يقولوا لا إلـه إلا اللــه، فمن قـالـها فقد عصم مني نفسه ومـالـه إلا بحقه، وحسابـه على اللـه!».

ويشــارك عمـر في رأيه جُلــة الصحـابة كأبي عبيدة الذي قــال فيه النبي: «إنــه أمــين الأمـة»، وســالم مولى أبي حذيفــة الذي قـال فيه النبــي «إن سـالماً شديد الحب للـه»، وأنـاس من هذه الطبقة في صحـابة الرسول.

ويعـود أبـو بكر فيقول: «إن الــزكاة حق المـال» وفيهـا نحــارب بـالحق. ثم يهيـب بعمـر: رجوْت نصرتك وجئتنــي بخذلانك؟ أجبــارٌ في الجـاهلية وخوّار في الإسلام؟

فــإذا بعمـر يثوب إلى شدته بعد أن أفرغ أمـانة الـرأي كمـا قـال: «مـا هو إلا أن رأيت أن اللـه شرح صدر أبي بكر للقتـال حتى عرفت أنه الحق»، ومـا أسهل أن يُعـرف الحــق لمن يريد أن يراه ولا يغمض عينيه. أرجلان هنـا مختلفـان أم رجل واحد؟

قل هذا وذاك فـالقولان مستويـان، مـا دمت لا تنسى أن الرجلين المختلفين معهمـا العقيدة الراسخة التي لا تفـارقهمـا، وطالمـا جمعت العقيدة جيوشاً على قلب واحد، فضلاً عن رجلين.

وإنمـا كـان يعيب عمر أن يعـارض إذا كـان في المسألة وجه واحد لا يحتمل المعـارضــة بحـال، فـأمــا أن يكون لهـا وجه آخر يبديــه ويشرح حجته، فـالذي يعيبه ويضير الإسلام أن يكتم ذلك الوجه وأن ينطوي عليه صـامتـاً في موقف البحث والمشورة، وهو النـاصح الأمين.

ومسألــة الردة قـد كـان لهـا وجه آخر غير الذي راضه أبــو بكر رضي اللـه عنه، وكـان عمر خليقـاً أن يرى ذلك الوجه الآخر، لأنـه موافق لمجمل آرائـه في الحـرب والسيـاســة، فقد كـان بطيئـاً إلى الحرب كمــا عرفنـا من عـامة وصـايـاه، وكـان أبطــأ مــا يكون عنهــا إذا نشبت بين العـرب أو المسلمـين، وكـان جيش الإســلام بعيداً عن المدينــة في غزوة الروم التي خرج أسـامة بن زيد بعد قيـام أبي بكر بـالخلافة، فـالتريث إلى أن يستكمل الإسلام عدته ويسترجع الغـائبين مــن جنده وجه غير ضعيــف، أو هو في أقل الأمر، وجــه لا يحسُن كتمـانـه عن الأمير المسؤول.

وقد كـان من عـادة عمر أن يطيع صـاحب التبعة متى وجبت الطـاعة واستقر

القـرار، فلا ضـيْر إذن ألا يـألوه جهده معـارضة حتى يتبين مذاهب الرأي على اختلافها، ثم هو مستعد بقوته لمعاونته بـأقصى مـا استطاع.

ومثل هذا الرجل، معارضته قوة فوق قوة وخير لا ضير فيه.

وخليـق بنـا أن نفهمها علــى صوابها في مسألة الـردة، فنعلم بعد النظرة الثانيــة أنهــا من دلائل قوتــه المعهودة وليست من فلتــات الضعف فيه، لأنه رأى الرأي فلم يحجم أن يبديه ويشرح حجته، جريئاً فيما رآه.

وعلــى هذا الدأب ظل عمر قوة لأبي بكر بموافقته ومعارضته على السواء. وأصــاب فيمــا قال له يوم بـايعــه: «إن قوتي لك مع فضلـك»، فكسب الإسلام خليفتــين معاً بتقديم أبــي بكر للخلافة لأنهما لم يبغيــا بـالخلافة مأرباً غير خدمة الإسلام.

•••

ثم بويع عمر بالخلافة فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه.

عرضهــا عليه أبــو بكر فقال: لا حـاجة لي فيها، فقــال أبو بكر: «ولكن لها بــك حاجة يــا ابن الخطاب». وسأل خـيرة أصحابه فقال لــه عبد الرحمن بن عــوف: هو واللــه أفضل من رأيك فيه، وقال عثمان بن عفان: إن سريرته خير من علانيته، وإنه ليس فينا مثله، وسأل أُسيْد بن الحضير فقال: «اللهم أعلمه الخـير بعدك. يرضى للرضا ويسخط للسخـط، والذي يسر خير من الذي يعلن، ولن يليَ هذا الأمر أحد أقوى عليه منه».

وأجمــع المهاجـرون والأنصــار على تزكية عمـر، وتصويـب أبي بكر في ترشيحــه. ولعلهـم لم يذكـروا من مناقبــه إلا ما هو به أعلم وأخـبر، فلم يزده ثنــاء المثني علماً بصاحبه! ولم يكن قـدح القادح ليخلف رأيه فيه، لأنه على عرفانــه بـالدنيـا وعرفانــه بـالناس لا يجهـل أن رجلاً كعمر بــن الخطاب في حزمــه وصدقه لن يخلو من مُبغضـ، ولن يبغضه أحد لما يعيبه ويحول بينه وبين ولاية أمر المسلمين.

قــال له وهو يعرض عليه الخلافة: «يا عمر! أبغضك مبغض وأحبك محب. وقدماً يبغض الخير ويحب الشر».

وإن منهم لمن حذّره شدة عمر وقالوا له: «إنك كنت تأخذ على يديه ولا نطيق غلظته، فكيف وهو خليفة؟ وما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافه علينا؟».

فبلغ الصبر بالرجل الصبور مداه، وأمر مَن حوله أن يجلسوه فجلس، فقال لمن خوّفوه الله وعمر: «أبالله تخوّفونني؟ خاف مَن تزود مَن أمركم بظلم. أقول: اللهم قد استخلفت على أهلك خير أهلك!».

ولو شاء أبو بكر لقال: إن ما خوّفوه من شدة عمر لفضيلة من فضائله التي قدمته عنده على غيره، فقد خاف عليهم الفتنة، وكان أكبر حذره أن تجيء الفتنة من أولئك الأعلام الذين يتبعهم الطغام[1] وليس لهؤلاء غير عمر يرهبونه ويتقون الفتنة باتقائه، فمن هنا وصاه فحذره «هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قد انتفخت أجوافهم، وطمحت أبصارهم، وأحب كل امرئ منهم لنفسه» وقال له: «إن لهم لجيرة عند زلة واحد منهم، فإياك أن تكونه، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله، ولك مستقيمين ما استقامت طريقتك».

فالذين حذّروه عمر إنما رغّبوه فيه ولم يحذّروه منه، لأنه أراد لهم مَن يخافونه ويستقيمون معه، فكانت سيئته عندهم حسنة عند أبي بكر، ورجاء في صلاح أمر الأعلام والطغام.

فلما اتفق مدح المادحين ونقد الناقدين على إيثار عمر بالخلافة فرغ أبو بكر من مشورته، وأبرأ إلى الله ذمته، ودعا بعثمان فأملى عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب: إني استخلفت عليكم بعدي...».

ثم أخذته غشْيَة فكتب عثمان «عمر بن الخطاب»، ولم يترك الكتاب خلواً من الاسم مخافة أن يذهب الموت بأبي بكر في تلك الغشية فيلج من يلج بالخلافة، وله شبهة يحوم عليها.

وإنه ليكتبها، إذ أفاق أبو بكر فقرأ عليه ما كتب، فكبّر وأدرك ما وقع في روْعه فحيّاه ودعا له: «جزاك الله عن الإسلام خيراً: والله إن كنت لها لأهلاً[2]. ثم أتم الكتاب.

1- الطغام: جمع طغامة وهو الوغد.

2- أي: إنك كنت أهلاً لها.

ثــم بويــع عمر بـالخلافــة بإجمــاع لم ينعقد لخليفــة قبله ولا بعــده إلا أن تكون وراثة في دولة استقرت لها دعائم، وثبتت لها أركان فكانت شهادة من الصحابــة والمسلمــين أجمعين، بما هــو أنطق من الألسنة والقلــوب: بالبديهة التي لا تكذب في صادق ولا كذوب.

وجائــز جــداً أن يبدأ عمــر خلافته وهــذا رأي المسلمين فيــه، وأن يختمها آخــر الأمر ورأيهــم فيه على اختلاف، إذ الحكم يخلق العــداوات، ويفتّق أسباب التباعــد في الظنــون والآراء، ويفــتن صاحبــه حتى يتبدل من حيــث يريد ولا يريــد. فشهــادة أخرى من شهــادات الواقــع والبداهة، أن عمر قد فــارق الدنيا والمختلفــون فيه ينقصون، والمتفقــون على حمده يزيدون، ثم هم يزيدون في حمدهم إياه وثنائهم عليه.

دخــل زياد علــى عثمان في خلافته بمــا بقي عنده لبيت المــال فجاء ابن لعثمــان فأخذ شيئاً من فضة ومضى به، فبكــى زياد. قال عثمان: ما يبكيك؟ قال : أتيت أمير المؤمنين[1] بمثل ما أتيتك بـه، فجاء ابن له فأخذ درهماً فأمر بــه أن ينتــزع منه حتى أبكى الغــلام، وإن ابنك هذا جاء فأخذ مــا أخذ، فلم أر أحــداً قــال له شيئاً. قال عثمان: «إن عمر كان يمنــع أهله وقرابته ابتغاء وجه اللــه، وإني أعطي أهلي وأقربائي ابتغاء وجه اللـه. ولن تلقى مثل عمر. لن تلقى مثل عمر. لن تلقى مثل عمر».

وبكى عليٌّ يوم موته فسئل في بكائه فقال: «أبكى على موت عمر. إن موت عمــر ثلمــة[2] في الإسلام لا تُرْتق إلى يوم القيامــة» وقال عبد اللـه بن مسعود: «كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة».

وقــال معاويــة يوازن بين الخلفــاء: «أما أبو بكر فلم يــرد الدنيا ولم ترده، وأمــا عمر فأرادتــه الدنيا ولم يردها، وأمــا نحن فتمرّغنا فيهــا ظهراً لبطن». وقال عمرو بن العاص، وهو يحدث نفسه: «للـه در ابن حنتمة! أي امرئ كان!».

ولم يقــل فيه قائل راض ولا ساخط إلا ثناء كهذا الثناء، بعد خلافة طويلة لو خرج منها بنصف الثناء لأربى على الأمل في إنصاف بني الإنسان.

1- يعني عمر بن الخطاب.

2- الثلمة: الخلل، ورتْق الثلمة: إصلاحها.

ورعى عمر قدر الصحابة والتابعين كما رعوْا قدره. إلا أنه كان مفضلاً في هذه كما كان مفضلاً في جميع محامده وحسناته، فإنه رعى أقدارهم وهو مستطيع ألا يرعاها، وقليل منهم مَن كان قادراً أن يعمل غير ما عمل ويقول فيه غير ما قال.

جمع منهم مجلس المشورة لا يبرم أمراً ولا ينقضه إلا بعد مذاكرتهم والاستئناس بنصيحتهم وسابق علمهم من مأثورات النبي وأحاديثه.

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعاً له فجنّبهم ولاية الأعمال قائلاً لمن راجعه في ذلك: «أكره أن أدنّسهم بالعمل[1] فسبق الدساتير العصرية بحُسن تقسيمه وصادق حدسه وتدبيره. هم مجلس الأمة وليس لأحد من مجلس الأمة أن يليَ عملاً من أعمال الحكومة، فهما في الدولة وظيفتان لا تجتمعان.

وقدم صغارهم على أعظم العظماء من رؤوس القبائل وقروم[2] الجزيرة العربية. فحضر بابه سُهيْل بن عمرو بن الحارث بن هشام، وأبو سفيان بن حرب في جمع من السادة ينقطع ندّهم بين الكابرين[3] وحضره معهم صهيب وبلال وهما موليان فقيران، ولكنهما شهدا بدراً، وصحبا رسول الله، فأذن لهما قبل عِليَة القوم! وغضب أبو سفيان فقال لصاحبه: لم أر كاليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه؟ أما صاحبه فكان حكيماً فقال: أيها القوم! إني والله أرى الذي في وجوهكم، إن كنتم غضاباً فاغضبوا أنفسكم. دعي القوم – إلى الإسلام – ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دُعُوا يوم القيامة وتركتم؟».

ولمَ غير عمر لما تقدم عنده صهيب وبلال، ولا أمِن أن يغضب عليه أبو سفيان وسهيل.

لكنه الحق فوق كل قدر عند هذا القسطاس الذي يعطي كل ذي قدر قدره، حيث ينبغي له من تقديم وتأخير. فيقدم من يقدمه عمله ويؤخره عمله، ولا عليه من غضب الغاضبين ولوم اللائمين.

1– يعني بالعمل هنا الولاية والحكم، أما العمل للإنتاج فقد سبق أن عرفنا رأي عمر فيه.

2– القروم: جمع قرم وهو السيد.

3– أي: ليس لهم مثيل بين السادة الكبراء.

فلمـا ندب النـاس إلى غـزو العراق فبـادر إليه أبو عبيد بن مسعود وتخلف مـن حضر الدعـوة من الصحـابـة ولاه قيادتهـم، وأبى أن يوليهـا رجلاً من السابقـين من المهاجرين والأنصار. وأجاب من راجعـوه قـائلاً: «لا واللـه لا أفعل. إن اللـه رفعكم بسبْقكم وسرعتكم إلى العدو، فـإذا جبُنْتم وكرهتم اللقـاء، فـأولى منكم مَن سبـق إلى الدفع وأجاب إلى الدعـاء، واللــه لا أؤمر عليكم إلا أولهم انتدابـا».

ثـم دعـا معـه ابن عبيـد وسليط بـن قيـس فـأبلغهمـا «إنكمـا لـو سبقتمـا لوَلّيتكمـا» والتفت إلى أمير الجيش الذي اختـاره فقـال لـه: «اسمع من أصحـاب النبـي صلى اللــه عليه وسلم، وأشركهـم في الأمر، ولا تجتهـد مسرعاً حتى تتبـين، فـإنهـا الحـرب». هذا مـا استحقوه، فلا رجحـان لهـم إلا بـالحق، ولا رجحان عليهم إلا للحق.

ومـن الحـق الذي له الرجحان عليهم حق الأمـة جمعاء، وحق الأمـان الذي يعـم الدولة ويوطد أركـانهـا. فـإذا خيف على الدولـة من بعضهم فـأمان الدولة مفضّـل عليهـم، وحقهـا الأكبر مقـدّم على الكبير. فربمـا حبسهم في المدينة لا يسافـرون منهـا إلا بـإذن وإلى أجل، مخافة منهم علـى النـاس ومخـافة عليهم مـن النـاس. ويستـأذنه أحدهم في غزو الروم والفرس محتجاً بسابق بلائه مع رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، فيتخذ من سابق هذا البلاء حجة عليه يذوده بهـا عن السفر، ويقول لـه: «إن لك في غزْوك مع رسول اللـه ما يكفيك ويبلغك، ويحسبك، وهو خير لك من الغزو اليوم، وإن خيراً لك ألا ترى الدنيا ولا تراك».

علـى هذا الوجه وحـده ينبغى أن نفهم كل علاقة كانت بين عمر وبين أحد مـن أكابر الصحـابة والتـابعين، فهـو القسطـاس الذي لا يجور، وكـأنه لا يعرف الجور لو شاء.

بل على هذا الوجه وحده نفهم كل علاقة بينه وبين أحد من عـامة المسلمين. فلـكل رجل ولكل عمـل حقه، ولا ضيْر على أحد أن يتـأخـر قدره ويتقدم عمله، ولا ينفـع أحـداً أن يتقدم قـدره ويتـأخر عمله. فكل عمل ولــه حساب، وكل قدر ولــه كرامة، وأكبر الصحـابة خليق أن ينزل منزلـة المرؤوسين لمن سبقهم إلى العمـل النـافـع. وأصغر النـاس خليـق أن ينـال جزاءه الحسـن إذا استحقه، وكل قسطـاس غير هـذا القسطـاس فـإنمـا يقـارفه الحـاكم لظلـم أو لخوف، وليس هذا

ولا ذاك سبيلاً إلى عمر. لأنه عادل، ولأنه لا يخاف، وإذا وقع ما يخافه غيره فهو ضليع بالتبعات[1].

على هذا الوجه وحده ينبغي أن نلتمس التأويل في محاسبات عمر ومعاملاته إذا وقع منها ما يحتاج إلى تأويل، وقل في محاسبات عمر ومعاملاته ما يحتاج إليه، لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره، وحسابه لنفسه أعسر من حسابه للآخرين.

ففي جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحابة، لم توضع مسألة في موضع التأويل الكثير والمناقشة الحادمة[2] كما وضعت مسألة خالد بن الوليد، رضي الله عنه.

ولا يُعقل أن تكون هذه المسألة شذوذاً عن خطته مع جميع القادة والولاة، لأن الذي صنعه فيها عمر هو الذي كان منتظراً أن يصنعه، سواء كان القائد خالداً أو كان رجلاً غيره، وهذا الذي ينفي الشذوذ والحيْف، أو ينفي المعاملة الخاصة التي تكيل للناس بكيلين وتزن لهم بميزانين، وتنظر إليهم بنظرتين مختلفتين.

عزل عمر خالداً، وهو سيف الإسلام وبطل الجزيرة والشام، وإذا كان لابد لخالد بن الوليد من عازل أو قاض عادل، فلن يكون عازله وقاضيه غير عمر بن الخطاب. هو على قدر عزله بلا مراء، وهو قدر كبير.

فقال أناس، إنها منافسة الند للند والشبيه للشبيه، وقال أناس عزله لغير خطأ أتاه، وقال أناس إنها تِرة[3] قديمة، ولولاها لما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده.

والذين ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تخيّلها لهم وتقرّبها إلى حدسهم، لأن المشابهة بين عمر وخالد كانت مشابهة خُلُق وخَلْق توحي الظن بالتنافس والملاحاة، وكانت مشابهة خالد لعمر في خِلْقته تلتبس على بعض الناس فيكلمون عمر وهم يحسبونه خالد بن الوليد.

1- ضليع بالتبعات: قدير عليها.

2- الحادمة: يقال حدمته الشمس أو النار: أي: اشتد حرُّها عليه. واحتدمت النار أي اشتد حرها ومنه احتدمت المناقشة.

3- الترة: الثأر.

فمـن شـاء أن يخبـط بـالظـن فلـه أن يحسـب أن عمـر قد عزله لغـير سبب يستوجـب عزلـه، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته وأمسك عن الخوض في أمر عزله بعد الفراغ من ضجّته الأولى، وكتب إلى الأمصار يبرئه من الخيانة ويعلنهم «أنه لم يعزله لسخطه ولا خيانة، ولكن الناس فُتِنوا به»، قـال: «فخشيـت أن يوكلوا به ويبتلوا، فأحببت أن يعلمـوا أن اللـه هو الصانع، وألا يكونـوا بعرضـ فتنة».ولما سأله خالد في ذلك قال له: «إن الناس افتتنوا بك فخفت أن تفتتن بالناس».

فمـن شاء أن يخبط بالظن هنا فقـد يخبط ما شاء وله شبهة فيه، ولكنه لا يرجـع إلى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه، ويوقن أن عمر لم يحاسب خالداً بميزان غير الذي حاسب به جميع القادة والولاة، وأن المدهش الحق أن يبقيه في الولاية والقيادة بعد ما أخذ عليه، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بمكيالين.

والـذي أخـذه عمر علـى خالد يرجـع بعضه إلى أيـام النبي عليـه السلام، وبعضــه إلى أيام أبي بكر رضي اللـه عنــه، وبعضه إلى أيامه، وكله مما يصح أن يؤخـذ بـه في موقف الحسـاب، وإن كان الـذي حدث في أيـام عمر وحدها كافياً لما قضاه في أمره.

ففــي فتح مكة، نهى رسول اللـه خـالداً عن القتل والقتال، وقال له وللزبير: «لا تقاتـلا إلا مَـن قاتلكما». ولكن خالداً قاتل وقتـل نيفاً وعشرين من قريش وأربعـة نفر من هُذَيْل، فدخل رسول اللـه مكة فرأى امرأة مقتولة فسأل حنظلة الكاتب: مَن قتلها؟ قال: خالد بن الوليد. فأمره أن يدرك خالداً فينهاه أن يقتل امـرأة أو وليـداً أو عسيفاً – أي أجـيراً – وبعث إليه مَن يسألـه: ما حملك على القتـال؟ فاعتذر بخطأ الرسول في تبليغـه. وشهد الرسول[1] على نفسه بالخطأ فكفّ عنه.

ثـم بعـث رسول اللـه خـالـداً إلى بني جُذَيمـة داعياً إلى الإسـلام ولم يبعثه للقتال، وأمره ألا يقاتل أحداً إن رأى مسجداً أو سمع أذاناً، ثم وضع بنو جذيمة السـلاح بعد جدال بينهم واستسلموا. فأمر بهـم خالد فكُتّفوا، ثم عرضهم على السيـف فقتـل مـن قتل منهـم، وأفلت من القوم غـلام يقال لـه السميدع حتى

1– يعني الرسول الذي حمل رسالة النبي عليه السلام إليه.

اقتحم على رسول الله وأخبره وشكا إليه. فسأله رسول الله: هل أنكر عليه أحد ما صنع؟ قال: نعم. رجل أصفر رِبعة[1] ورجل أحمر طويل. وكان عمر حاضراً فقال أنا والله يا رسول الله أعرفهما. أما الأول فهو ابني، وأما الثاني فهو سالم مولى بني حذيفة. وظهر بعد ذلك أن خالداً أمر كل مَن أسر أسيراً أن يضرب عنقه، فأطلق عبد الله بن عمر وسالم مولى أبي حذيفة أسيرين كانا معهما، فرفع رسول الله يديه حين علم ذلك وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد». ثم دعا علياً بن أبي طالب وأمره أن يقصد إلى القوم ومعه إبل وورق[2]، فودِي[3] لهم الدماء وعوّضهم من الأموال.

وفي عهد أبي بكر، رضي الله عنه، وجّه خالداً إلى بعض أهل الردة يدعوهم إلى أحكام الإسلام أو يقاتلهم حتى يثوبوا إليها. فعزم على المسير إلى مالك بن نويرة، ولم يأمره الخليفة بالمسير إليه. وأحجم الأنصار ينتظرون أن يكتب إليهم الخليفة بما يراه، وقال خالد: قد عهد إليّ أن أمضي وأنا الأمير ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن علمته فإنني لم أعلمه، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به، فأنا قاصد إلى مالك ومن معي من المهاجرين والتابعين ولست أكرههم».

ثم جاءته الخيْل بمالك بن نويرة في نفر من بني ثعلبة بن يربوع، فاختلفت السرية فيهم، يشهد قوم أنهم أذّنوا وأقاموا وصلّوا، ويشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شيء. فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم في ليلة باردة، وأرسل فيما قيل مناديا ينادي: أدفِئوا أسراكم، فظن القوم أنه أراد قتلهم، لأن إدفاء الأسرى كناية عن القتل في لغتهم.

ويروَى أن مالكاً قال لخالد: ابعثنا إلى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا، فلم يجيبه خالد إلى طلبته وقال له: لا أقالني الله أن أفلتك، وتقدم إلى ضرار بن الأزْور يضرب عنقه. وتزوج بامرأته في الحرب، وهو أمر تكرهه العرب وتعايِره.

1- رِبْعة: معتدل الجسم.

2- الورِق: بكسر الراء، المال من الدراهم.

3- وَدِيَ: أعطاهم الديّة وهي المال يعطَى لأهل القتيل بدل النفس.

وقد أبلغ الخبر عمر بن الخطاب فقال لأبي بكر: إن سيف خالد فيه رهق[1]، فاعتذر له أبوبكر بأنه «تأوّل فأخطأ» ووَدِيَ مالكاً واستدعى خالداً إليه.

قدم خالد فدخل المسجد وعليه قباء وفي عمامته أسهم غرزها للمباهاة، فقام إليه عمر فنزعها وحطّمها وقال له: قتلت امرءاً مسلماً ثم نزوْت على امرأته؟ والله لأرجمنك بأحجارك!

وكان أبو بكر رضي الله عنه همّ بعزل خالد لاستئثاره بتصريف المال الذي في ولايته، فسأل عمر: من يجزئ جزاء خالد؟[2]، فندب عمر نفسه ليخلفه إن لم يكن بد من ذلك، وتجهّز عمر حتى أنيخ الظهر في الدار، لولا أن مشى أصحاب رسول الله إلى أبي بكر يوصونه أن يحتفظ بعمر لحاجته إليه، وأن يبقيَ خالداً في ولايته لحاجته إليه فعمل بما أشاروا.

ذلك ما كان في عهد النبي وأبي بكر. فلما بويع عمر كتب إلى خالد أن يراجعه في حساب المال، وألا يعطيَ شاة ولا بعيراً إلا بأمره، فأحاله إلى ما جرى به العمل قبله. وكان قد أجاب أبا بكر بكلام مقتضب قال فيه: «إما تدعني وعملي وإلا فشأنك بعملك» فلم يطقها عمر وقال: «ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه».

وقد أَبْرَمه منه، أنه وهب الشاعر الأشعث بن قيس عشرة آلاف درهم، ونمى الأمر إليه كما كانت تنمي إليه أخبار الولاة والقوّاد من عيونه وأرصاده. فكتب إلى أبي عبيدة أن يحاسبه على هذه الهبة «فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بالخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف».

وقد أبى خالد أن يجيب في مبدأ الأمر، فاعتقله أبو عبيدة بعمامته كما أمر عمر، ونزع منه قلنسوته في موقف المحاسبة حتى قال إنها من ماله. فقوّمت عروضه وضم ما زاد منها إلى بيت المال، وقال له عمر يومئذ: «يا خالد! والله إنك عليّ لكريم، وإنك إليّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء».

ولم يعزله عمر دفعة واحدة على إثر قيامه بالخلافة كما جاء في بعض الأخبار، لأن اسم خالد كان من بين أسماء الشهود على عهد بيت المقدس بعد

1- الرَّهَق: الظلم والسفه والطغيان.

2- يعني: مَن يقوم مقامه ويكون مثل كفايته؟

فتحه، والأرجح أن في تاريخ القصة خطأ وقع فيه بعض المؤرخين ومنهم ابن الأثير، فكتب عن عزل خالد في أخبار السنة الثالثة عشرة للهجرة، ثم ذكره في أخبار السنة السابعة عشرة، وأورد في الموضعين أقوالاً متشابهات.

تلك جملة المآخذ التي أخذها على خالد من عهد النبي عليه السلام إلى عهد خلافته، وما من أحد يعرف عمر ثم يلوّح له أنه أنكر من خالد شيئاً كان يقبله من غيره، وأنه نصب له ميزاناً غير الموازين التي يحاسب بها القواد والولاة وكل صاحب عمل مسؤول. فرأي عمر في إنكار هذه المآخذ معروف من بداية أيامه، والذين لزموه وتأدبوا بأدبه ينكرونها مثله ولو كانوا على البعد منه، كما حدث من ابنه في بعثة جُذَيمة حيث أبى على خالد بطشه بمَن أوثقهم وعرضهم على السيف، ثم أنكر النبي عليه السلام ما أنكره واستصوب ما استصوباه.

فعمر كان يكره الإسراع إلى القتال، ويوصي قوّاده بالتريّث فيه، وربما نحّى القائد المغوار عن القيادة وهو كفء لها، لأنه يعجّل بالقتال كما قال لسُلَيْط بن قيس: «لولا أنك رجل عَجِل في الحرب لولّيتك هذا الجيش، والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث».

وكان يتحرّج غاية الحرج أن يستبيح دماً بريئاً أو مشكوكاً فيه، وتقدم في هذا الكتاب أنه لام أناساً من أصحابه لأنهم قتلوا رجلا ارتد عن دينه، وقال لهم: «هلا استتبتموه وحبستموه؟»، وتبين من رأيه في أهل الردة، أنه كان يؤثر الهوادة والاستتابة على القتال. فإن كان قتالاً فالذي لا حيلة فيه ولا محيص عنه، فإنكاره لمقتل مالك بن نويرة وأصحابه هو رأيه الذي لا شذوذ فيه، ويضاف إليه إنكار البناء بامرأته[1]، ووقع البناء بها في أثناء المعركة، وهو أمر لا ينفرد عمر بكراهته وانتقاده، بل تكرهه العرب عامة، مسلمين وغير مسلمين.

وكان عمر يحاسب جميع الولاة أدق حساب: يكتب عروضهم[2] قبل ولايتهم، ويسألهم فيما فشا من طارئ أموالهم، ويأمرهم إذا عادوا إلى أهلهم

1- البناء بالمرأة: الزواج منها.

2- العروض: المتعة.

أن يدخلـوا المدينـة نهـاراً لينكشف ما عادوا بـه إليهـم، ويقاسمهم كل درهم يربَى[1] على المحسوب من أرزاقهم. ويجري على السنة مع كل والٍ وكل عامل ذي أمانـة. فلـم يستثنِ منها أحداً قط، ولم يُعـرَف والٍ قط سلم من مصادرة أو حساب عسير.

فالذي صنعه خالد حين أنكر «سرعة هجماته وشدة صدماته» سُنَّة عُمَرية لا شـذوذ فيها، والذي صنعه حين حاسبه علـى هِباته وتوزيعاته سُنّة عمرية كذلـك لا شذوذ فيها، ولـو أنه صنع غير هذا الصنيع لقـد كان ذلك هو الشذوذ المستغـرب الـذي لا يقع من عمر بن الخطاب خاصـة، لأنه لا يحابي ولا يفرّق في المعاملـة ولا يبالي غضب قائد كبير ولا والٍ قدير. وليس يحب أن يقال إن رجـلاً من الرجال لا غنى عنـه لدولة الإسلام، فربمـا كان شيوع هذه العقيدة أخطر على الإسلام من عزل والٍ مظلوم أو ولاة مظلومين.

ولا ننسى الأمانة الكبرى التي هي أكبر من أمانة الرفق بالولاة والعدل في محاسبة العمال، ونعني بها أمانة الدين والدولة، أو ما نسميه نحن في أيامنا «بالسياسة العليا».

عمـر لا يتركنا نفسـر أعماله هنا باجتهادنا في فهمهـا وتأويلها على ما نراه، بل يصرح للناس فيها بما يغنيهم عن التفسير والتأويل.

فـكان يرعى في شؤون الـولاة الكبار والقواد المشهورين أمرين يجيزان له عزلهم ولو لم يقع منهم ما يوجب المؤاخذة.

أحـد هذين الأمريـن، أن يفتتن بهم الناس فيفتتنوا هـم بالناس، كما قال لخالـد بعـد عزله. والخوف في هذا الأمر من القائد الكفء أعظم من الخوف من قائد صغير لم يبل أحسن البلاء، ولم تتساير بذكره الأنباء، فليس لهذا خطر في بقائه كخطر القائد الكبير.

وخطته هنا عامة لا يخص بها والياً دون والٍ ولا قائداً دون قائد.

فلمـا عـزل زياد بن أبـي سفيان عن ولايـة العراق سأله زيـاد: لم عزلتني يـا أمير المؤمنين؟ أَلِعجْز أم خيانة؟ فقال لـه: لم أعزلك لواحدة منهما، ولكني كرهـت أن أحمل فضل عقلك علـى الناس. وقديماً قال فيه عمر: لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه، فالحيطة منه وفاق رأيه فيه.

1- يربَى: يزيد.

وقد كان من خلق عمر، أن يقدم الحذر ويأخذ الحيطة ويطيل الرويّة، ثم يجزم بالرأي السديد في غير إبطاء، ولهذا كان يكره ولاية الرجل الفخور وينهَى عنها في خلافته وقبل خلافته، فأشار على أبي بكر ألا يولّي خالد بن سعيد، وكلمه في عزله لأنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب، فعزله أبو بكر كما أشار.

فإذا اجتمع لعمر هذا السبب من أسباب السياسة العليا إلى المآخذ التي أنكرها على خالد، فلا جناح عليه، ولا محل للشك والظنة في أسباب عزله.

لقد رأى زهْو خالد بالنصر والغلب قبل أن يفتح الشام ويسبق بالشهرة أندادَه من القواد: رأى ذلك يوم عاد من حرب أهل الردة، فدخل المسجد وفي عمامته السهام، ورآه يوم استقل ببيت المال في ولايته على عهد أبي بكر وعلى عهده، ورآه في أمور كان يبتدئها ولا يستأذن فيها، ورآه فيما يحس ولا يلمس ومما يقدر ولا ينتظر، فإذا أشفق أن يفتتن بالناس كما افتتنوا به، فلا جناح عليه.

وثاني الأمرين اللذين يدخلان في تقديرات السياسة العليا، ويجيزان العزْل في غير جريرة ظاهرة، أن يصبح القائد ضرورة لا غنى عنا لتسيير الجيوش وفتح الفتوح، وأن يعزَى إليه النجاح فتتخاذل العزائم وتصغُر أقدار القادة دونه، وأن تعظم العقيدة فيه فتضعف العقيدة بالله، ويخسر الجيش بذلك أضعاف ما يخسره بإقصاء قائده ولو لم يكن له نظير.

فإن كان له نظير، كما تبين من اختيار عمر لقوّاده في كل ميدان، فلا خسارة هناك، بل هو كسْب العقيدة وكسْب قائد جديد. وإذا حان اليوم الذي ينتفع فيه بالقائد المعزول فهو قمين أن ينفع ما بقيت فيه بقية من صلاح وخير.

وتعويل عمر على العقيدة أمر تعزوه إلى كل شيء فتراه فيه على صواب: تعزوه إلى إيمانه بالله فهو فيه مصيب، وتعزوه إلى حُسن سياسته فهو فيه مصيب، وتعزوه إلى تقديره للواقع فهو مصيب، فكل أولئك كان خليقاً أن يرجّح كفة العقيدة عنده على كل كفة، وأن يوجب عليه استبقاءها قبل كل استبقاء. وألا يزال بالناس يذكّرهم ما ذكرهم به حين كتب إلى الأمصار بعد عزله خالداً «إن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة».

ولـو أن رئيساً لخالـد غير عمر بن الخطاب في إيمانــه المكين لما فاته أن يعلـم أيـن كانت قوة المسلمـين وبمَ كان انتصارهم في جميـع الميادين، ولا فاتــه أن يستبقيَ هذه القوة بكل وسيلة، وأن يفتديها بجميع ما في يديه: تلك قـوة العقيـدة لا مراء، إن ضاعـت فلا عوَض عنها، وإن بقيـت فللقادة عوض كثير.

فكيـف بعمـر بن الخطاب، الـذي يؤمن بهذا إيمــان تسليم، كمـا يفكر فيه تفكـير سياسة وتدبـير؟ لئن نسي ذلك لهو الحقيق باللـوم على نسيانه، ولئن ذكـره فاقتضــاه ذكره أن يعزل خالداً بغير جريرة لما كان عليه من لوْم. وهو كمــا رأينــا، لم يعزله لغـير جريرة، أو لم يكـن حسابه له مختلفــاً عن حسابه للقــادة الـولاة. وقد كان أبـو بكر نفسه – وهو مَن أبقـى خالداً – يلمح بعض الخطر من افتتان الناس به حين قال: أعجزت النساء أن يُنشئن مثل خالد!

ويؤكـد تعويـل عمـر علـى العقيـدة في كل نجــاح، وإسنــاده كل فشل إلى ضعفهــا والترخُّص فيها، أن الجيش الذي غزا مصر أبطأ في فتحها، فالتمس عمر علة ذلك في ضعف نيّاتهم، وكتب إليهم يقول: «عجبت لإبطائكم عن فتح مصـر تقاتلونها منـذ سنتين. وما ذاك إلا لما أحدثتـم، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن اللـه تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نيّاتهم».

فنظرته في عزل خالد هي النظرة العامة التي لا تخصيص فيها لرجل ولا لمعركـة ولا لمـكان، وتقديمه العقيدة على كل عُدة مـن عدد النصر هو الخطة التــي جـرى عليهــا في مراقبة القــادة ومراقبــة الجيوش وتدبير عـدد النصر وتجنيـب المسلمين مآزق الخـذلان وهل أخطأ؟ هل كانت منــه حماسة إيمان ولم تكـن رويّــة تفكير؟ هل يرى غير هذا الرأي نـاقد عسكري من أعداء الإسلام لـو بحث في الأمر ونفذ إلى حقائـق الأسباب؟ كلا، بل هو صدق الرأي وصدق الإيمان معاً مقترنين لا يشير هذا بغير ما يشير به ذاك.

ودون هـذا من أسباب «السياسة العليــا» يجيز لعمر ما استجازه من عزْل خالـد مـن القيادة والولايــة، ولا سيما بعد ما أخذ عليه مــا أخذ، وبعد ما علم النـاس أنه لا يسامح أحداً في أمثال هذه المآخذ. فما بـاله يسامح خالداً فيها؟ إنــه إذن لصانــع النصر الذي لا غنى عنه، وإن الخطـر الأكبر الذي يخشاه لقد حـق علـى الجند وعلى الدولــة، ولقد حق معه خطر آخر لا يقـل عنه: أن يسكن

الناس إلى التفرقة في الحساب، وأن يألفوا ما يعاب إذا عيب من الرؤوس والأقطاب، دون الأتباع والأذناب.

ومسألة أخرى يجب ألا يغفل عنها الرجل العصري وهو ينظر في عزل خالد للأسباب التي قدمنا أو لأي سبب غيرها. وذلك أن حقوق الولاية في عصرنا غير حقوق الولاية في عصر عمر على التخصيص، وهو العصر الذي بدأت فيه تجربة الولاية والعمالة في دول الإسلام.

فالولاية في عصرنا مركز يستحقه موظف الحكومة بعد مرانة طويلة ودراسة خاصة واستعداد مقصور على طائفة من المرشحين لها لم تشركهم فيه طائفة أخرى، وكأنها صناعة العمر التي لا يحتمل عُمر الإنسان تجديد صناعتين مثلها. فإذا قيل إن والياً عُزِل في عصرنا فكأننا نقول: إن تاجراً صودر ماله أو زارعاً حيل بينه وبين زرع أرضه. ومصادرة من هذا القبيل حريٌّ أن تلتمس لها أسباب من قبيلها في الرجاحة والإقناع.

غير أن الولاية في عهد عمر لم تكن كذلك بوجه من الوجوه، ولم يكن لصاحبها مثل هذا الحق الذي اصطلح عليه، وإن لم ينص عليه القانون، وإنما كانت تجربة ارتجالية يتساوى فيها جميع الصالحين من المسلمين، لا تنقطع بها صناعة العمر ولا سابقة الاستعداد والمرانة، فيصح أن يُعزَل الوالي لأسباب أهون من تلك الأسباب التي قدمناها في الرجاحة والإقناع، ويصح أن يكون للعزل معنى المناوبة في ندبة متساوية بين جميع المسلمين.

لله در ابن حنتمة! أي رجل كان!.

كلمة قالها رجل يعرف الرجال. قالها عمرو بن العاص، وكأنه لم يكن يود أن يقولها لولا أنطقه بها الإعجاب الذي لا يجدِي فيه كتمان.

وهي كلمة يقولها الناظر في سيرة عمر كلما وقف من أخبارها موقف الناقد الذي يبحث عن الخطأ فيلفيَه حيثما بحث عنه عسيراً جد عسر. أي رجل كان هذا الرجل؟ أي عدل عدله؟ أي قسطاس كان قسطاسه؟ أي حساب كان حسابه لنفسه؟ وأي سبيل للناقد إلى رجل كان يحاسب نفسه هذا الحساب؟

وربما اختلفت الأمزجة أو اختلف تركيب العقول والأبدان فقل في ذلك ما تشاء، وقل في خلائق عمر ما تشاء. قل هي الشدة والصرامة، أو قل هي الخشونة والصلابة، أو قل هو نسيان الضعف وفرط الغيرة على الحق في عالم

تستكـثر فيه مصانعة الحقـوق ويستعظم فيه تكلف الصواب، قل ما بدا لك من ذلـك واذهـب ما شئت أن تذهب فيه، فإنـك لا تعطِي المزاج حقه ولا تفرض له فرضـه حتـى تحار بعد ذلك في سبب انتقاد أو علة اختلاف، لأنه لا يزاول أمراً إلا وهو صواب لا محل فيه لسوء الطويّة من وجهة ذلك المزاج.

كنـا نقـرأ عن عزل خالد ما تتفق قراءته من هنـا وهناك، وكنا نستمع إلى الذيـن يردونه إلى المنافسة والتناظر، فنجيز هذا ولا نمنعه، أو نرى فيه منالاً مـن قـدْر عمر ومنقصـة تغض مـن إعجابنا بمزايـاه، لأنه قد يغـار من خالد ويعزلـه لغير جريرة، ويبقى له بعد ذلك قـدْره الجليل وأثره الضخم في تاريخ الإنسان.

وفي عصرنـا هـذا رأينا أبطـالاً خدموا أقوامهـم ثم بلغ مـن ضغنهم على منافسيهـم أنهـم قتلوهـم ولم يقنعـوا بإقصائهـم عن الحكـم ولا بمحاسبتهم بين يدي القضـاء. ثم نصب الناقدون لهم موازين النقد فأسقطوا السيئات من الحسنـات، وقرنوا قتلى أفراد بإحياء أمـة، فبقي لأولئك الأبطال حقهم الخالد في الثناء العظيم. وإذا بلغ من صواب عمر، أنك لا تحصي عليه خطأ غير عزله لخالـد، ما جـرى مجراه فما أكثر هـذا صواباً على الآدمـي وإن كان من أعظم العظماء!

بدأنـا نقـرأ عن هـذه القصـة وفي خُلدنـا هذا الفرض الـذي يحملنا على استبعادهـا، وعندنا أنـه خطأ يُذكر إلى جانب حسنات، فـلا ضيْر أن يكون له موضعه في جانب تلك الحسنات.

ثـم نقرأ كل ما تسنّى لنا أن نقـرأه في هذه القصة، فلا نزال نستبعد الخطأ ونستبعـده ولا تزال كلمة ابن العاص تعود إلى لساننا وتعود، حتى نطقنا بها كما هي، وغفر الله لابن العاص.

وهكـذا كنـا نصنع في كل خطـأ نُسب إلى عمـر وتواتر علـى السماع دون تمحيصـ واستقصـاء. فلا تزال بنا الوقائع حتى يثبـت بطلانه من أساسه، أو يضعـف سنده ضعفـاً لا يبيح الاعتماد عليـه، إلا لمن يتجنّـى ويتمحل ذرائع النقد ودعوى التخطئة والعيْب.

كلا. هذا رجل لا يسهل نقده، ولا يتأتى لإنسان أن يحاسبه كما حاسب هو نفسـه، ولن يقع الخلاف بين المنصـف وبينه إلا على أنه اختلاف في الأمزجة

وتركيـب العقـول والأبدان. فـإذا وُضِع هذا موضعه من التقديـر فـأعسر عسير بعد ذلك أن تلومه على خطأ، وأن تحصِي عليه خطأ فيه من سوء النية نصيب.

فالـذي حصل والـذي كان متوقعاً حصوله ينفيان الظنـة عن مروءة عمر وإنصافـه في قضية خالـد بن الوليد، وقد حكم فيها بمـا وجب عنده، وانتهى كل شـيء بعد ذلك في هـذه القضية بـانتهاء الغرض منهـا في مصلحة الدولة ومصلحـة السياسـة العليـا. إذ لا موضـع فيهـا لحـزازات النفوس وصغائـر المنافسة وما تجر إليه من لغو المشاكسة وفضول الكلام.

قـال لخالد: لـن تعتب عليّ في شـيء بعد اليوم، ثم أمسـك عن الخوْض في قضيته إلا أن تثار في معرض عام، فيشير إليها حيث تثار على سبيل الاعتذار، ويقبـل مـا شاء له كرم الخليقـة أن يسمع من ملام الأقربـين والمشايعين وإن أغلظوا في المقال، على ما كان له من هيبة ترد الجامح وتخيف مَن لا يخاف.

وقـال مـن خطبتـه بالجابية: إنـي أعتذر إليكم مـن عزل خالد بـن الوليد، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين، فأعطى ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان.

فتصدى له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وجابهه بكلام غليظ يقول منه: «واللـه مـا أعذرت يا عمر. ولقـد نزعت غلاماً استعمله رسـول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، وأغمدتَ سيفاً سلّه رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، ووضعت أمراً نصبه رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، وقطعت رحماً وحسدت بني العم».

فمـا زاد عمـر على أن قـال وهو يعذره: «إنـك قريب القرابـة، حديث السن، تغضب في ابن عمك».

ولم ينـس أن يصون للرجل اسمه ومنزلتـه في أمصار المسلمين، فكتب ما ألمحنا إليه آنفاً يرحض عنه سُمْعة العجز والخيانة، ويجعل العزل فضيلة فيه لا لقصور منه، ولا لتثريب عليه.

وعلـم بموتـه فاشتد حزنه عليه واسترجع[1] مـراراً، ونكس رأسه وهو يُكثر من الترحُّم عليه، ثم قال: كان واللـه سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة.

ولم يهمه أن يذكر صوابه أو خطأه في عزله بمقدار ما أهمه أن يعلن فضله ويذكـر حسناته فقال: «قد ثلم في الإسلام ثلمة لا ترتَق». وقيل له: لم يكن هذا

1- استرجع: قال «إن لله وإنا إليه راجعون»

رأيـك فيـه، فلم يحجـم أن يعلن قـائلا: «ندمـت على مـا كـان منـي إليه». وقـال في غـير هذا المعرض، وبلغه أنــه لم يعقب من حطام الدنيا غير فرسه وغلامه وسلاحه: «رحم اللـه أبـا سليمـان، كـان على غير مـا ظنناه بـه».

وقـد كـان عمـر ينهى عـن الندب والعويـل، فلمـا مـات خالـد واجتمع بنـات عمــه يبكينه، وسئل عمر أن ينهاهــن قـال: «دعهن يبكين على أبي سليمـان، مـا لم يكـن نقع أو لقلقة، علــى مثْلِه تبكي البواكي». ودخل هشام بن البختري في أنـاس من بني مخزوم على عمر، فاستنشده شعره في خالد، وقـال له وقد أطال الإصغاء إليه: «قصرت في الثنـاء على أبي سليمـان. رحمه اللـه، إن كـان ليحب أن يـذل الشرك وأهلــه، وإن كـان الشامت بـه لمتعرضـاً لمقت اللـه. رحم اللـه أبـا سليمـان! مـا عند اللـه خير له ممـا كـان فيه».

ومــن الحق أن يقـال: إن قضية خالد قد أرتنـا مروءة خالد كمـا أرتنا مروءة عمــر، وقــد عرضت لنـا هذا البطل في صفحتيه، فــإذا هو بطل الفؤاد في ولايته وبعــد عزله، وفي شدته على عــدوّه وطاعته لأميره. ومـا على مِثله من ضيْر أن يحــق عليه العــزل في ميزان عمر بن الخطـاب، فذاك ميــزان تعلو فيه الكفة ولا يــزال صـاحبهـا راجحـاً أي رجحــان. وقد استحق المجد بيقـين واستحق العزل بظــن، ولولا مصلحة أعلى مــن مصلحة الإبقـاء على رضـاه، لقد كـان ذلك الظن حقيقيـاً بـالغض عنه والتجوّز فيه.

وكفــى بـالرجلين فضــلاً أن يختلفـا ومــن وراء اختلافهمـا فضل يعترف بـه كلاهمـــا، ويعــترف بـه كل محب وشانــئ، وكل منصف وجاحــد، ومـا نخـال أن تقديرنـــا خـالــداً وتقديرنـا عمر، يدعونـا أن ننصــب الميزان في هذه القضية من جديد، فقصـارَى مـا نغنم من ذلك أن خـالداً كـان جديراً بـالبقـاء في منصبه ولم يكن مستحقـاً لعزله، وليس بشيء إلى جـانب مـا رأينـاه حين ننصب الميزان في القضيــة، كمــا نصبه خليفة الإسلام، فقد أرانـا عــدلاً أعظم من بطولة الأبطـال، فــإن أخطأ البطل – على تقدير خطئه – فـالعــدل أعظم منه وأحرى أن يتعقبه كـأنــه من أضعف الضعفـاء، وذلك ميزان أشرف لعمر ولخـالد وللإسلام من كل ميزان.

ثقافة عمر

إذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا أن نقول، إنه كان رجلا وافر الحظ من ثقافة زمانه، إنه كان أديباً مؤرخاً فقيهاً، مشاركاً في سائر الفنون، مدرباً على الرياضة البدنية، خطيباً مطبوعاً على الكلام، فليس أرجح من نصيبه في ثقافة زمانه نصيب.

ظل في إسلامه كما كان في جاهليته، عظيم الشغف بالشعر والأمثال والطُّرف الأدبية، بل ظل كذلك بعد قيامه بالخلافة واشتغاله بجلائلها ودقائقها التي لا تدع له من وقته فراغاً لغيرها، فكان يروي الشعر، ويتمثل به ويحث على روايته ويعتدها من تمام المروءة والمعرفة، كما قال لابنه عبد الرحمن: «يا بني انسب نفسك تصل رحمك، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه. ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقاً ولم يقترف أدباً». وقال للمسلمين عامة: «ارووا الأشعار فإنها تدل على الأخلاق».

ونظر إلى فائدته العملية كما نظر إلى متعته الأدبية، فقال فيه: إنه جذل[1] من كلام العرب، يسكن به الغيظ وتطفأ به النائرة[2] ويبلغ به القوم في ناديهم، ويعطَى به السائل.

1- الجذل: الأصل.

2- النائرة: الهياج.

وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التي لا يبالي الموت لو حُرِم نصيبه منها، فكان يقول: لولا أن أسير في سبيل الله، وأضع جبهتي لله، وأجالس أقواماً ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب الثمر لم أبال أن أكون قد مت.

وإذا أقرنت العبادة باستطراف الحديث المهذب عند عمر، فذلك غاية ما يبلغه فضل الأدب عنده من ثناء وتقريظ.

وقد كان إعظام الرجل في عينيه بمقدار حذقه للحديث وقدرته على الإبانة والمطلق الحصيف، فنظر يوماً إلى هرم بن قطبة ملتفاً في بت[1] بناحية المسجد وقد عرف تقديم العرب له في الحكم والعلم وهو ما هو من دمامة وضآلة ومنظر زريٍّ، فأحب أن يكشفه ويسبر حكمته، فسأله في علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل: أرأيت لو تنافرا إليك اليوم أيهما كنت تنفر[2]؟ فأجابه الرجل: يا أمير المؤمنين، لو قلت كلمة لأعدتها جذْعة، أي لأعاد الحرب فتيّة كما كانت، فأثنى عليه وقال: لهذا العقل تحاكمت إليه العرب.

وجاءه وفد فيه الأحنف فتركهم جميعاً واستفتح ما عنده من الحديث فأعجبه وأعظم قدره وعقد له الرئاسة إلى أن مات.

وسرّه أن عاد العرب إلى رواية الشعر بعد أن شغلهم عنه الجهاد في سبيل الدين، فكان يقول: إن الشعر «كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولُهِيَت عن الشعر وروايته فلم يئلوا[3] إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقله وذهب منهم أكثره.

ومن ناحية الأدب فيه وناحية الدين معاً حثه على تعليم العربية «لأنها تثبِّت العقل وتزيد في المروءة»، وقد أوصى بوضع قواعد النحو لأنه قوام العربية.

1- البت: الطيلسان من خزٍّ ونحوه

2- نفر فلانا ينفره: عَلِيَه في المنافرة، ونفّر فلاناً بتشديد الفاء، وأنفره: أعانه وغلبه وحكم له، وهو المقصود هنا.

3- لم يئلوا: لم يرجعوا.

ولم يـزل عمر الخليفة هو عمر الأديب طوال حياتـه، ولم ينكر من الشعر إلا مـا ينكـره المسؤول عن دين، ولم ينس قط أنه الأديب الحافظ الراوية إلا حيث ينبغي أن ينسى ذلك ليذكر أنه القاضي المتحرر الأمين.

فنهى عن التشبيب بالمحصنات كما نهى عن الهجاء، وجيء له بالحطيئة متهماً بهجاء الزبرقان بن بدر حيث يقول فيه:

دع المكارم لا ترحل لبُغْيتها　　　واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي[1]

فنسـي أنـه الأديب الراويـة، ولم يذكر إلا أنـه القاضي الذي يـدرأ الحدود بالشبهـات ولا يحكم بما يعلم دون ما يعلمـه أهل الصناعة، وقال للزبرقان: مـا أسمـع هجاء ولكنها معاتبة. ثم سأل حسان بـن ثابت فقضى بأنه هجاه وأفحش في هجائه، فحبسه وأنذره ونهـاه أن يعود إلى مثلها، فانتهى طوال حيـاة عمـر، ثـم عـاد إلى الهجـاء بعد وفاتـه واستعـداه تميم بـن مقبل على النجاشي لأنه قال في قومه بني العجلان:

إذا اللـه عادى أهل لؤم وذلة　　　فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

فذكـر عمـر قضاءه ولم يذكر روايته للشعر، وقال علـى سنة القضاء يدفع الحدود بالشبهات: إنه دعاء والله لا يعادي مسلماً. قال تميم: فإنه يقول عنا:

قبيلته لا يغدرون بذمّة　　　ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر: ليتنى من هؤلاء. قال تميم، وإنه يقول:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم　　　وتأكل من عوْف بن كعب بن نهشل

فقال عمر: كفى ضياعاً بمن تأكل الكلاب لحمه.

قال تميم: وإنه ليقول:

ولا يردون الماء إلا عشيّة　　　إذا صدر الورّاد عن كل منهل

فقال عمر: ذلك أصفى للماء وأقل للسكاك «أي الزحام»

قال تميم، وإنه ليقول:

1- الطاعم الكاسي: أي المُطعَم المكسُو.

وما سُمّي العجلان إلا لقولهم هذا القعب[1] واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم أنفعهم لأهله.

قال تميم، فسله عن قوله:

أولئك أولاد الهجين وأسرة اللئيم ورهط العاجز المتذلل

فقال عمر: أمّا هذا فلا أعذرك عليه، وحبس الشاعر وضربه وأنذره لئن عاد ليضاعفن له العقاب.

وقد تجوّزنا فقلنا: إن عمر نسي علمه بالشِّعر ليذكر إبراء الذمة في القضاء. وقد حاول ذلك جهده فأفلح لو يفلح أديب في نسيان أدبه. ولكنه مطلب ما استُطيع قط ولن يُستطاع. فكان عمر في تخريجه للكلام وعلمه بما تنصرف إليه معانيه، أخبر بالشعر من قاض لا يفقه منه إلا ظاهر لفظه ومعناه.

ومن المشهور عن عمر، أنه كان عليماً بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر أنسابها كعلمه بالمتخيّر من شعرها والسائر من أمثالها.

جنح إلى ذلك بطبعه ونقله عن أبيه، وكثيراً ما كان يقول كما جاء في البيان والتبيين: سمعت ذلك عن الخطاب. ولم أسمع ذلك عن الخطاب.

ومن وصاياه: «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد[2] إذا سئل أحدهم عن أهله قال من قرية كذا» ومنها «عليكم بطرائف الأخبار، فإنها من علم الملوك والسادة، وبها تنال المنزلة والحظوة عندهم».

وفقه عمر بالشريعة التي كان مسؤولاً عن نفاذها مشهور بين الفقهاء كاشتهار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه. فكان عبد الله بن مسعود يقول: «كان عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله»، وكان إذا اختلف أحد في قراءة الآيات قال له: اقرأها كما قرأها عمر، وأطنب فقال: «لو أن علم عمر بن الخطاب في كفة ميزان ووضع علم الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم»، ولقد كانوا يروون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم، وقال ابن سيرين: «إذا رأيت الرجل يزعم أنه أعلم من عمر فشك في دينه»، وكل ما فسر به آي القرآن في

1- القعب: قدح ضخم غليظ، جمعه قعاب وأقعب.

2- النبط: جيل من العجم ينزلون بالبضائع بين العراقيين.

معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح في وزن العقل والدين، وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح.

ونصائحه للعلماء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ما هو العلم وماذا يجمُل بالعلماء في طلبه، فكان يقول: «تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن يجهلكم»، وكان يوصي طلابه «أن يكونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم، ويسألوا الله رزق يوم بيوم، ولا يضيرهم ألا يكثر لهم»، ولا يزال يذكرهم أن التفقه مقدم على السيادة «فتفقهوا قبل أن تسودوا».

ولم يقصر نصائحه على علم الدين، ولا علم الأدب واللغة وحده، بل تناول كل ما عرف من معارف زمانه فقال: «تعلموا من النجوم ما يدلكم على سبيلكم في البر والبحر ولا تزيدوا عليه». ولا شك أن نصائحه العملية في طلب العلم كانت أغلب من نصائحه النظرية فيه، شأنه في ذلك شأن رجل الدولة الذي يعلّم الناس ما ينفعهم ويصلح معاشتهم ويهذّب أخلاقهم. ولكننا مخطئون إن فهمنا من هذا القول الذي رويْناه في علم النجوم أنه كان يكره الزيادة الحديثة فيه، كما عرفناها نحن في أيامنا، فإنما الزيادة التي كرهها هي تلك الزيادة التي كانت على عهده تخوض في التنجيم وتربط أقدار الناس بالكواكب، وتجعل منها أرباباً تُعبد وأرصاداً تؤتمن على أسرار الغيب. وذلك ما ننهَى عنه الآن ونعد النهي عنه من تحقيق العلم الصحيح.

ولم يفته الحرص على المعرفة التي تخترع منها منافع للناس في أمر المعاش، فطلب إلى أبي لؤلؤة غلام المغيرة أن ينجز ما ادعاه من اختراع طاحون تدار بالهواء، وهو علم الصناعات كما انتهى إليه في عصره، لا يضيره أنه قسط ضئيل، بل حرصه عليه مع ضآلته دليل على ما يلقاه منه تشجيع الصناعة يوم يراها جليلة كبيرة الآثار.

على أن زبدة الثقافة كلها في أقطاب الحكم وعظماء الأعمال، إنما تتلخص في شيء واحد هو، الدراية بالناس، ونفاذ البصر في شؤون الدنيا، وصدْق الخبرة بدخائل النفس البشرية، أو هو ما نسميه في أيامنا هذه، بالرأي السليم والحكمة العملية، وهو مجال كان عمر بن الخطاب قليل النظراء فيه، وحفظت له كلمات معانيه يندر مثيلها بين كلمات الحكام، ولا يكثر مثيلها بين كلمات الحكماء.

فـأي كلمة أدل على النفس البشرية من قوله: «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرّيْن».

وأي نفـاذ في تركيب الطبائع أمضى من نفاذه إذ يقول: «ما وجد أحد في نفسه كبراً إلا من مهانة يجدها في نفسه»، أليس هذا بعينه هو مركّب النقص الذي يلهج به علم النفس الحديث؟

وأي رأي في تجربـة الناس أصدق من رأيه حين يقـول: «لا تعتمد على خلـق رجل حتـى تجرّبه عند غضبـه» أو حين أثنى بعضهم علـى رجل أمامه فسألـه: أصحبتـه في السفر؟ أعاملته؟ فلما أجاب نفياً قال: «فأنت القائل بما لم تعلم؟».

وأي فهْـم لمعنى الاستعـداد للعمل أقرب من فهمه حـين ينصح العاملين: «إذا توجه أحدكم في الوجه ثلاث مرات فلم ير خيراً فليدعه»؟

كذلـك سداد جوابه حين سئـل فيمن يشتهي المعصية ولا يفارقها، وفيمن ينتهـي عنها وهو لا يشتهيها، أيهما أفضل وأجزل مثوبة عند اللـه؟ فكتب في هـذا فصل الخطـاب، إذ قال: «إن الذيـن يشتهون المعصيـة ولا يعملون بها»، «أولئـك الذيـن امتحـن **الله** قلوبهـم للتقوى لهم مغفـرة وأجر عظيـم» وكذلك وصيتـه بكتمـان السـر وتبيينه لحُسْن عقبـاه حين قال: «مَـن كتم سره كان الخيار بيده».

وكذلك وصيته في الحب والبُغض حين قال «لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً».

وكذلـك مخافته محنـة الفراغ على النـاس أشد من مخافتـه محنة الخمر حين قال «أحذركم عاقبة الفراغ فإنه أجمع لأبواب المكروه من السكر».

وكذلـك وصايـاه التـي كانـت تحفُـل بهـا كتبـه إلى الـولاة، وخطبه في الصلـوات والأعيـاد كلهـا آيات مـن هذه الحكمـة العملية التي هـي خلاصة الثقافة المحمودة في أقطاب الحكم خاصة، وفي كل رجل يزاول شؤون الحياة على التعميم.

أمـا مشاركته في سائر الفنون والمعارف التـي كانت ميسورة على عهده فمنهـا المستغرب عند مـن يتخيّل صورة عمر من جُمْلـة أخباره، ولا يتقصّى فيها إلى التفصيل.

فقليل من يتخيل أن عمر كان يعرف «جغرافية» الشرق كأحسن ما يعرفها رجل في وطنه، ولكنه كان يعرفها حقاً عن سماع وعن رؤية وعن زكانة تعين السماع والرؤية. بل كان يفرض على الولاة أن يحيطوا بعلم ما يتولونه من البلاد، ويعزل مَن يرى فيه تقصيراً عن ذاك. فاستقدم عمار بن ياسر، أمير الكوفة، لما شكوه إليه وقالوا في شكواهم «إنه لا يدري علام استعمل» وجعل يسأله عن المواقع والبلدان من بلاد العرب والفرس حول الكوفة سؤال مطلع خبير، ثم عزله لتقصيره بعد اختباره.

ومن الواجب، أن نشك في كل خبر يوهم أن عمر كان يجهل معرفة من المعارف العملية التي يحتاج إليها في تدبير الدولة، فلا يعقل مثلاً أنه كان يجهل المعرفة العامة بالحساب، وقد كان تاجراً منذ نشأته في الجاهلية، وكان يحضر الجيوش ويعرف ما هي الألوف وما هي عشرات الألوف، فإذا استفسر عن رقم فلن يكون إلا استفسار تجاهل واستعظام وليس بجهل وغرارة، كما جاء في أخبار الخراج من هَجَر والبحرين.

قال أبو هريرة ما فحواه: قدمت من هَجَر والبحرين بخمسمائة ألف درهم: فأتيت عمر بن الخطاب ممسياً أسلمه إيّاه فسأل كم هو؟ قلت خمسمائة ألف درهم! قال: وتدري كم خمسمائة ألف درهم؟ قلت نعم: مائة ألف ومائة ألف خمس مرات. قال: أنت ناعس، فاذهب فبت الليلة حتى تصبح!

فكل شيء يجوز أن يفهم من هذه القصة إلا أن عمر كان يجهل ذلك الرقم ولم يسمع بمثله قبل ذلك، وهو الذي شهد الدولة وحسابها من عهد أبي بكر، وأحصى الجند والمال في عهده. إنما هو غبطة واستعظام وليس هو جهلاً بدلالة هذا الرقم في جملة الحساب.

وإذا قلّ مَن يتخيل علم عمر بالجغرافيا والحساب، فأقل من أولئك مَن يتخيّل له حظاً من السماع والغناء، ولكنه كان يسمع ويغني في بعض الأحيان، ولا ينهى عن غناء إلا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات. جيء له برجل يغني في الحج، وقيل له: إن هذا يغني وهو محرِم، فقال: دعوه فإن الغناء زاد الراكب.

وروى نائل، مولى عثمان بن عفان، أنه خرج في ركْب مع عمر وعثمان وابن عباس، وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رياح بن المعترف الفهري، الذي كان يحدو ويجيد الحداء والغناء. فسألوه ذات ليلة، أن يحدو لهم فأبى

وقــال مستنكــراً: مع عمر! قالــوا: احْد فإن نهــاك فانته. فحــدا[1]، حتى إذا كان السحر قال له عمر: كُفّ فإن هذه ساعة ذكر، ثم كانت الليلة الثانية فسألوه أن ينصــب لهم نصب العــرب، فأبى وأعاد استنكاره بالأمس قائلاً: مع عمر؟ قالوا لــه كمــا قالوا بالأمس: انصب فإن نهاك فانتــه. فنصب لهم نصب العرب حتى إذا كان السحــر قــال له عمر: كفّ فــإن هذه ساعة ذِكر. ثم كانــت الليلة الثالثة فسألــوه أن يغنّيهــم غناء القِيان[2] فما هو إلا أن رفــع عقيرته[3] بغنائهن حتى نهاه وقال له: كف فإن هذا ينفر القلوب.

وكان يخــرج للحــج ومعه مَــن يُحسن الغنــاء فيقترح عليــه أن يغني شعراً ويؤثر أن يكون ذلك من شعره.

خــرج مرة للحج ومعه خوّات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بــن عوف، فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار، وقال عمر: بل دعوا أبــا عبد اللــه فليغن مــن بُنَيّات فؤاده. فما زال يغنيهم حتى كان السحر، فهتف عمر: ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا.

وجــاء قــوم فذكــروا أن إمامهــم يصلي بهم العصــر ثم يتغنّــى بأبيات من الشعــر، فقام معهم إليه واستخرجه من منزله وسأله فيما بلغه عنه، واستنشده الأبيات التي يغنيها، فأنشده:

وفــــؤادي كــلــمــا نــبّــهــتــه	عاد في اللذات يبغي تعبسي
لا أراه الــــدهـــــر إلا لاهــــيــــاً	في تــمــاديــه فــقــد بــرح بــي
يا قرين السوء ما هذا الصبا	فــنــي الــعــمــر كذا بــالــلــعــب[4]
وشــبــــاب بان[5] مني فمضى	قبــــل أن أقضــي منــه أربــي
نفس لا كنت ولا كان الهوى	اتــقِ الــمــولى وخــافي وارهبي

1- الحداء: الغناء للإبل كي تجدّ في السير، والنصب: غناء أرقّ من الحداء وهو غناء الركبان.

2- القيان: جمع قيْنة وهي الجارية البيضاء، وقيل: تختص بالمغنية.

3- عقيرته: صوته.

4- الصبا: من الشوق، يقال منه «تصابَى»، والصبا اللعب مع الصبيان.

5- بان: ذهب وودّع.

فأعـاد البيت الأخـير، وقال لمن شكـوا إليه: من كان منكـم مغنياً فليغنِ هكذا، وكان في سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد:

وما حملت من ناقة فوقها رحلها أبر وأوْفى ذمة من محمد

فاجتمع الركْب إليه، فقرأ فتفرقوا. فعل ذلك وفعلوه مرات، فصاح بهم: «يا بنـي المتكاء[1]! إذا أخـذت في مزامير الشيطان اجتمعتم، وإذا أخذت في كتاب اللـه تفرّقتم؟» لا يلومهم على الغنـاء وسماعه، وإنما يلومهم أن يؤثروه على سماع القرآن مرات.

ولا شـك أن الشغـف بالشعـر الجـزل والحديـث الرائق والصـوت الحسن لا يجتمـع في نفس إلا اجتمع معه ذوق للجمال وسرور بكل حسن جميل. ولكن أيـن يقـع هذا من صرامـة عمر وبأسه وشـدة حجْره على زينـة الحسان؟ فقد دخل في روْع أناس أنها جميعاً من نقائض حب الجمال، وقد سمعنا هذا فعلاً من أدباء يجلون عمر ولا يحسبون ذوق الجمال من مأثور حسناته، لأنه كان شديـداً في الحجـاب وكان ينفي الفتيان الحِسان كمـا صنع بنصر بن حجاج ومعقـل بن سنان، وكان يقول: «استعينوا باللـه من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر».

وعندنـا نحـن، أن هذا جميعه ينم على الإحساس بخطر الجمال وطغيان فتنتـه، ولا ينـم علـى غفلـة عنـه وقلة مبـالاة بأثـره. ومـا نخال أحـداً من المترخصـين في الحجـاب كان يؤمـن بسلطان الجمـال أبلغ مـن إيمان عمر بسلطانـه، أو كان يعـرف حق المرأة في الشوق إليه كمـا عرفه وأمر برعايته، فإنـه ينكـر علـى الآبـاء أن يُكرِهـوا فتياتهم على قبـاح الوجـوه ويوصيهم: «ألا تكرهـوا فتياتكم علـى الرجل القبيح فإنهن يحببن مـا تحبون». وجاءت لـه امـرأة بزوج أشعـث أغبر تسأله الخلاص منـه، فأمر به أن يُحَـم وأن تقلّم أظفـاره، ويؤخذ من شعره، ثم قال له ولمـن في مجلسه: «هكذا فاصنعوا لهن فواللـه إنهن ليحببن أن تتزيّنوا لهن كما تحبون أن تتزين لكم».

فكل ما رُوِي عن عمر من الشدة والرفق في معرض الجمال، فهو دليل على الإحساس به وإكبار خطـره، وليس بدليل على الغفلة عنـه واستصغار أثره، وربما كانت الشدة والحجْر أدل على ذلك من الرفق والمحاسنة.

1- المتكاء: المرأة لم تُختَن.

●●●

ومـن الآداب العامة التي لها حـظ من ذوْق الجمال في معارض السياسة، أدب الذكريـات الذي لا يستغني عنه ولاة الأمر الموكلون بإحياء معالم الدول والاحتفال بمراسمها وأعيادها.

ففـي هـذا الأدب كان لعمر النصيب الذي يعنيه، فهـو الذى اختار أو وافق علـى اختيـار يوم الهجـرة بداية للتاريـخ الإسلامي. وإنه لأصلـح يوم يؤرخ بـه الإسـلام، لأن العقائد كما قلنا في «عبقرية محمـد»: «تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب، وكل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة. أما النفس التـي تعتقد حقاً ويتجلّى فيها انتصار العقيـدة حقاً فهي النفس التي تؤمن في الشدة وتعتقد ومَن حولها صنوف البلاء».

وكلمـا اقتُرِح على عمر اقـتراح فيه نفحة من ذوْق الذكرى، كان مجيباً له سريـع الإصغـاء إليه، فكان يحترم وفـاء بلال وإقلاعه عـن الأذان بعد وفاة النبـي عليه السلام، ولكنه دعـاه إلى الأذان تلبية لاقتراح الجُلة من الصحابة في يـوم وداع دمشـق بعـد الفتح المبـين. فبينما المسلمون يشهـدون الصلاة الجامعـة، إذا بالصـوت الذي انقطع بعد النبي يرتفع رويـداً رويداً في الفضاء ويسري رويداً رويداً من الأسماع إلى الصدور، والتفتوا وكأنهم يسألون: ماذا؟ هـل عـاد محمـد إلى الأرض؟ إن لم يكن قـد عاد الحنين إليه أقـوى ما ينبعث مـن صوت إنسان إلى صدر إنسان. فذابت قلوب لا يذيبها الهوْل، وبكى أشيَب أولئك الأبطال وأصبَرهم على حر القتال.

وإذا كان عمر، المعجب بالجمال مستكنا وراء ستار يُحْوِجنا إلى النظر من ورائـه، فعمر الرياضي المشغـول بالرياضة البدنية ظاهر لنـا بعمله وقوله، وبسيرته في الجاهلية وسيرته بعد الإسلام، وسيرته بعد الخلافة إلى أن فارق الحياة.

فـكان يصـارع في المواسم ويسابق على الخيـل، وكان ينوط مجد العرب بالرياضـة والفروسيـة ويكتـب إلى الأمصـار أن «علّمـوا أولادكـم السباحـة والفروسيـة ورووهـم ما سار من المثـل وحسُن من الشعـر» ولا يفتأ يذكرهم أنـه: «لـن تخور قوى ما دام صاحبها ينزع وينزو» أي يرمي بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب.

أمـا الخطابة فقد كانت فيه من صفـات البِنْيَة ولم تكن من صفات الذهن وكفى، فكان له فم يمتلئ بالكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول، ولوحظ عليه أنه كان ينطق ببعض الحروف – كالضاد – من كلا شدقيه، وهي في الأغلب تنطق من شدق واحد.

وكان جهوري الصوت واضح النطق سليم الشفتين في إخراج الحروف، وكتابته كلها كأنها خطب مرتجلات تقرؤها فكأنك تصغي إلى خطيب لا تفقد منه إلا الصوت المسموع.

ولانطباعه على الكلام الذي لا تصنع فيه كان يسهل كل كلام يوافق طبعه ولا يستصعب من الخطب إلا الذي يغير من نظرته إلى الناس ولجْئه إلى المداراة والباطل فكان يقول: «ما يتصعدني[1] كلام كما تصعدني خطب النكاح»، والتمس ابن المقفع علة ذلك فقال: ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه، ونظر الحداق من قرب في أجواف الحِدَاق[2]، ولأنه إذا كان جالساً معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفّاء، وإذا علا المنبر صاروا سوْقة ورعية. والتمس الجاحظ علة ذلك فروى عن أناس أنهم رجعوا باستصعاب عمر لخطب النكاح إلى «أن الخطيب لا يجد بداً من تزكية الخاطب، فعنه كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زوراً وغرّ القوم من صاحبه».

وكلا القولين جائز في بيان وجه المخالفة بين طبع عمر والتكلم في محافل النكاح. فهو مطبوع على أن يتكلم إلى الناس كلام رجل يقود الرجال، ومطبوع على الصدق الذي تثقل على صاحبه المداهنة، وهي مما لا غنى عنه في هذا المقام، ولو كان الخاطب من الأكفاء.

وقد اختلفوا في نظمه الشعر، فزعم الشعبي أنه كان شاعراً ورُوَيَت أشعار لا تشبه ولا ترضيه، ونفى هو نظمه للشعر حين قال: «لو كنت أقول الشعر لرثيْت أخي زيداً».

ولا طائل في هذا الخلاف، لأنه لن ينتهي إلى رأي قاطع يسكت عليه، ولكنما المهم في هذا الصدد، أنه كان مطبوعاً على التعبير وله عبقرية فيه، أو

1– ما يتصعّدني كلام: ما يشقُّ عليّ.

2– الحِداق: جمع حدقة وهي سواد العين.

أن تعبيره كان خاصاً به ولا يشبهه تعبير سواه، فهو تعبير عُمَرِيٌّ بمفرداته وتركيبه لا يلتبس بتعبير أحد من أهل عصره حتى ليسهل تمييز كلامه من كل كلام، ويصعب تزوير القول عليه ولو أحكمت المحاكاة.

فمن خصوصياته في التعبير أنه كان يقول: «لولا الخليفى لأنت» وهو يعني الخلافة ولا يقصد الإغراب.

ومنها وهو ينقل خبر إسلامه إلى خاله: «وجئت إلى خالي فأعلمته فدخل إلى البيت وأجاف الباب» أي أوْصده.

ومنها وهو يصف ما وقع في نفسه من الآية التي تلاها أبو بكر، رضي الله عنه حين أنكر موت النبي فقال: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقرت حتى ما تقلني رجلاي»، يعني أنه عجز عن القيام.

ومنها في الكتابة والقراءة ينهي عن العجلة فيها: «شر الكتابة المشق وشر القراءة الهذرمة، وأجود الخط أبْيَنه[1].

ومنها وهو يذكر امرأة كانت تسقي الناس يوم أحد: إنها «كانت تزْفُر للناس القِرَب» أي تحملها.

ومنها في المشورة: «الرأي الفرد كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين المترميْن، والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض»[2].

ومنها حين كتب إلى أبي عبيدة بعد ولايته الخلافة: «ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس»[3]. ومنها حين شكا إليه الشاكي هجاء الشاعر الذي قال فيه :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورّاد عن كل منهل

فقال: ذلك أنفى «للسكاك» أي الزحام.

ومنها في سماحه بالبكاء «ما لم يكن نقع أو لقلقة «أي ما لم يثر التراب ويفرط في العويل.

1- مشق في الكتابة: مدّ حروفها وأسرعَ فيها، هذرم القرآن: أسرع قراءته لا يتدبر معانيه.

2- السحيل: الثوب السحيل الذي لا يبرم غزله، مرار: قوي مُحْكَمة.

3- الكثف: الجماعة.

ومنها وقد حار بأهل الكوفة: «أعضل[1] بي أهل الكوفة ما يرضوْن بأمير ولا يرضاهم أمير».

ومنها: «إن قريشاً تريد أن تكون مغويات لمال الله» أي مصائد تحتجنه لها دون عباد الله.

ومنها: «تمعددوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزواً» أي تزيُّوا بزي العرب من معد بن عدنان.

ومنها: «فرّقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين، ولا تلشوا[2] بدار معجزة» أي تقيموا.

ومنها: «فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا» أي أن يتعرضا للقتل.

ومنها: «إن الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في الضلالة، فافهموا ما توعظون به، فإن الحريب من حرب في دينه» يريد المسلوب.

ومنها، وقد سمع بالمرأة سافرة يبرزها زوجها فقال: «هذه الخارجة وهذا المرسلها لو قدرت عليهما لشترت بهما» أي لأغلظت القول لهما.

ومنها لما سألوه: لم حصبت المسجد فقال: «هو أغفر للنخامة وألين في الموطئ» أي أستر للبصاق.

ومنها: «ثلاث من الفواقر[3]: جار مقامة إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة أذاعها، وامرأة إن دخلت عليها لسنَتك، وإن غِبت عنها لم تأمنها. وسلطان إن أحسنت لم يحمدك، وإن أسأت قتلك»، ولسنتك: أي تناولتك بلسانها.

ومنها: وهو يخاطب سعد بن عبادة يوم السقيفة: «لقد هممت أن أطأك حتى تنذر عضدك» أي تسقط.

ومنها وهو يتكلم عن امرئ القيس: «خسَف لهم عين الشعر، فافتقر عن معانٍ عُورٍ أصح بصر»، أي استنبط عين الشعر وشق طريق المعاني وأتى بالشوارد الحسان.

1- أعضل بي: أعياني أمرهم.

2- في المختار: ولا تقيموا بلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والتعيش.

3- الفواقر: جمع فاقرة وهي الداهية.

ومنهـا وهو يتكلم عن نصيـب المسلمين في الغنائم وبيـت المال: «والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمرّ وجهه»، أي قبل أن يخجل ويحمر وجهه في طلبه.

ومنهـا قوله لأعرابي استفتاه في صيد ظبي وهو محرِم: «أتقتل في الحرم وتُغْمِص الفتيا!» أي تعيبها ولا ترضاها.

وأشبـاه هذا كثـير لا تخلو منه خطبة أو حديث أو كتـاب، تعمّدنا أن نُكثِر شواهده لنرى أنه ليس بالمصادفة وليس بالتكرير لنمط واحد من العبارات.

وتلحق بهذا تسمية مواليه بين أسبق وأسلم، ويرفأ وفرقد وذكوان وفروخ، ومـا شابـه هذه الأسمـاء، وهي تسمية مفـردة تكاد تقتصر عليـه، وإنما هي الطبيعـة العُمَريّـة تمثلت صيغة الكـرم وفي اختيار الأعلام، فـلا تستطيع أن تسميهـا إغرابـاً أو عسلطة أو تعملاً[1] بنحو مـن أنحائه، إذ ليس وراءهـا قصد متفـق في جميـع هذه الصيـغ، وأبْيَن ما يبين فيها أنها مـن عفو البداهة هنا وهناك، وأنها تترجم عن الطبيعة العمرية أصدق ترجمة وأشبهها بصاحبها، فهـي قوية خشنة مستقلة جادة خالية من الزخرف. وهكذا كان المتكلم عمر، وهكـذا كان كلامه الذي ينطبع عليه حـين يكون منطبعاً على التعبير، فلو أن كلمـات تتمثل رجلاً لتراءى لنا من أمثال هذه الكلمات شخص عمر في خُلُقه وخَلْقه كما كان.

•••

ومحصـل هذه الأخبار جميعاً، أن عمر كان من نخبة المثقين في العربية، وكان وافـر السهم في ثقافة قومـه وعصره. وكان الجانب العملي من ثقافته أغلـب وأظهر من جوانبها النظرية، كما هو المعهـود في ساسة الأمم وعواهل الـدول. وإن كان هـذا لا يمنع أنه اشتاق إلى نفائس الشعر وأطايب الأدب لما يجده فيها من راحة النفس ومتعة الخاطر.

×××

ويستطـرد بنـا الكلام علـى ثقافتـه العربيـة إلى الكلام علـى موقفه من الثقافـات الأخرى في زمـانه، وعلى حقيقة الروايـة التي شاعت وتواترت عن

1– العسلطة: الكلام بلا نظام، وكلام معسلط أي مخلط. والتعمّل: التكلف.

موقفه من مكتبة الإسكندرية، التي قيل إنه أمر بإحراقها. فهل هو الآمر بإحراقها كما جاء في تلك الرواية؟ وإذا كان هو الآمر بذلك فما دلالته على تفكيره؟ وما وجه التبعة فيه؟ فحوى تلك الرواية أن عمرو بن العاص رفع إليه خبر المكتبة الكبرى في الإسكندرية، فجاءه الجواب منه بما نصه: «أما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه. فتقدم بإعدامها». قال مفصل هذه الرواية: فوزّعت الكتب على أربعة آلاف حمام بالمدينة ومضت ستة أشهر قبل أن تستنفد لكثرتها!

وأحرى شيء أن يلاحظ في مسألة المكتبة هذه، أن الذين أدحضوها وأبرأوا عمر من تبعتها كان معظمهم من مؤرخي الأوروبيين الذين لا يتهمون بالتشيع للمسلمين، وكانوا جميعاً من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم في هذا الموضوع.

فالمؤرخ الإنجليزي الكبير «إدوارد جيبون: gibbon» صاحب كتاب الدولة الرومانية في انحدارها وسقوطها، يسرد الحكاية ويعقّب عليها قائلاً: «أما أنا من جانبي فإنني شديد الميْل إلى إنكار الحادثة وتوابعها على السواء، لأن الحادثة لعجيبة في الحق كما يقول مؤرخها، إذ يسألنا هو أن نسمع ما جرى ونعجب! وهذا الكلام الذي يقصُّه أجنبي غريب يكتب على تخوم ميدية بعد ستمئة سنة يوازنه ويرجح عليه ولا شك سكوت اثنين من المؤرخين، كليهما مسيحي وكليهما مصري، وأقدمهما البطريق «بوتيخيوس:eutychius» الذي توسّع في الكتابة عن فتح الإسكندرية. وإن القضاء الصارم الذي نسب إلى عمر لبغيض إلى أصحاب الفهم الصحيح المستقيم من فقهاء المسلمين، الذين يفتون بتحريم إحراق الكتب الدينية التي تُغنَم من اليهود والمسيحيين في الحرب، وما كان من الكتب دنيوياً ظنيناً سواء ألفه المؤرخون أو الشعراء أو الأطباء أو الفلاسفة، فحكمهم فيه أن يستخدم على الوجه المشروع لمنفعة المؤمنين. وقد تعزَى إلى متقدمي الخلفاء بعد محمد غيرة أضرّ من ذلك بالهدم والإبادة. ولكن لو صح هذا لوجب أن تنفد الأوراق سريعاً لقلة المادة المحترقة! فلا ترجع إلى نكبة المكتبة في الحريق الذي أصابها على غير قصد بيدي قيصر وهو يدافع عن نفسه، ولا إلى تعصُّب المسيحيين الأوائل الذين

كانوا يدبرون الوسائل تدبيراً لتعفية الآثار المتخلّفة من أيام عبادة الأصنام، ولكننا ننحدر شيئاً فشيئاً من عصر أنتونين إلى عصر ثيوديسيوس، فنعلم من سلسلة الأنباء المعاصرة، أن القصر الملكي وهيكل سرابيس لم تبق فيهما تلك الأسفار التي جمعها البطالسة، وبلغت في إحدى الروايات أربعة آلاف، وفي رواية أخرى سبعة آلاف، ولا يبعد أن تحفل الكنيسة ومعهد البطارقة بذخيرة من الأوراق والأضابير، فإن كانت هذه هي الوقود الذي أفنته الحمامات بما كان فيها من جدل بين القائلين بتعديد الطبيعة المسيحية والقائلين بتوحيدها، فقد يرى الفيلسوف وعلى فمه ابتسامة أنها كانت في الحمامات أنفع لبني الإنسان».

والدكتور «ألفرد بتلر:butler» المؤرخ الإنجليزي الذي أسهب في تاريخ فتح العرب لمصر والإسكندرية يلخص الحكاية وينقضها ابتداء، لأن حنا فلبيوتوس الذي قيل إنه خاطب عمرو بن العاص في أمر المكتبة لم يكن حياً في أيام فتح العرب لمصر. ثم ينقضها لأسباب شتى منها، أن كثيراً من كتب القرن السابع عشر كانت من الرّق[1] وهو لا يصلح للوقود، وأنها لو قضى الخليفة بإحراقها لأحرقت في مكانها ولم يتجشّموا نقلها إلى الحمامات مع ما فيه من التعب ومع إمكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بأبخس الأثمان، وأننا لو صرفنا النظر عن الكتب المخطوطة على الرق، لما كفى الباقي من ذخائر المكتبة لوقود آربعة آلاف حمام مئة وثمانين يوماً، وهذا عدا الشك الذي يعتوِر القصة من تأخُّر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الإسكندرية، ثم كتابتها بعد ذلك خلواً من المصادر والإسناد، بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة في السنة الثامنة والأربعين للميلاد، وفيما تلا ذلك من الفتن والقلاقل بين طوائف المسيحيين.

والمستشرق كازنوفا، يسمَّي الحكاية أسطورة ويقول إنها نشأت بعد تاريخ الحادثة بستة قرون، وينقضها لمثل الأسباب التي لخصناها من كتاب بتلر، ثم يقول: «وهناك اعترض أخطر مما تقدم وهو، أن ما ذكر عن يحيى النحوي منقول من كتاب «الفهرست» لابن النديم في أواخر القرن العاشر، وفيه أن يحيى هذا عاش حتى فُتِحت مصر، وكان مقرباً من عمرو ولم يذكر

1– الرق: بفتح الراء وكسرها، جلد رقيق يكتب فيه.

شيئـاً عن مكتبـة الإسكندريـة، فحادثة المكتبـة إذن من أوهــام ابن القفطي أخذها عن خرافة كانت شائعة في عصره».

ثـم يمضي في تفنيده فيقول: وقـد تساءل ابن خلدون عن مخلفات الفرس والآشوريـين والبابليـين والقبط التي حرقها عمر عند فتـح العرب. وقال ابن خلـدون في كلام آخـر: إن العـرب لما فتحوا بـلاد الفرس، سأل سعـد بن أبي وقاص عمر عما يأمر بــه في شأن الكتب التي بها، فأمـره بإلقائها في اليَمِّ فانتقلـت القصة من فارس إلى الإسكندرية مع الزمن، وفعل الخيال فعْله في تحريفها.

«وقـد وقع تحريـف في هذه الخرافة في بعض دوائـر المعارف، حيث نقل عن سبرنجل: إن مكتبة الإسكندرية حرقها العرب عند فتح مصر، وأن الخليفة المتوكل أنشأها من جديد، وأن الترك فتحوا الإسكندرية 868، وأضرموا فيها النـار علـى عهد أحمد بن طولون. ولكن أحمد بـن طولون لم يفتح مصر وإنما أقامه خليفة بغداد حاكماً عليها، فلا علاقة للترك إذن بهذا الحادث المزعوم».

قـال: «وفي سنـة 1877 ذكـرت الكونـت دي لندبـرج، أن أحـد الضبــاط الإنجليز اتهم نابليون الأول بإحراق مكتبة الإسكندرية».

قـال: «وسنلم هنا بالسبب من أجله ظهـرت هذه الخرافة في القرن الثالث عشر ولم تظهر قبل ذلك».

«ففي أواخر القرن الثاني عشر، رجعت مصر إلى حكم خلفاء بغداد، وأبلى صـلاح الدين بـلاءه في الحروب الصليبيـة وانتصر علـى المسيحيين، فلقبه الشعـب بفـاتح مصر، وقـرن بين اسمــه واسم عمر بـن الخطـاب. وكان لابن القفطـي أب يُعجَـب بصلاح الديـن ولاه صلاح الدين قضــاء القدس، وعـاصر عبـد اللطيف البغـدادي، وهو من المعجبـين مثله بصلاح الديـن، فتلاقيا في القدس وسمع منه هذه الأسطورة التي توسع ابن القفطي في نقلها. فكأن أول مـن ألف الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد. ومما يـروَى عـن صلاح الدين، أنه بـا ع كنوز القصر والمكتبة فبقيـت هذه الرواية إلى القـرن الثامن عشـر يوشّيها ما ينسجه الخيال حـول الخرافة العمرية. ثم اتخذت صورتها التاريخية منذ ذلك العهد تعززها خرافات أخرى لحقت بعمر ووافقت معنى قوله: ألا كتـاب إلا كتـاب اللـه..».

ومـن المشارقـة الذين تناولـوا حكاية المكتبـة، المؤرخ الكبـير جورجي زيـدان، في الجزء الثالث من كتابه «تاريـخ التمدن الإسلامـي» حيث قال: إنه كان يميل إلى نفي الحكاية ثم عدل عن ميْله هذا إلى قبولها وأورد من أسباب ذلـك «أن حكايـة إحـراق مكتبـة الإسكندريـة لم يختلقها أبو الفـرج لتعصب دينـي، ولا دسّهـا أحـد بعـده، بل هـو نقلها عن ابـن القفطي وهـو قاض من قضـاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأصول والمنطـق والنجـوم والهندسـة والتاريـخ والجـرح والتعديـل، وكان صـدراً محتشمـاً جمـع من الكتب مـا لا يوصف، وكانـوا يحملونها إليـه من الآفاق، وكانـت مكتبته تساوي خمسين ألف دينـار، ولم يكن يحب من الدنيا سواها، ولـه حكايات غريبـة من غرامـه بالكتب، ولم يخلـف ولداً فأوصـى بمكتبته لناصـر الدولة صاحب حلب، وله مؤلفات عديـدة في التاريخ والنحو واللغة، وفي جملتهـا كتاب أخبار مصـر من ابتدائها إلى أيام صـلاح الدين في ستة مجلـدات، وكتاب تراجم الحكماء الذي نحن في صدده، وأن ابن القفطي وعبد اللطيـف البغـدادي أخذا عن مصدر ضائع. وأما خلـو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلابد له من سبب، والغالب أنهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الإسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب، فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه، أو لعل لذلك سبباً آخر، وفي كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبي الفرج».

ونـرى نحـن أن ابن القفطـي كان أوْلى ممَن تقدمـوه بالسكوت عن حريق المكتبـة بأمر عمر بن الخطاب لـو كان الذين تقدموه قد سكتوا عنه لعرفانهم قـدر الكتب وغيرتهم على سمعة الخلفـاء الراشدين، فإن ابن القفطي لا يجهل قدر الكتب ولا يسبقه سابق من المؤرخين في المغالاة بنفاسة المكتبات. فلابد مـن تعليل أصوب من هـذا التعليل لسكوت المؤرخـين المسلمين والمسيحيين الذين شهدوا فتح مصر عن هذه الحكاية إلى أن نجمت بعد بضعة قرون.

فمـن جملـة هـذا العرضـ لآراء نخبة من الثقـات في هـذه المسألة، يحق لنـا أن نعتقد أن كـذب الحكاية أرجح من صدقها، وأنهـا موضوعة في القرن الـذي كتبت فيه ولم تتصـل بالأزمنة السابقة له بسنـد صحيح، وربما كانت مدسوسـة على الرواة المتأخرين للتشهـير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب

الذميم عليه وعلى الإسلام.

وإذا كانت هذه الحكاية من تلفيق النيات السيئة، فالمعقول ألا توضع قبل القرن السادس الهجري الذي تسربت فيه إلى الكتب المدوّنة، وهذا يفسر لنا كل غموض يستوقف النظر في الحكاية من جميع أطرافها.

لأن تلفيق هذه الحكاية يستلزم عناصر شتى لا تجتمع كلها في وقت واحد قبل القرن السادس للهجرة.

فهو يستلزم أن يكون الملفق عليماً بالأقوال والأحوال التي أثرت عن عمر بن الخطاب. وفيها ما يجعل حكاية المكتبة قريبة التصديق مشابهة لما يتوخّاه الخليفة في أوامره ونواهيه. ولم تكن هذه الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين أنفسهم عند فتح الإسكندرية، فضلا عن المسيحيين أو الإسرائيليين، وإنما علمت واستفاضت بعد ما دوّنت السير وجمعت المتفرقات.

ويستلزم تلفيق الحكاية، للتشهير بالخليفة المسلم، أن يكون الملفق عارفاً بما في هذه التهمة من المعابة، شاعراً بما فيها من الاعتساف والغرابة، ولم يكن هذا أيضاً مفهوماً في أيام فتح الإسكندرية بين خصوم الإسلام، لأنهم كانوا قد تعوّدوا إحراق الكتب والتماثيل واعتبار الوثنية وبقاياها رجساً من عمل الشيطان يستحق نار الدنيا قبل نار الجحيم، وما من عارف بالكتب بينهم إلا كان يسمع بحماسة القياصرة المسيحيين في تدمير التحف الإغريقية ولا سيما «ثاوديسيس» الذي أحرق هياكل شتى، فيها ولا شك كتب كثيرة من بقايا المكتبة التي عليها الخلاف.

وقد يستلزم تلفيق الحكاية، أن تكون مصر أخبارها موضع اهتمام ومثار قيل وقال، ولم تكن مصر قبلة أنظار العالم كما كانت في أوقات الحروب الصليبية، يوم كانت هي ميدان الفصل ومناط الظفر والهزيمة بين جيوش الدنيا المحشودة فيها أو على أبوابها.

وقد يستلزم كذلك أن يكون العصر حزازة بين الإسلام وخصومه كما كان عصر الحروب الصليبية وما قبله بقليل.

وقد يستلزم مع جميع أولئك أن يشترك في القيل والقال حافظو الكتب الإغريقية في بيزنطية وشواطئ آسيا الغربية، وهي البلاد التي كانت موطئ

أقدام الجيوش في الكرّ والفرّ والقدوم والإياب، ومنها تدفق حافظو الكتب إلى أوروبا عندما أغار الترك بيزنطية من تلك الأرجاء.

فتلفيق الحكايات إذن كان عجيباً في أيام فتح الإسكندرية وما تلاها من الأزمنة إلى زمان القفطي والبغدادي وأبي فرج الملطي، ولهذا لم تظهر حكاية المكتبة في تلك الأيام.

وتلفيقها في عصر الحروب الصليبية غير عجيب لاجتماع الأسباب التي يستلزمها ذلك التلفيق، ولهذا ظهرت فيه وأمدنا ظهورها فيه بالسبب الذي يبطل العجب ويفسر الغوامض التي لا يفسرها تعليل معروف غير هذا التعليل.

إلا أننا على الرغم من كل هذا، نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية، فما الوصمة التي تلحقه من هذا الأمر؟ ولماذا يحرم عليه أن يحرقها ويجب عليه أن يستبقيها ويفتح أبوابها؟ ولماذا كان ينبغي أن يكون على يقين أنها شيء مفيد للمسلمين ولغيرهم من الأمم، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها؟

أمن النقص في تفكير الإنسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصر حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها، إن صح أنهم حفظوها؟

إن أحوال الروم والقبط في ذلك العهد لم يكن فيها دليل واحد على أنهم محتفظون بينهم بمعرفة نفسية، وأن ضياع كتبهم فيه ضياع لذخيرة من ذخائر العالم التي لا يجوز التفريط فيها.

فقد كانوا على شر حال من الضعف والفساد والجهل والهزيمة والشقاق والتهالك على سفاسف الأمور. فإذا كان عمر مطالباً بعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الاطلاع عليها، وإذا كانت أحوال الأمم التي هي أهلها لا تدل على قيمتها بل تسوّغ الاعتقاد بخلوّها من كل قيمة، فأين العيب في تفكيره إن صح أنه فكر على ذلك المنوال؟

إنما يعيب الإنسان أن يكون عدواً للمعرفة على إطلاقها، ولم يكن عمر عدواً للمعرفة ولا معرضاً عنها، بل كان مشغوفاً بها حيث رآها دينية أو أدبية، ومن قومه أتت أو من غير قومه.

فـكـان يستشير الغربـاء في تدوين الدواويـن ومنـافع الصنـاعة، ولا ينتهي عن علم شيء إلا أن تكون فيه فتنة أو ضلال.

وكان ولا ريب، يؤثر للمسلمين أن يُقبِلوا على دراسة القرآن ويقدموا فهْمه علـى فهْـم كل كتــاب. وهذا واجبـه الأول الذي لا مـراء فيه، وما مـن أحد هو مطالـب بهـذا الواجب قبل أن يطالب بـه عمر على التخصيص، لأنه الخليفة الذي في عهده انتشر المسلمون بين أقطار المشرق، وخيف عليهم أشد الخوف أن ينحل العقد الذي جمعهم وبث فيهم الهمة والبأس وسوّدهم على العالمين.

وفي الأخبار التي نقلت بهذا الصدد، أن رجلا أنبأه أنهم لما فتحوا المدائن أصــاب كتابــاً فيه كلام معجب، فسأله: أمن كتــاب اللـه؟ قال لا. فدعا بالدّرّة فجعـل يضربـه بها وهو يقول: «الر تِلْكَ آيَـاتُ الْكِتَابِ الْمُبِـينِ«1» إِنّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًـا عَرَبِيًّـا لّعَلّكُـمْ تَعْقِلُونَ «2»». ثم قــال: «إنما أهلك مـن كان قبلكم أنهم أقبلـوا على كتـب علمائهم وأساقفتهم وتركـوا التوراة والإنجيـل حتى دُرِسا وذهب ما فيهما من العلم».

رويـت هـذه الروايــة عن عمر بـن ميمون عن أبيــه، وليس فيها مــا يأباه العقل، ولو حكمنا على عمر بحكم الدنيا وحكم التجربة الواقعية وتركنا حكم الدين والإيمان إلى حين.

فبالتجربــة الواقعية، أيقن عمر أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلمات إلى النور وانتصروا على مَن حاربوه وعندهم كل كتاب.

ومــا فـرغ المسلمون بعد قـراءة القـرآن، ولا انقضـت على تداولـه بينهم سنـوات. فكيـف يرضى الخليفة الـذي يهمه أمر رعايــاه أن ينصرفوا عنه إلى كتــب لا يؤمــن ما فيهــا؟ وكيف تكون الحــال إذا تفرقوا شذر مـذر[1] ولهم في كل بلـد قـراءة غير هذا الكتاب الذي لم يفرغوا منـه ولم يستوعبوا كل ما فيه؟ أمــن عـداوة المعرفة هذا أو من إيثار المعرفة التــي تتقدم على غيرهـا؟ وإذا لم تتقدم هذه المعرفة على غيرها في الفقه والوعي والإقبال؟ وأين هـي الغنيمة الروحيــة التــي تعدل في كتــاب من الكتب بعضـ ما غنمــه المسلمون بوحي القرآن في صدر الإسلام؟

فعلى أي فرْض من الفروض لم يكن في تصرف عمر ما يأباه العقل الذي

1- شذر مذر: أي متفرقين.

ينظـر إلى الحقـائق المشهـودة والآثـار الواقعة، ويجوز أنــه أمر بإحراق مكتبة الإسكندريــة على أبعد احتمــال، ولكن الذي يجوز لمنصــف أن يفهم من ذلك، أنه عدو الثقافة وهو الأديب الفقيه الخطيب، وهو قد وازن بين معرفة ظاهرة النفــع ومعرفــة مجهولة ظواهرهـا كلها تغري بـاتهـامها. ولا لوم عليه أن يولد حيث يجهلها، ولا لوْم عليه أن يتهمها وهي لم تنفع أهلها يوم رآهم يخبطون في الضلالــة والهزيمــة، ولا يقــال عن عقل يفكر هذا التفكـير إنه لم يفكر على هدي مستقيم.

عمر في بيته

كان الخليفة الأكبر – صاحب الأمر في الجزيرة العربية، وصاحب الغلبة على ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة، ومدير الحكم في الرُّقعة الوسطى بين قارات العالم المعمور – رجلاً فقيراً يعيش في بيته عيشة الكفاف، ويقنع من الغذاء والكساء بحظ لا يتمناه كثير من الرجال، ويزهد فيه كثير من النساء.

فمن غير العجيب أن يخطب بعض النساء فيأبين عيشه، وقد أبى مثل هذا العيش نساء النبي عليه السلام، فلم يقبلنه إلا وقد خيّرن بينه وبين الطلاق.

وما ندري أي الشهادات لحكم الخليفة الأكبر أغلى وأجمل، فإن الشهادات لحكمه أكثر من أن تحصَى، وهي جميعاً مما تغالي به السير وتزدان بجماله، ولكننا لا نعرف بينها ما هو أغلى وأجمل من هاتَين الشهادتين: أن يعيش في بيته عيشاً لا يشتهَى، وأن تكون في يده صوْلة الملك فلا ترى فيها امرأة من النساء خلابة[1] تغرُّها، ولا صوْلة تخيفها من أن ترفضها وتأباها.

إن امرأة واحدة ترفض عمر لأغلى في الشهادة له من ألف امرأة يقبلن

1- خلابة: أي ما يخلب ويخدع.

على بيته ويطمعن في سلطانه.

وقـد وصفته امرأة خطبها ورفضته وصفـاً لم نسمع فيما قيل عن إيمانه بـاللــه أصـدق منه ولا أوْجـز وأوفى، فقالت أم أبان بنت عتبـة بن ربيعة: إنه رجل «أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه، كأنه ينظر إلى ربه بعينه».

والـذي نعنيه مـن الوصف هو، قولها عـن مخافته اللـه، إنـه كان يخافه كأنه يراه بعينه.

فهـو في الحق أصدق وصف لإيمان هـذا الرجل المتفرد بإيمانه كما تفرد بكثـير مـن شؤونه. إنه تجـاوز حد الإيمــان إلى حـد الرؤية والعيــان، وحقق مبالغـات أبـي الطيـب المتنبـي حين وصـف الغايـة القصوى مـن الشجاعة والحكمة فقال:

تجاوزت مقدار الشجاعة والنُّهى إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

ومهمــا يكـن من إيمــان بـالغيـب فهو لا يبلــغ في اليقين والحضـور مبلغ الرؤيـة بـالعين، وهـي قولة عـابرة من قـائلة أصابت مـا لم يصبه قـائل، ولعلها لا تدري مدى صوابها.

وخطـب عمـر أم كلثوم بنت أبي بكر إلى أختهـا أم المؤمنين عـائشة رضي اللــه عنهــا فقالت له: الأمـر إليك، ثم سألت أختها فـأبتـه وقـالت: لا حـاجة لي فيه. فزجرتها قـائلة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قـالت: نعم، إنه خشن العيش شديـد على النســاء. وكرهت عـائشـة أن تجبهه[1] بـالرفضـ فوسّطت في الأمر عمـرو بـن العاص يحتـال له برفقه وحسن تدبيره، فجـاء عمر وفـاجأه قـائلا: بلغني خبر أعيذك بـاللـه منه. قـال ما هو؟ قـال: خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر. قـال: نعم، أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عني؟ قـال: لا واحدة، ولكنها حَدَثة[2] نشأت تحت كنف أمير المؤمنين في لين ورفْق، وفيك غلظة، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك على خلق من أخلاقك. فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوْت بهـا؟ كنـت قد خلفـت أبا بكر في ولده بغـير ما يحق عليك! ففهِـم عمر أن ابن العاصـ لا يقـدم على هذه الوساطـة بغير موَسِّـط، وأن في الأمر ممانعة على

1– تجبهه: تواجهه.

2– حدَثة: صغيرة السن.

نحـو مـن الأنحـاء. فسأله كأنه يستطلع ما وراءه مـن الممانعة، كيف بعائشة وقد كلمتها؟ قال: أنا لك بها، وأدلك على خير منها: أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، تعلق منها بنسب رسول اللـه.

وام كلثوم بنت علي حدَثة أيضاً، والمحظور في إغضابها أكبر من المحظور في إغضـاب بنت أبي بكر، وإن اعتمد ابن العاص على أن عمر يملك نفسه فلا يغضبهـا، فقـد كان حريـاً به أن يعتمد علـى شيء من ذلـك في خطبته لبنت الصديق. فلن يفوت عمر – وهو يعلم مَن يخاطبه في الأمر – أن يفهم خبيئة سعيـه، وأن يتجاهله لئلا يكشف موقف الرفض والاعتذار من عائشة وأختها رضي اللـه عنهما، ويعمل بما يراه الصواب.

والطريـف في القصـة – وكلهـا طريف – أن يذهب عمرو بـن العاص إلى خليفته ليواجهه بما يؤخذ عليه من خلائقه وهو آمن أن يغضبه، بل هو فوق ذلك واثق من موافقته إياه ما دام على صدق في مقاله.

وللمـرأة أن تأبـى الخشونـة في رجلهـا ولا تستريـح إليها، ولكـن دارس الأخـلاق لا ينبغـي أن يعيب هـذه الخصلـة إلا بمقدار ما فيهـا من نقص في الطبائـع الإنسانيـة الأصليـة. إذ المحقـق أن الخشونـة حرمـان مـن الصقل والمرونـة، ولكننا نخطئ كل الخطـأ إن حسبناهـا حرمانـاً مـن البر والرحمة، لأن المـرء قـد يكون نـاعم الملمس وهو قاس مفـرط في القسوة، ويكون خشن الملمس وهو رحيم مفرط الرحمة، ويغلب في هذه الحالة أن تكون خشونته – كما أسلفنا في فصل سابق – درعاً يستر بها مواضع اللين في خلقه، وضرباً من الخجل أن يطلع على ناحية فيه يتطرق إليها الضعف وتنفذ منها الرماية. فالخشونة نقيض الصقل والنعومة، وليست نقيض العطف والرحمة. وعمر بن الخطـاب من أفذاذ الرجال الذين تتجلى فيهم هذه الحقيقة أحسن جلاء، حتى في علاقاته بالأهل والنساء.

رحمـة عمـر رحمـة في غـلاف، وليسـت بالرحمـة المكشوفـة لـكل نـاظر ولامس، ولا تطـول بالناس عشرتـه حتى ينقشع هذا الغـلاف عن قلب وديع مفعـم بالعطـف والمـودة، مفتّح الجوانب لـكل عاطفة كريمة ولـو لم تكن من وليٍّ حميـم. فنسـاؤه اللائي عاشرنه قد كلفن بحبـه ورضين عيشه لرضاهن بمودتـه وعطفه، وكانـت إحداهن التي سميت العاصيـة، وسماها النبي عليه

السلام الجميلة، لا تطيق فراقه، فإذا خرج مشت معه إلى باب الدار فقبّلته ولم تزل في انتظاره.

وكانت من نسائه عاتكة بنت زيد، وهي على قسط وافر من الجمال ومن الدين ومن البلاغة، تولّهت[1] في رثائه حين قُتِل فلم يكن بكاؤها عليه كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد، وتعددت قصائدها في تأبينه بكلام لا يغيب عنه صدق المدح ولا صدق الحسرة، وهي التي قالت فيه:

عصمة الناس والمعين على الد   هر وغيث المنتاب والمحروب
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا   قد سقته المنون كأس شعوب[2]

وقالت فيه:

رءوف على الأدنى غليظ على العدا   أخي ثقة في النائبات منيب
متى ما يقل لا يكذب الله قوله   سريع إلى الخيرات غير قطوب

وقالت فيه:

جسد لفف في أكفانه   رحمة الله على ذاك الجسد

وقالت فيه:

يا ليلة حسبت عليّ نجومها   فسهرتها والشامتون هجود
قد كان يسهرني حذارك مرة   فاليوم حق لعيني التسهيد

ولا يُبْكَى الرجل هذا البكاء على ما في عيشه من الشظف إلا ومن وراء خشونته مودة قلب تنفذ إلى القلوب.

وأكثف ما تكون الدروع أرق ما يكون الموضع الذي يليها وأخوفه من الإصابة. فانظر أين الموضع الحصين المحمِي فهنالك الموضع اللين الذي يخاف عليه، ولا يخدعنك عن ذلك خادع من إظهار أو تظاهر غير مشعور به، وغير مقصود. أين أكثف ما تكاثفت الغلظة فيه من درع عمر التي عنيناها؟

المرأة ولا نزاع!

1- تولّهت: كاد عقلها يذهب من شدة الحزن.

2- شعوب: اسم للمنية «الموت» سميت كذلك لأنها تفرق الخلائق.

فعلى المرأة كانت له غيرة اشتهر بها وعُدّت من دلائل شدته عليها، وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله غيور يحب الغيور، وإن عمر غيور».

وعلى المرأة ومن المرأة كان حذره أن تتخايل للعيون وتتبرج في مضطرب الفتون. وكلما أوصى بوصية فيها فإنما هي الفتنة التي يتقيَها، فلما قال عليكم بالأبكار، لم يقل لأنهن أمتع وأنضر، ولكنه قال عليكم بهن لأنهن أكثر حباً وأقل خبًّا[1].

ولما توجّس من زواج المسلمين ببنات الأعاجم، لم يتوجس لأنه حرام بل لأن «في نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم». فالخلابة هي المحذور الذي يتقى.

وهنا كثافة الدرع فابحث هنا عن منفذ الحذر. إنك لا تبعد كثيراً حتى تلمس الموضع الذي تم عليه الرجل حيث قال: «لو أدركت عفراء وعروة جمعت بينهما[2]». أو تم عليه الصبي الذي عناه ابن الخطاب حيث قال: «أحب أن يكون الرجل في أهله كالصبي، فإذا احتيج كان رجلاً».

ومتى كان فرط الغيرة على المرأة أو الحذر منها دليلاً على أنها ذلك الشيء المهين، وإن قال الغيور الحذور بلسانه إنها لشيء مهين؟

وابحث عن جانب واحد مغلق أو مقطوع من جوانب الرحم الذي ينبغي أن يوصل فإنك لن تجده في نفس هذا الرجل بتة، وإن جهدت في البحث.

فكان ابناً باراً لا ينسى التحدث عن أبيه، ويعتز بذكراه على ما كان من قسوته عليه في صباه، ولم يزل يقْسم باسمه حتى نهاه النبي، فانتهى وهو يقارب الكهولة.

وكان أباً يحب أبناءه ويعرف وجد الآباء بالأبناء، وينزع الثقة من والٍ لا يحنو على صغاره، أمر بكتابة عهد لبعض الولاة فأقبل صبي صغير فجلس في حجره وهو يلاطفه ويقبّله، فسأله المرشّح للولاية: أتقبل هذا يا أمير المؤمنين! إن لي عشرة أولاد ما قبّلت أحداً منهم ولا دنا أحدهم مني. فقال له

1– الخب: الخداع.

2– عروة بن حزام: شاعر من الشعراء العشّاق المشهورين وصاحبته عفراء، مات شهيد عشقه.

عمـر: ومـا ذنبي إن كان اللـه عزّ وجلّ نزع الرحمة مـن قلبك. إنما يرحم اللـه من عباده الرحماء. ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزّق وهو يقول: إنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية؟

وكان كلاب بـن أميـة الكنـاني في غزوة فاشتـاق إليه أبـوه الهَرِم وحزن لغيابـه، واتصل نبؤه بعمر فكتب إلى قائد الجيش يستعيد كلاباً إلى المدينة. فلمـا عاد ودخل عليـه سأله: ما بلغ من بـرّك بأبيك؟ قال: كنـت أكفيه أمره، وكنت أعتمد – إذا أردت أن أحلب لبناً – أغزر ناقة في إبله وأسْمنها فأريحها وأتركها حتى تستقر، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد، ثم أحلب له فأسقيه.

ثـم بعـث إلى أبيه فجاء يـتراوح في مشيته ضعيفاً بصـره، محنياً ظهره، فسأله: كيف أنت يا أبا كلاب؟ قال: كما ترى يا أمير المؤمنين. ثم جاءه بلبن حلَبـه ابنـه ففطـن الرجل وقال وهـو يدني الإنـاء إلى فمه: لعمر اللـه يا أمير المؤمنـين إني لأشـم رائحـة يدي كلاب من هـذا الإناء! فقال عمـر: هذا كلاب عنـدك حاضـر قد جئناك بـه، فوثب إليه ابنـه، وطفق الأب الـذي لم يكد يراه ويضمّـه ويقبّلـه. وبكى عمر، وأمر كلابـاً أن يلزم أبويه ما بقيـا، وله عطاؤه كأنه يجاهد في سبيل اللـه.

ومـن حنانـه على الأطفـال، أنه كان يشفـق عليهم أن يحزنـوا في لهوهم ولعبهم، فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوه ومحصول لعبه، فحدث سنـان بـن سلمة: أنـه كان في صباه يلتقط البلح في أصـول النخل مع بعض الصبية، إذ أقبل عمر فتفرّق الغلمان وثبت هو في مكانه، فلما دنا منه أسرع قائلاً: يا أمير المؤمنين، إنما هذا ما ألقت به الريح! قال عمر: أرني أنظر فإنه لا يخفـى عليّ. فنظر في حجره ثم قال: صدقت. إلا أن الصبي لم يقنع بهذا حتى يحرسـه أمير المؤمنـين إلى بيته! فقال: يـا أمير المؤمنين أتـرى هؤلاء الآن؟ وأشار إلى الصبية الهاربين، ثم قال: واللـه لئن انطلقت لأغاروا عليّ فانتزعوا ما معي، فمشى معه عمر حتى بلّغه بيته!

وكثـير على المصدقين المفرطين في التصديـق أن يعرفوا هذا عن عمر ثم يصدقـوا أنه وأد بنتاً في الجاهلية على تلك الصورة البشعة التي انتقلت إلينا في بعـض الروايـات، وخلاصتها أنـه رضي اللـه عنـه كان جالساً مع بعض الصحابـة، إذ ضحـك قليلاً ثم بكى، فسأله من حضـر فقال: كنا في الجاهلية

نصنـع صنمـاً من العجـوة فنعبده ثم نـأكلـه وهذا سبب ضحكـي، أما بكائي فلأنــه كانت لي ابنة فأردت وأدها فأخذتها معي وحفرت لها حفرة فصارت تنفض التراب عن لحيتي فدفنتها حيّة.

فهــي قصة يعتورهـــا الشك من ناحية ضحكها ومــن ناحية بكائها، ومن ناحيــة اجتماعهمـا في لحظة واحدة لتمكـين واضع القصة مـن التفرقة بين عصـري عمر في جاهليتــه وإسلامه، وأدعى ما فيها مـن الشك، تلك الخاتمة التــي يتم بهـا اختراع الفجيعة والبلـوغ بها إلى ذروتها، وهــي نفْض الطفلة الصغيرة تراب حُفرتها عن لحية أبيها.

فالوأد لم يكن بالعادة الشائعة بين جميع القبائل العربية، ولم يشتهر بنو عـدي خاصة بهذه العــادة، ولا اشتهرت بها أسرة الخطـاب التي عاشت منها فيمــا نعلـم فاطمة أخت عمر وحفصة، أكبر أولاده وهــي التي كُنّي أبا حفص باسمها.

وقد ولدت حفصـــة قبل البعث الإسلامي بخمس سنوات فلم يئدها. فلماذا وأد الصغرى المزعومة وهي في السن التي تُفهَم فيها كيف تنفض التراب عن لحيــة أبيها؟ ولمــاذا انقطعت أخبار هذه الصغرى المزعومــة فلم يذكرها أحد من إخوانها وأخواتها ولا أحد من عمومتها وخئولتها؟

مــا نحسبهــا إلا إحـدى جنايــات الإغـراب على مـن خلقـوا وفي سيرتهم مثـــال للإغراب والإعجاب. فهي اختراعة تضعفهــا خلائق عمر التي لا تتبدّل هــذا التبـدل من النقيض إلى النقيضـ بين جاهليته وإسلامــه. وقد كان عمر في جاهليتــه لم يسلـم بعـد يوم أشفـق على أختــه وهي داميــة الوجه، وكان في جاهليتــه يــوم أحب أخــاه حبه المفرط وبقــي عليه. فليس وقــوع القصة المزعومــة في الجاهلية مانعــاً لغرابتهــا ومقرباً لتصديقها، وغـير هذا الأب وهذا الأخ يطيق هذه القسوة التي لا تُطاق.

إن قليــلاً مــن الآبـاء مَن أحــب أبنـاءه كما أحب عمر أبنــاءه، وإن قليلاً من الإخـوة مَن أحـب أخاً كما أحب عمر زيداً أخاه، فما سمــع اسمه بعد مقتله إلا سالــت عبْرته، وما هبت الصبا كما قال إلا وجـد نسيم زيد وتمنّى نظْم الشعر لينظمه في رثائه.

بل إن قليلاً من الأصدقـاء مَن أخلص لأصدقـائه وعشرائه كما أخلص عمر

لـكل صديق وعشـير. وهو القـائل: «لقـاء الإخوان جـلاء الأحزان»، وهـو القـائل حرصــاً على المودة وضنـاً بهــا: «إذا أصاب أحدكم وداً من أخيه فليتمسك بـه، فقلما يصيب ذلك».

فإذا أردنـا أن ننقب عن وشائج الرحم وصلات المودة في نفس هذا الرجل المهيـب المخيـف فلننقب عنها في ينابيعه الخفية التــي تسرى منها وترقرق في نواحيهــا، ولا ننقـب عنها في الصخور التــي تكتنفها وتطفو عليها وترفع أعلامها.

أو نحـن حريـون أن ننقـب عنها بين هـذه الصخور والأعـلام، ولكن على هـديٍّ وبصـيرة. فلا نقنـع منها برأي العين مـن بعيد أو قريـب، ولا نغتر بما تبديه كأنه كل شيء تحتويه.

فمــا هذه الصخـور والأعلام التي كانت تروع النـاظـر من هيبة عمر ومن ملامــح سيماه؟ هــي مظهر قدرته علــى نفسه لا أكثر ولا أقـل، وهـي الحـارس اليقـظ الذي يحمــي تلك النفس أن يتسـّرب إليها الوهــن وأن تؤخذ على حين غِرّة، من حيث يخاف عليها.

والمـرء لا يعتصـم بقدرتــه على نفسه وهــو آمن، ولا يوقـظ الحارس على دخيلتــه وهو وادع في سِربه. إنما يعتصم بقدرته ويوقظ حارسه حين يحذر، وإنما يحذر من الطارق الذي لا يستهين به ولا يزال على رقبة منه.

وقد كان عمر بن الخطاب أكثر ما يكون اعتصاماً بقدرته في أمس الأمور بقلبــه وسريـرة طبعه: في خشيــة الخديعة من نـاحية الـترف والمتعة، فهو لا يستسلم لشهوة مأكل وملبس ولا قنية دنيوية، وفي خشية الخديعة من نـاحية ولــده وأهلــه فهو يجفُل مــن أن يرى لهم رزقاً لا يعرف مأتــاه، ويجفُل من أن يــرى لهــم إبلاً سماناً بــين الإبل العجاف مخافــة أن يسمّنها لهـم النـاس في مراعيهم، لأنهم ولد أمير المؤمنين وتلك إبل أبنـاء أمير المؤمنين!

وكان أكــثر مــا يكـون اعتصامــاً بقدرته حين يلمـح الفتنة الكـبرى التي يقتــدر بها شيطــان الغواية. وتلك هــي المرأة لا فرق بــين خيارهـا وشرارهـا، فمن شرارهـا استعذ باللــه! ومن خيارهـا كن على حذر!

وإذا اعتصم عمر بن الخطاب بنفسه فـانتظر شيئاً واحداً لن تجد حِوَلا عنه، وهــو تقديـره العدل تقديـر الخـائف أن يزيد فيــه شعرة أو ينقصــ منه شعرة.

فمتـى اعتصم بنفسه استيقظ وانتصر، ومتـى استيقظ وانتصر فللحق يقظته وفي سبيل الحق انتصاره.

يعرضـ شأن المـرأة فهو الغيور الحـذور، وهو الواقف علـى الميزان فيما تعطاه وفيما تعطيه، فلا هي بظالمة ولا مظلومة في كل أمر يرجع إليه.

فمـن همه كان ألا تظلم لضعفها، ولا تُغـبَن لحيائها وخفرها، ومن حقها عنـده ألا تُكْـره على زواج الرجل القبيح تحب لنفسها مـا يحبه الرجل لنفسه، وأن يعـرف لها عذره حيث يعـرف للرجل عذره في الصلة بينها وبينه. فسمع مرة أعرابية تنشد:

فمنهن مَن تسقَى بعذب مبـــرد   نقاح[1] فتلكم عند ذلك قــرت
ومنهن مَن تسقَى بأخضر آجن[2]   أجاج ولولا خشية الله فـــــرت

فتوهـم في زوجها عيباً وأرسل في طلبه فـإذا هو متغير الفم، فخيّره بين خمسمئة درهم وطلاقها، فقبل الدراهم وطلقها.

وسمع امرأة من وراء بابها تنشد:

تطاول هذا الليل تسري كواكبه   وأرقـني إلا خـليـل ألاعبـه
فوالله لـولا الله لا شيء غيره   لزلزل من هذا السرير جوانبه

فسـأل عـن زوجها فعلم أنه خـرج في غزوة طالت غيبته فيهـا، فأمر بعد ذلك ألا تطال غيبة الأزواج في الغزوات.

وكان يقبـل شكـوى المـرأة من زوجها الـذي يهمل النظافـة والزينة، لأن النساء «يحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزينّ لكم».

وقبِـل شكوى المـرأة من زوجها الخاضـب[3] قبل البناء بهـا، يوهمها أنه شاب وهو موخوط الرأس بالشيب، فأوجعه ضرباً وقال: غررت القوم.

ولم يكـن يتحـرّج مع المـرأة مثل هذا التحـرج أن تستر مـن سيرتها ما لا يضـير سـره إن عاق زوجها. فكاشفه رجل بأمر ابنـة له أسلمت وأصابها حد

1- النقاح: الماء العذب الصافي.

2- الأجن: الماء المتغير الطعم واللون، والأجاج: المالح المر.

3- الخاضب: الذي يخضب بالحناء أو نحوه.

مـن حـدود اللـه، فهمـت أن تذبـح نفسها، فـأدركهـا أهلها وقـد قطعت بعض أوداجهـا[1]، فبرئت وتـابت واستقـامت علــى الـهداية. فسأله: أأخبر القوم الذين يخطبونهـا بما تقدم من سيرتها؟ قال: ويلك! أتعمد إلى ما ستره اللـه فتبديه؟ واللـــه لئن أخـبرت بشأنها أحـداً من النـاس لأجعلنك نـكالاً». انكحها نكاح العفيفة المسلمة».

فهــي أوْلى عنــده ببعض المحابــاة حين لا ضير في المحابــاة. وقد عاهد الناس فيما عاهدهم عليه «ليمنعن النساء إلا من الأكفاء».

ونــرى أنه قضى في الخلاف بين الــزوج والزوجة بالقول الفصل في بناء الأسر وتعمير البيوت، حيث قال لرجل همّ بطلاق امرأته لأنه لا يحبها: أو كل البيوت بُنِي على الحب؟ فأين الرعاية والتذمم؟».

فإنــه لبِرٌّ بربات البيوت لم يدركه متحذلقــة العصر الذين يلغطون بالحب والزواج، ويجهلون أن الرعاية والتذمم أقمن بالدوام والتعمير من زواج يبنَى على الحب وحده، لأن الحب منوط بالأهواء التي تتغير بين آونة وأخرى، وأما مناط الرعاية والتذمم فهو الأخلاق التي قلّ أن يطرأ عليها تغيير.

وفد استشار النســاء فيما يحسن، كما استشار الرجال فيما يحسنون، ولم يتعــال قــط أن يرجع عن خطئه إذا ردته عنه امــرأة بالبينة الصادعة[2]، ومن ذاك أنــه نهــى النـاس في بعضـ خطبه أن يزيـدوا مهور النســاء على أربعين أوقية، فصاحت به امرأة فطساء من صفوف النساء: ما ذاك لك؟ فلم يأنف أن يسألها: ولِمَ؟ قالت: لأن اللـه تعالى يقول: «وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا» فرجع عن خطئه واعترف بصوابها.

فما للمراة من حق تعطاه، وما ليس لها بحق لا تعطاه وتذاد عنه.

والــذي ليس لهــا بحـق في رأي عمـر – ورأي كل رجـل ذي رجولة – ألا تتعرض لعمله الذي لا تفقهه، ولا يرجع إليها في مثله، ولا سيما إن كان شأناً مـن شـؤون الدولة، ومهمة من أخص مهام الرجال، فتشفعت له امرأة في والٍ

1– الأوداج: جمع ودج وهو عرق في العنق.

2– البينة الصادعة: المراد البينة التي تحملك على الإذعان والتصديق.

مقصّر تسأله: فيم وجدت[1] عليه؟ فالتفت غاضباً وقال لها: وفيم أنت وهذا؟ إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين! كلمة لا تلبس القفاز الناعم، ولم يخلق القفاز الناعم ليلبس في كل حين.

والذي ليس بحق للمرأة أن تعلو كلمتها على كلمة وليّها، وهذا الذي كان ينكره عمر على أهل المدينة، حيث قال «كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما تقدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار. وصحت على امرأتي فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني. قالت: ولمَ تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فأفزعني..»».

نعم هذا مفزع لعمر، وقد كان ولا ريب مفزعاً لرسول الله أن تعلو كلمة على كلمته في بيته، لكن طريقة محمد في تغليب الكلمة طريقة نبي يؤم متبعيه، وطريقة عمر طريقة مريد مؤتم بنبوة، ولا جناح على عمر ألا يلحق بشأو محمد في كل ما سبق إليه.

فمحمد إنسان عظيم، وعمر رجل عظيم، وهذا هو الفارق بينهما كما بيّناه في مناسبة سابقة. وإنما الفارق بينهما في هذه المناسبة التي نحن بصددها، أن الرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندي في معرض القوة والنضال، ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها في معرض الهوى والفتنة، فيكسرها ولا ينكسر لها إذا لحت في الغرور وانطلقت في عنانه. ومن ثم استصغر عمر ولده نفسه – عبد الله – لأنه عجز عن تطليق زوجه فلما، أشاروا عليه باستخلافه، قال لمن كلمه في ذلك: ويحك! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته!».

أما الإنسان العظيم فهو يشمل ضعف الإنسانية كله ويعطف عليه. ومنه ضعف المرأة في غرورها واعتزازه بدلال الضعف على القوة، لأنه في حقيقته اعتزاز بمكانها منها وتقدير لتلك القوة في بعض نواحيها. فهو يرى في تكبّر المرأة إذا كانت كبيرة عنده نوعاً من الاعتراف بكبره، وهو لا يقف معها في ميدان الإنسان كله والإنسانية جمعاء.

على أن شأن الرجل مع المرأة لا يظهر من رأي الرجل فيها، كما يظهر

1– وجدت عليه: «غضبت» من «الوجْدة».

من رأيها فيه، فبعد معاملة عمر للمرأة وقوله فيها، يبقى له شأن في عالمها يظهر لنا من رأيها هي فيه.

وقد أكبرت سيدة نساء العصر عمر فوصفته بأنه كان نسيجاً وحده، وهى عائشة رضي الله عنها، وجمعت الشفاء بنت عبد الله بعض صفاته فقالت إنه «كان إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقاً. وصاحت أم أيمن مرضعة النبي يوم أصيب: اليوم وَهِيَ الإسلام.

وعلينا نحن أن نسأل المرأة في عصر عمر عن مثال الرجل في عصرنا، ولا نسأل فيه نساء زمان غير ذلك الزمان. وما نخالنا نعرف رأي المرأة يومئذ في الرجل الذي يكبر في عينها كما نعرفه من امرأة هي هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان وأم معاوية، فليس أقدر منها على الجواب ولا أصرح فيه.

جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها يخطبانها، فاستخبرته عنهما فقال يصفهما «أما أحدهما ففي ثروة واسعة من العيش، إن تابعته تابعك، وإن ملت عنه حط إليك، تحكمين عليه في أهله وماله. وأما الآخر فموسّع عليه، منظور إليه في الحسب الحسيب والرأي الأريب، مدره أرومته[1] وعز عشيرته، شديد الغيرة لا ينام على ضِعة ولا يرفع عصاه عن أهله».

فقالت: «يا أبت! الأول سيد مضياع للحرّة، فما عست أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت[2] وخافها أهلها فأمنت؟ ساءت عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالها، فإن جاءت بولد أحمقت. وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت[3]. فاطْو ذكر هذا عني ولا تسمّه عليّ بعد! وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العقيلة[4]، وإني لأخلاق مثل هذا لموافقة. فزوجنيه».

ونحن نحسب هذا رأي المرأة النجيبة في زمان عمر، ولو شئنا لحسبناه رأيها في كل زمان على أن تضمره بباطن القلب ولا تلقيه بطرف اللسان. فإن

1- المدره: السيد الشريف المقدم في اللسان واليد، والأرومة: الأصل.

2- الأشر: البطر.

3- أحمقت: ولدت أحمق، وأنجبت: ولدت نجيباً.

4- الخريدة: العذراء فيها حياء وخفر، والعقيلة: الكريمة.

زادت خشونة العيش في بيت عمر على القدر الذي ترضاه المرأة، فهي خشونة غير محقورة السبب، لأنها لا تحسب على عمر «الزوج» من ناحية حتى تحسب لعمر «الرجل» من ناحية أخرى. إذ هي لم تأت من قلة القدرة على العيش وإنما جاءت من كثرة القدرة على النفس، وهي خليقة تعجب بها المرأة في الرجل الذي تكبره، لأنها من أقوى خلائق الرجولة فيه.

وليس لدينا بيان واف عن النساء اللاتي تزوج بهن عمر يعيننا على التمييز بين سماتهن والبحث في المباسم الشخصية التي يتعددن فيها أو يختلفن، ويجيز لنا أن نسهب في الكلام عن موقع كل منهن من نفسه، وأثرها في حياته، ومبلغ حظوتها عنده، وسبب هذه الحظوة في رأيه وشعوره، وما يدل عليه جميع ذلك من نوازع فطرته وذوقه. فقد سكت التاريخ وسكت عمر عن كل بيان وافٍ في هذا الباب، فلم تبق لدينا منه إلا أسماء وأعوام ونوادر مقتضبات، لا تساعدنا على تكوين سمات واضحات فضلاً عن التفرقة بين تلك السمات.

غير أننا نعتقد أن التاريخ لم يفقدنا شيئاً كثيراً في هذا الباب، لأننا مستطيعون أن نعوّض ما فقدناه بالقياس إلى ما عرفناه، فلا نخطئ إذا رجحنا أن سمات هؤلاء النساء جميعاً تدخل في نطاق الوصف الذي كان يستحبه عمر في المرأة ولا يطيق منها أن تخالفه وتخرج عليه.

فأفضل ما كان يشرطه في المرأة أن تكون ولوداً ودوداً، وألا تعاب بالحمق فيسري حمقها في دماء وليدها، إذ «لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقاً[1] كما قال.

أما ذوق الجمال، فقد كان عمر فيه كما كان في جميع خلائقه عربياً بحتاً، يستملح ما يستملحه كل عربي صميم، ويستحسن الحسن عنده وهو أعلم من الملاحة ويروَى عنه أنه قال: «تزوجها سمراء ذلفاء[2] عيناء[3] فإن

1- المائق: الأحمق الغبي.

2- صغيرة الأنف.

3- عيناء: حسنة العين واسعتها.

فركتهـا[1] فعلـى صداقها» وأنه قـال: «إذا تم بياض المـرأة في حسن شعرها فقـد تم حسنها»، وهذان همـا الملاحة والحسن كما وصفـا في الشعر العربي من قديم إلى حديث.

ومـن القليل الذي بقي لدينا من أخبـار نسائه، نعلم أنه كان موفور الحظ مـن هـذا الجمال في الزوجات، فقـد وصف أكثرهن بـالحسـن البارع، وضرب المثل بملاحة إحداهن بين نساء قريش وهي قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة، فـروِيَ في مـأثـور الحديث الشريـف، أن سعد بن عبادة قـال يوماً في حضرة النبـي عليه السلام: «هل رأيت بنات أبي أمية بن المغيرة؟ هل رأيت قريبة؟»، وهي إحدى زوجات عمر قبل إسلامه.

وروي أن جميلـة بنـت ثابت سُمّيت بهذا الاسـم لجمالها، وكان اسمها في الجاهليـة عاصيـة، فكرهته بعـد إسلامها، وسألـت عمر ثم سألـت النبي في تغيـيره فاتفقا على تسميتها بوصفها ونوديـت بعد ذلك بـاسم جميلة. ورُوِيَ عـن عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل، أنهـا أعطيت شطر الحسْن مع ما رزقته مـن الفصاحة والتقـوى. ورُوِيَ مثل ذلك عن زوجات أخريات، وإن لم يتفوقن هذا التفوق المشهور.

ومـن أخبـار زوجاتـه، أنه طلـق اثنتين من أشهـر نسائـه بـالجمال وهما قريبة وجميلة. تزوّج الأولى وطلقها قبل إسلامه، وتزوج بـالثـانية وطلقها بعد إسلامـه، ولا ندري على التحقيق ما سبب تطليق هـاتين الزوجتين الجميلتين، فهل هو دلال الجمال ضاق به صدر عمر وهو على شموس المرأة غير صبور؟ لعلـه ذاك، ولعل الـذي أبقى عاتكة بنـت زيد في عصمته أنهـا تجاوزت دلال الصغر حين بنى بها، أو غضت دلالها بـالفطنة والتقوى.

وكذلـك بقيت في عصمتـه أم كلثوم بنت علي بن أبـي طالب وهي جميلة صغـيرة، وولدت له ابناً سمّاه بـاسم أخيه زيد الذي كان يحبه ويذكره ويطيل البـكاء عليه، وأعزّها عنده النسـب والأدب والمحافظة على آصرة النبوة، فلم يفترقـا في الحياة ولم ينشب بينهما خـلاف إلا حين جاءتها الهدية من ملكة الروم فضمها إلى بيت المال.

1– فركتها: أبغضتها وتركتها.

ولــه مع إحدى أولئك الزوجــات قصة صغيرة لا يفوتنا إيرادها في الكلام على حياته الخاصة لأنها كثيرة الدلالات عليه: تدل على عمر في أبوته، وتدل علــى عمــر في سوْرة طبعه، وتدل على عمر في مثوبته إلى الحق كلما وجب أن يثوب إليه.

فقد طلق جميلة وله منها ولد صغير، فرآه يوماً يلعب مع الصبيان فحمله بــين يديه، فأدركته جدته الشموس بنت أبي عامر، وجعلت تنازعه إياه حتى انتهيــا إلى أبــي بكر رضي اللــه عنــه، وهو خليفة، فقال له أبــو بكر: خلّ بينه وبينها فهي حاضنته، فرده إليها ولم يراجعه بكلمة.

ولعمري إن في هذه القصة الصغيرة من الدلالة عليه لما يغني عن قصص، وفيها عمر إنسان عطوف وفيها عمر رجل سوار الطبيعة، وفيها عمر صاحب خلــق مكين يكبح مــن طبيعته كل سوْرة جاوزت حد العــدل والإنصاف، وهذا هو عمر في شتى نواحيه.

وقــد تــدل هذه القصة على شيء يبرئه من بعض اللــوم في تطليقه أم هذا الولــد، فاسمهــا عاصية واســم أمّها الشموس، وكأنهما – كمــا ينبئ عنهما هــذان الاسمان – من أسرة تباهي بدلال بناتها وشموسهن، وتختار لهن من الأسماء ما يدل على هذه الخصلة، وقد يضيف إلى توكيد هذه الخصلة فيهن، أن عاصيــة غضبــت حين اختار لها عمر اسم جميلة وقالت له: سمّيتنى باسم الإماء! ثم اختار لها النبي هذا الاسم فقالت: يا رسول اللــه! أتيت عمر فسمّاني جميلة فغضبت، قال عليه السلام: أو ما علمت أن اللــه عز وجل عند لسان عمر وقلبه؟

فكأنهــا نشــأت في قوم يعتقــدون أن التحســين والترغيب، إنمــا هما من شــأن الإمــاء، وأن الشموس والعصيان أليــق بالحرائر وإن أحبــبن أزواجهن وأحبوهــن، فــإن كان تطليقهــا مأخذاً على عمــر فقد تكون فيــه مآخذ عليها تفسر لنا افتراقهما بعد ما أحبها وأحبته.

ورزق عمــر الذرية من ذكور وإناث نجباء ونجيبات، فقرّت عينه بهم لأنه كان كأهل البداوة كافة يستكثر من الذرية ويوصي الناس أن يستكثروا منها، وكانــوا جميعاً عنده بمكان الحب والمودة لا يخشــى الانحراف عن العدل من جانــب كما يخشــاه من جانب هذه الذرية أو جانب أهلــه على التعميم، ولهذا

كان يجمعهم إذا نهى الناس عن حوْزة حق من الحقوق، فيبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكّرهم «إن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم»، ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة!

وليس بنا أن نحصي فتاواه وأقضيته في محاسبة أهله أو محاسبة أبنائه خاصة قبل سائر أهله. فذلك عمل له لم ينقطع عنه طوال حياته، ولكنا نكتفي بمثل من أمثال عديدة متواترة وهو قضاؤه في اتجار أبنائه بمال من بيت مال المسلمين، وذاك أن ابنيه عبد الله وعبيد الله خرجا في جيش إلى العراق، فلما قفلا نزلا بالبصرة وذهبا إلى أبي موسى الأشعري وهو أميرها، فقال لهما: لو أقدر على أمر أنفعكم به؟ ثم عرض عليهما أن يحملا إلى أبيهما مالاً من مال الله، فيشتريا به متاعاً من العراق يبيعانه بالمدينة، ثم يؤديان رأس المال ويكون لهما الربح. فلما علم عمر سألهما: أكل الجيش أسْلفه؟ ثم أمرهما أن يؤديا المال وربحه، فسكت عبد الله وقال عبيد الله: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً[1]؟ فأخذ رأس المال ونصف ربحه، وأخذ ابناه نصف ربح المال.

وإنما كان عمر يتقي محاباة الولاة لأبنائه وذويه وإقرار هذه المحاباه بإذنه، ولكنه كان يقترض من بيت المال ليتجر ويربح ما يعيش به في أهله، ويلجأ إلى التجارة لقلة رزقه الذي فرضه لنفسه من بيت مال المسلمين، وقد فرض رزقه لنفسه بعد مشاورة أصحاب رسول الله، فقال عثمان: كل واطعم، وقال عليٌّ: ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف، وإن أيسرت قضيت. وكان يقترض فيعسر فيتأخر قضاؤه، فيأتيه صاحب بيت المال ويشتد في تقاضيه، فيحتال عمر ويؤجله إلى أن يستحق عطاءه مع عطاء المسلمين، فيسد به ديْنه.

مع هذا كان يشفق أن يقترض من بيت المال إلا أن يتعذر عليه الاقتراض من بعض صحبه. فأرسل مرة إلى عبد الرحمن بن عوف في طلب أربعة آلاف درهم يجّهز بها عيراً[2] إلى الشام، فعاد الرسول يقول له: خذها من بيت المال

1- القراض: قارضه قراضاً، أي دفع إليه مالاً ليتجر فيه ويكون الربح بينهما على ما شرطا.

2- العير: الإبل التي تحمل الزاد.

ثـم ردهــا! وشق ذلك عليه فلقي صاحبه وعلم منــه صدق ما بلغه فقال: أفئن مـت قبل أن تجيء قلتم أخذهـا أمير المؤمنين دعوهـا لـه. وأوخذ يوم القيـامة؟: «لا.. ولكنــي أردت أن آخذهــا من رجل حريص شحيــح مثلك، فإن مت أخذهـا من ميراثي».

وحـدث مــا توقعه من مجــيء الأجل قبل سـداد ديونه جميعــاً فلم يشغله المـوت ولا شغلته كبار الخطوب التي يضطلــع بتصريفها قبل موته أن يسأل عـن ديونه ويوصي بسدادهـا من مـاله ومـال أهلـه، وقـال لابنه: «إن وفّى بـه – أي الديـن – مــال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فـاسأل بني عدي، فإن لم تفِ أموالهـم فـاسـأل فيه قريشاً ولا تعدهم[1] إلى غيرهـم». وكـان عبد الرحمن بن عوف حـاضراً فـأشار عليه مقترحـاً أن يستقرضـها من بيت المـال حتى تؤدّى، فلــم يقبــل عمر، ودعـا بـابنه عبد اللـه فقال: اضمنهــا! فضمنهـا، ووفّى بوعده. فلــم يدفــن أبوه حتى أشهـد بهـا على نفســه أهل الشورى وعدة مــن الأنصار، ومـا انقضى أسبوع حتى حُمِل المـال إلى عثمـان، وأحضر الشهود على البراءة بدفعــه، وقـد بيعت لعمـر دار في هذا الديــن وسمّيت زمنـا بـاسـم دار القضـاء، لأنـهـا بيعت في قضـاء ديْنه.

ولأن يمــوت عمــر مديناً موفّــى الديْن لـهو أعظم الشرفــين. وأيسر من ذلك شرفـاً أن يموت غنيـاً بغير دين.

1– أي لا تجاوزهم وتتركهم لتسأل غيرهم.

صورة مُجْمَلة

صحبنا عمر بن الخطاب في حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال.

صحبناه في جاهليته وإسلامه، وفي سره وعلانيته، وفي بيته وحكومته، وفي دينه وثقافته، وفي اتصاله بالله واتصاله بالناس. فإذا الصورة المجملة من جميع هذه الصور المختلفة صورة رجل عظيم من معدن العبقرية والامتياز بين الناس على اختلاف العصور، وإذا هو صاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصفات الإنسانية توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت فيه إلى غاية واحدة: وهي إحقاق الحق وإدحاض الباطل، ووسمته جميعاً بسمة الجندية المجاهدة التي تحمي الحدود للناس وتحميها من الناس، وهو هو في طليعة من يحمي وفي طليعة من يحتمي على السواء.

ورسخت في طويته خليقة المساواة في العدل حتى أصبح يتجرد من نفسه أو يجرد منها شخصاً آخر غريباً عنه لا فرق بينه وبين أحد في حدود الله وحرماته، وتمكنت هذه الخليقة منه حتى جرت على لسانه عامداً وغير عامد، فكان يتكلم عن نفسه كما يتكلم عن غريب: بخٍ بخٍ يا عمر! ويحك يا ابن الخطاب؟ ماذا يقول عمر! وهذا فلان بن عمرٍ وليس بفلان ولدي. إلى أشباه هذه التجريدات التي تنبعث فيه من خليقة التسوية بين جميع الناس، وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس.

وكانت فيه خشونة الأقوياء الصرحاء، ولكنه كما قال عارفوه من الصحابة «باطنه خير من ظاهره» أو كما قال فيه الصديق من الكلام فحواه أن مبغضيه هم المبغضون للخير.

وكان له محبون من كرام الناس لا يعدلون بحبه حب أحد من أمثاله، فكان عبد الله بن مسعود يقول: «لو أعلم عمر كان يحب كلباً لأحببته. والله إني لأحسب العضاة[1] قد وجدت فقد عمر».

والغالب في أمثال عمر من أصحاب الطبائع القوية المهيبة أن تحجب عنهم الهيبة ألفة الغرباء الذين لا يختلطون بهم في السر والعلانية، بل تحجب عنهم ألفة الأقربين في كثير من الأحيان، لأنهم من تفردهم بالصراحة والحق في عزلة دائمة بين ألصق الناس بهم وأقربهم إليهم:

أعادك أنس المجد من كل وحشة فإنك في هذا الأنام غريب

ولكنهم لا يكرَهون إلا عمن خطأ أو حسد لئيم. وكان عمر على التخصيص ممن لا يثيرون شعور الكراهية في قلب إنسان، لأنه كان على عظم «شخصيته» مبرءاً من العنصر الشخصي، في معاملة الأصدقاء والخصوم، وإنما ينجم العداء الشديد من الإحساس بهذا «العنصر الشخصي» ومقابلته بمثله مقابلة اصطدام وانتقام.

فالذين كانوا يذوقون إنصاف عمر كانوا يستمرئونه ويحبونه، والذين كانوا يذوقون عقابه كانوا لا يشعرون بعمر بن الخطاب معاقباً لهم صوّالا عليهم، وإنما يشعرون بميزان الشريعة منصوباً على رؤوسهم، ويتساوون فيه وعمر وأبناء عمر لو وجب العقاب. فلا موضع هنا للضغينة ولا لاصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزازة بالحزازة.

ولهذه الخصلة ذكره بالحب والإعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء، وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء.

فعمرو بن العاص ومعاوية كانا يثنيان عليه وشد ما ابتليا في حياته بضربات عدله وهيبته، والحطيئة أهْجى الشعراء وأبخلهم بالثناء، كان رفاقه يذكرونه اسم عمر بعد موته فيرتعب ثم يهدأ فيقول: يرحم الله ذلك

1- جمع عضاهة، وهو شجر كبير له شوك. ووجدت أي: حزنت عليه.

المرء! ثم يثني عليه.

وقد قال عمرو بن العاص إذ رأى عمر يبكي لاستعطاف الحطيئة إياه في سجنه: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكي على تركه الحطيئة!

وقد شاء القدر أن يموت عمر قتيلاً فلا يكون قتله دليلاً على بغضاء «شخصية» أو خلة ترتبط بحياته الفردية. فإنما البغضاء «الوطنية» هي علة التآمر على قتْله بين المغلوبين في ميدان القتال على التحقيق، وهكذا كل بغضاء بقيت بعد موته مقرونة بذكراه فإنما هي في أصلها «بغضاء وطنية» كامنة وراء الدعاوى الطائفية والمجادلات المذهبية، وإن تطاولت الأيام.

فالمعلوم أن عمر مات بطعنات من خنجر فيروز «أبي لؤلؤة» من سبايا الفرس بالمدينة، وإن فيروز هذا جاء عمر قبل مقتله بأيام فشكا إليه مولاه المغيرة بن شعبة، لأنه فرض عليه خراجاً درهمين في كل يوم، فسأله عمر عن صناعته فأنبأه أنه «نجار نقاش حداد». فلم يستكثر عمر هذا الخراج على مَن يصنع هذه الأعمال، وقال له: قد بلغني أنك تقول: «لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت» وطلب إليه أن يصنع رحى على هذه الصفة، فقال له: لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب. ثم انصرف وهو يقول «وسع الناس عدله غيري». فقال عمر لسامعيه: لقد توعدني العبد آنفاً. ولم يؤاخذه بهذا الوعيد، بل كان من نيته أن يلقى المغيرة ليخفف عن مولاه.

هذا هو السبب الظاهر الذي لا يستر ما وراءه، لأن أبا لؤلؤة لم يكن إلا منفذاً للكيد الذي اتفق عليه كثيرون، وقد روى عبد الرحمن بن أبي بكر أنه رأى هذا الرجل مع الهرمزان وجُفينة قبل مقتل عمر جالسين يتحدثون. فلما فاجأهم قاموا وقوفاً فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، وهو الخنجر الذي حمله فيروز لقتل عمر وقتل نفسه إن أخذ بفعلته.

والهرمزان أمير زالت عنه الإمارة بعد ذهاب الدولة المجوسية، وجُفينة من أهل الأنبار وهم على ولاء للفرس، وأبو لؤلؤة فارسي شديد الحقد على المسلمين، لم ينس أسره ولم يزل كلما جيء إلى المدينة بأسرى من وقعات

فارس مسح رؤوسهم وتوعد المسلمين أجمعين.

وقد كان شاركهم في هذه المؤامرة يهودي مغلوب تظاهر بالإسلام، وهو المسمّى بكعب الأحبار. ولعله أراد أن يكسب سمعة العلم بالأسرار من علمه بالمؤامرة، فذهب إلى عمر قبل ثلاثة أيام من مقتله ينذره أن يختار ولي عهده لأنه ميت في ثلاثة أيام. فسأله عمر: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله التوراة. فلم تجز هذه الدعوى على عمر وعاد يسأله: «الله! إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟»، فأشفق الرجل أن ينكشف دجله، وقال: بل أجد صفتك وحيلتك، وأنه قد فنِيَ أجلك. ثم كرر له النذير مرتين في اليومين التاليين.

فعمر إنما ذهب –رحمه الله – شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الإسلامية لا شك فيها، وما كانت قصة الخراج إلا الستار الذي يتوارى به المتآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى، مخافة القصاص الذي يحيق بهم إذا جهروا بما دبروه أو جهروا بالعلة التي من أجلها تربصوا بذلك التدبير.

إن مقتل عمر أحرى أن يعد جزءاً من أكبر أجزاء سيرته، ولا يحسب نهاية تختم تلك السيرة دون أن تضيف إليها.

فقد تمثلت في مقتله مزاياه الكبار التي تمثلت في جلائل أعماله وعظائم مساعيه وخصاله، فكان عمر الصريع قدوة في الشجاعة وتقديم الواجب والإيثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير، كما كان عمر في أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير.

وكان رضي الله عنه ينظر إلى الحياة كأنها رسالة تؤدّى ما استطيع أداؤها، ثم لا معنى إذا فرغ من رسالتها أو حيل بينه وبين أدائها، فبعد الحجة التي مات على إثرها أناخ بالأبطح ثم كوّم كوْمة من البطحاء ألقى عليها طرف ردائه واستلقى عليها ورفع يديه إلى السماء، ودعا الله: «اللهم كبرت سني وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيّع ولا مفرّط. اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك».

ومضت أسابيع فخرج يوماً قبيل الفجر يوقظ الناس ثم يسوّي الصفوف للصلاة، فلم يؤم الناس حتى فاجأه القاتل بطعنتين إحداهما في كتفه والأخرى في خاصرته، وقيل ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة وقد خرقت

الصفاقـين[1] قُضِيَ بهـا نحبه رحمه اللـه، وقيل بل سـت طعنات منها تلك الطعنة القاتلة.

فلـم تشغله هـذه الطعنات المفاجئـات عن الصلاة، ولم يفكـر أن يشغل المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم في موعدها، وسأل عن عبد الرحمن بن عوف ليصلي بالناس.

ثـم جعل يُغمَى عليه ولا ينتبه إذا دعـوه، حتى قال بعض عارفيه: إنكم لـن تفزعوه بشيء مثل الصـلاة إن كانت به حياة. فنُودي الصلاة. الصلاة! فلمـا سمع النـداء فتح عينيه وفـاه بكلمات متقطعات: «الصـلاة! ها. اللـه. إذن» ثم قال: لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة».

ولم يهمه مَن قتله بعد أن حُمل إلى منزله إلا أن يعرف ألِمَظلمة كان قتله أم لبغـيٍّ مَن القاتـل؟ فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال: ولمَ قاتله اللـه، وقد أمرت بـه معروفاً ثـم حمد اللـه قائلاً: «الحمد للـه الـذى لم يجعل قاتلي يحاجّني عند اللـه بسجدة سجدها له قط. ما كانت العرب لتقتلني».

وهمّـه بعد ذلك أن يلقى حسابه عند الناس وهو وشيك أن يلقى حسابه عند اللـه. فأمر ابن عباس أن يخرج إلى المهاجرين والأنصار يسألهم: أعن مـلأ منكم ومشـورة كان هذا الـذي أصابني؟ فصاحوا معلنـين: «لا واللـه. ولوددنا أن اللـه زاد في عمره من أعمارنا».

واشتـد البـكاء كأن الناس لم يصابوا بمصيبة قبلهـا، فنهاهم أن يبكوا عليـه. ثم سقوه نقيع التمر فخرج من الجـرح أحمر كما هو، فلم يعرفوا أدمٌ هو أم النقيع خرج بلونه. فسقوه اللبن الأبيض فخرج أبيض يشوبه صديد، فأشار عليه الطبيب أن يعهد فقال: «لو قلت غير هذا لكذبتك».

وكان قـد أنكـر علـى النـاس أن يجيئـوه بالطبيـب قبـل أن يفـرغ من وصايـاه: ويْحَكُـم أيهـا النـاس، أأنظـر في أمر نفسي قبـل أن أنظر في أمور المسلمـين؟ فلما قال الطبيب مقالته أخـذ في تدبير المهم من شؤون الدولة وأولهـا الخلافة، فجعلها شورى ليستقر بها القرار ما استُطيع إقراره، ونجا بأهلـه منهـا وهو يقول: «أمـا لقد جهدت نفسي وحرمـت أهلي، وإن نجوْت

1- صفاق البطن وهو الجلد الباطن عند سواد البطن.

كفافاً[1] لا وزْر ولا أجر إني لسعيد».

وهــو في هــذا كله لا يخالــف ديدنة من صراحــة ولا يكتــم طبيعة أهل الفنــاء من حب الحياة، ولا يخفى «إن للحياة لنصيباً من القلب وإن للموت لكربة!» ولكنها لم تمنعه قط أن يعطي الحق حيث وجب للموت أو للحياة.

فلمــا فرغ من شــؤون الدولة، نظــر في أمر دينه فأبَــى أن يدفن قبل أن يضمــن سداده، وأقبل يطمئــن إلى مضجعه في جوار صاحبيه وقد فرغ من حقــوق الدنيا. فدعا بابنه عبد اللـه ينطلق إلى عائشة أم المؤمنين، ويقرئها السـلام. ونهاه أن يسمّيه عندها أمير المؤمنــين، لأنه ليس اليوم للمؤمنين أمــيراً. ثــم يستأذنها أن يدفن إلى جوار صاحبيــه، يعني النبي عليه السلام وخليفته أبا بكر.

ووجدهــا عبد اللـه تبكي، فسلــم عليها واستأذنهــا فأذنت وقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي!

فلــم يكفه هذا حتــى يستوثق كل الاستيثاق مــن رضاها، فعاد يخاطب ابنــه: «يــا عبد اللـه بن عمر! انظــر، فإذا قبضت فاحملــوني على سريري ثم قف على الباب، فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلني، وإن ردّتنــي فــردني إلى مقابر المسلمــين، فإني أخشى أن يكــون إذنها لي لمكان السلطان».

وقــال شهود دفنــه: «فلما حُمِل فــكأن المسلمين لم تصبهــم مصيبة إلا يومئــذ». وفارق الدنيا أعدل العادلين وهو مظلــوم أو متهم بظلم، فما دلها شيء على عظم فضله ولا عظم الحاجة إلى العدل فيها كما دلها هذا الختام.

1- نجوْت كفافاً: أي لا لي ولا عليّ.

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

- طبائع الاستبداد .... عبد الرحمن الكوكبي
- برقوق نيسان .... غسان كنفاني
(القميص المسروق) وقصص أخرى
- الأئمة الأربعة .... سليمان فياض
- الفصول الأربعة .... عمر فاخوري
- الإسلام وأصول الحكم .... علي عبدالرازق
بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام
- شروط النهضة .... مالك بن نبيّ
- صلاح جاهين .... محمد بغدادي
أمير شعراء العامية
- نداء الحياة .... أبو القاسم الشابي
مختارات شعرية – الخيال الشعري عند العرب
- حرية الفكر وأبطالها في التاريخ .... سلامة موسى
- الغربال .... ميخائيل نعيمة
- الإسلام بين العلم والمدنية .... الشيخ محمد عبده
- أصوات الشاعر المترجم .... بدر شاكر السياب
مختارات من قصائده وترجماته
- فتنة الحكاية .... ترجمة غادة حلواني
جون أبديك – سينثيا أوزيك – جيل ماكوركل – باتريشيا هامبل
- امرأتنا في الشريعة والمجتمع .... الطاهر الحداد
- الشيخان .... طه حسين
- ورد أكثر .... محمود درويش
مختارات شعرية ونثرية
- يوميات نائب في الأرياف .... توفيق الحكيم

عبقرية عمر

عباس محمود العقاد

في رأي العقاد، أن عمر رجل المناسبة الحاضرة في العصر الذي نحن فيه، لأنه العصر الذي شاعت فيه عبادة القوة الطاغية؛ فإذا فهمنا واحداً كعمر بن الخطاب. فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه، لأننا سنفهم رجلاً كان غـ... في البأس، وغاية في العدل وغاية في الـ... هذا الفهم ... العصر، يشـ... ليسوا يميلون ...

وإنه لجهاد ... لعمر بن الخطاب ... للعقاد أن يوجزه في هذا الكتاب.

